http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : تفسير الشعراوي

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (101)

أوضح سبحانه : وطِّنوا أنفسكم على أن من حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون ، وهذا التوطين يعطي مناعة اليقظة؛ حتى لا يندس واحد من المنافقين على أصحاب الغفلة الطيبين من المؤمنين ، فينبههم الحق : انتبهوا فأنتم تعيشون في مجتمع محاط بالمنافقين . والتطعيم ضد الداءات التي تصيب الأمم وسيلة من وسائل محاربة العدو ، ونحن نفعل ذلك مادياً حين نسمع عن قرب انتشار وباء؛ فنأخذ المصل الواقي منه ، رغم أنه داء إلا أنه يعطينا مناعة ضد المرض . وهكذا يربي الحق المناعة بحيث لا يمكن أن يُهاجَم المؤمنون عن غفلة ، فيقول : { وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الأعراب مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ المدينة مَرَدُواْ عَلَى النفاق } و « مرد » يمرد أي : تدرب وتمرن ، ويبقى الأمر عند حرفة ، وكأن الواحد منهم يجيد النفاق إجادة تامة . وكل ذلك ليوجد مناعة في الأمة الإسلامية؛ حتى يكون المؤمن على بصيرة في مواجهة أي شيء ، فإذا رأى أي سلوك فيه نفاق اكتشفه على الفور . واليقظة تدفع عنك الضر ، ولا تمنع عنك الخير .

وافرض أن واحداً قال لك : إن هذا الطريق مَخُوف لا تمشِ فيه وحدك بالليل . ثم جاء آخر وقال : إنه طريق آمن ومشينا فيه ولم يحدث شيء ، فلو أنك احتطْتَ وأخذت معك سلاحاً أو رفيقاً فقد استعددت للشر لتتوقاه ، فَهَبْ أنه لم يحدث شيء ، فما الذي خسرته؟ إنك لن تخسر شيئاً .

وهذه قضية منطقية فلسفية يُردّ بها على الذين يشككون في دين الله ، مثل المنجِّمين ، ومَن يدَّعون الفلسفة ، ويزعمون أنه لا يوجد حساب ولا حشر ولا يوم آخر ، فيقول الشاعر :

زَعَم المنجِّم والطّبيبُ كلاهما ... لا تُحْشَرُ الأجسَاد قلْتُ إليكُمَا

إنْ صَحَّ قولكُمَا فَلسْتُ بخَاسرٍ ... أوْ صَحَّ قَوْلِي فَالخسَار عليكُما

أي : إن كان كلامكم صحيحاً من أنه لا يوجد بعث – والعياذ بالله – فلن أخسر شيئاً؛ لأني أعمل الأعمال الطيبة . وإن كان هناك بعث – وهو حق – فسوف ألقى الجزاء في الجنة؛ وبذلك لم أخسر ، بل كسبت . لكن افرضوا أنكم عملتم الشر كله وجاء البعث فأنتم الخاسرون .

والقضية الفلسفية المنطقية هنا هي : إن لم أكسب فلن أخسر ، وأنتم إن لم تخسروا فلن تكسبوا .

والحق في هذه الآية يقول :

{ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الأعراب مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ المدينة مَرَدُواْ عَلَى النفاق . . } وكلمة { وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ } تفيد أنكم محاصرون ، لا ممن حولكم فقط ، بل أيضاً ببعض من الموجودين بينكم في المدينة ، وهم من تدربوا على النفاق حتى صارت لهم ألفة به .

وهذه الآيات – كما نعلم – قد نزلت تحكي حال المنافقين . والنفاق تتعارض في ملكات النفس الإنسانية بأن توجد ملكة كفر في القلب ، بينما توجد ملكة إيمان في اللسان ، فلا يتفق اللسان مع القلب ، فالذين آمنوا يوافق ما ينطقون به ما في قلوبهم ، والذين كفروا وافقت قلوبهم ألسنتهم .

أما الصنف الثالث : وهم الذين نطقوا بالإيمان بألسنتهم ، ولم تؤمن قلوبهم ، فهؤلاء المنافقون . وهو لفظ مأخوذ من « نافقاء اليربوع » وهو حيوان صحراوي يشبه الفأر ، ويخدع من يريد صيده ، فيجعل لبيته أو جحره عدة فجوات ، فإذا طارده حيوان أو إنسان يدخل من فجوة ، فيتوهم الصائد أنه سيخرج منها ، ويبقى منتظراً خروجه ، بينما يخرج اليربوع من فجوة أخرى ، فكأنه خادع الصائد ، فالصائد يظن أن للجحر باباً واحداً ، ولكن الحقيقة أن للجحر أكثر من مدخل ومخرج . والنفاق بهذه الصورة فيه ظاهرتان : ظاهرة مَرَضيّة في المنافق ، وظاهرة صحية في المنافَق؛ ولذلك لم ينشأ النفاق في مكة ، وإنما نشأ في المدينة .

ومن العجيب أن ينشأ النفاق في المدينة التي آوت الإسلام وانتشر منها ، وانساح إلى الدنيا كلها ، ولم يظهر في مكة التي أرادت أن تطمس الإسلام ، وحارب سادتُها وصناديدُها الدعوةَ .

إذن : فلا بد أن نأخذ من النفاق ظاهرتين : الظاهرة الأولى وهي الظاهرة المرضيّة ، حيث قال الحق : { فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً . . . } [البقرة : 10]

أما الظاهرة الثانية فهي الظاهرة الصحية ، فقد أصبح الإسلام قويّاً بالمدينة غيره عند بدء الدعوة في مكة . إنما يُنَافَق القوي؛ لأن المنافق يريد أن ينتفع بقوة القوى ، كما أن المنافق يعرف أنه لن يستطيع مواجهة القوي ، أو أن يقف منه موقف العداء الظاهر .

إذن : فالنفاق حين يظهر ، إنما يظهر في مجالات القوة ، لا في مجالات الضعف ، فالرجل الضعيف لا ينافقه أحد ، والرجل القوي ينافقه الناس . إذن : فالنفاق ظاهرة مرضية بالنسبة للمنافق ، وظاهرة صحية في المنافَق .

وأراد الحق سبحانه أن يكشف للمؤمنين أمر المنافقين الذين يتلصصون عليهم ، أي : يتخذون مسلك اللصوص؛ في أنهم لا يُواجهون إلا في الظلام ، ويحاولون أن يدخلوا من مداخل لا يراهم

منها أحد ، ويتلمَّسون تلك المداخل التي لا تظهر ، ويُخْفون غير ما يظهرون .
أما مواجهة الكافر فهي مسألة واضحة ، صريحة؛ فهو يعلن ما يبطن ، ويواجهك بالعداء . وأنت تواجهه بجميع قوتك وكل تفكيرك؛ لأنه واضح الحركة . أما المنافق الذي يُظهر الإيمان وفي قلبه الكفر ، فهو يتلصص عليك ، وعليك أن تحتاط لمداخله؛ لأنه ينتظر اللحظة التي يطعنك فيها من الخلف .
وينبهنا الحق إلى ضرورة الاحتياط ، وأن يمتلك المؤمنون الفطنة والفراسة وصدق النظر إلى الأشياء ، فكشف لنا سبحانه كل أوجه النفاق؛ كشف منافقي المدينة حيث يوجد منافقون وغير منافقين ، ومنافقي الأعراب الذين يوجد بينهم منافقون وغير منافقين ، وعَلّم الحق سبحانه المؤمنين كيف يتعرفون على المنافقين بالمظاهر التي تكشف ما يدور في صدورهم .
وسبحانه القائل عن المنافقين : { وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول . . . } [محمد : 30]
ولكنْ هناك لون من النفاق ، نفاق فني دقيق ، يغيب على فطنة المتفطن ، وعلى كياسته .

ولذلك يوضح لنا سبحانه : أنا لا أكلُكم إلى فطنتكم لتعلموا المنافقين ، وإنما أنا أعلمه وأنتم لا تعلمونه؛ لأنهم قد برعوا في النفاق { لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ } ورغم فطنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكياسته فقد أوضح له الحق أنه سيغيب عنه أمرهم؛ لأنهم احتاطوا بفنيّة النفاق فيهم حتى لا يظهر .
لقد عبّر القرآن التعبير الدقيق ، فقال : { مَرَدُواْ عَلَى النفاق } والمادة نفسها في كلمة { مَرَدُواْ } هي من مرد ، يمرد ، مروداً ، ومارداً ، ومريداً ، هذه المادة تصف الشيء الناعم الأملس الذي لا تظهر فيه نتوءات ، ومنه الشاب الأمرد ، يعني الذي لم ينبت له شعر يخترق بشرته ، إذن : المادة كلها تدل على الثبات على شيء ، وعدم وجود شيء فيه يخدش هذا الثبات .
ويوضح سبحانه : تنبَّهوا ، فممَّن حولكم من الأعراب منافقون ، وقوله الحق : { وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ } يشعر بأنهم محاطون بالنفاق ، ولماذا يحاطون بالنفاق؟ لأن الدعوات الإيمانية لا تظهر إلا إذا طمّ الفساد في بيئة .
ونعلم أن الحق قد جعل في النفس أشياء تطرد الباطل ، وإن الحّ الباطل عليها فترة ، تتنبه النفس إليه وتطرده . وهؤلاء هم الذين يتوبون ، يقترفون الذنب ثم ترجع إليهم نفوسهم الإيمانية فتردعهم . إذن : فالردع إما أن يكون ذاتيّاً في النفس ، وإما أن يكون من المجتمع للنفس التي لا يأتيها الردع من الذات ، فهي نفس أمَّارة بالسوء ، وهي لا تأمر بالسوء مرة وتنتهي ، بل هي أمّارة به ، أي : اتخذت الأمر بالسوء حرفة؛ لأن صيغة « فعّال » تدلنا على المزاولة والمداومة .
وإذا كانت المناعة في النفس فهذا أمر يسير ويأتي من النفس اللوامة ، وقد يكون المجتمع الذي

حول الإنسان هو الذي يردع النفس إن ضعفت في شيء . وبهذا تكون المناعة رادعاً ذاتيّاً ، ولا المجتمع فيه رادع؛ هنا لا بد أن تتدخل السماء ، وتأتي دعوة الحق بآياتها ، وبيناتها ، ومعجزة الرسول .

هنا يقف أصحاب الفساد – وتكون نفوسهم أمّارة بالسوء – موقفاً ينافقون به القوة الطارئة الجديدة ، بينما تظل نفوسهم أمّارة بالسوء – موقفاً ينافقون به القوة الطارئة الجديدة ، بينما تظل نفوسهم أمّارة بالسوء ، فتظهر ظاهرة النفاق .

وقوله الحق : { وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الأعراب مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ المدينة } أي أنكم مطوقون في ذاتكم ومن حولكم ، فالنفاق في ذات المكان الذي تقيمون فيه ، وفيما حولكم أيضاً .

وأخشى ما يخشاه الإنسان ، أن يوجد الأمر الضار حوله وفيه؛ لأنه إن كان الأمر الضار في المكان الذي يعيش فيه ، فمن حوله يستطيعون إنقاذه أو يستطيع هو أن يهجر المكان ، لكن إذا كان محاصراً بالضرر ممن حوله ومن المكان الذي يحيا فيه ، فإلى أين يذهب؟

ويريد سبحانه أن ينبه المؤمنين إلى أن ظاهرة النفاق متفشية؛ منها ما تستطيعون – أيها المؤمنون – معرفته بمعرفة حركات المنافقين وسكناتهم ولحن قولهم وتصرفاتهم ، ومنها أمر دقيق خفي لا تعلمونه ، ولكنه سبحانه يعلمه؛ ولأنكم غير مسلمين لأنفسكم ، ولكم رب يعلمكم ما لا تعلمون فاطمئنوا؛ فسوف يفضحهم لكم .

ونتيجة هذا العلم أنكم سترون فيهم العقوبات؛ فيأتي فيهم القول الحق : { سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إلى عَذَابٍ عَظِيمٍ } .

هم إذن سيعذبون مرتين في الدنيا ، ثم يردون لعذاب الآخرة ، وأول عذاب لمن يستر نفاقه أن يفضح نفاقه؛ ولذلك خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « قم يا فلان فأنت منافق ، قم يا فلان فأنت منافق ، قم يا فلان فأنت منافق »

أو تأتي له مصائب الدنيا . ولقائل أن يقول : وهل المصائب عذاب للمنافق ، إن المصائب قد تصيب المؤمن أيضاً؟

ونرد : إن المصائب تاتي للمؤمن لإفادته ، ولكنها تأتي للمنافق لإبادته . فالمؤمن حين يصاب؛ إما أن يكفر الله به عنه ذنباً؛ وإما أن يرفعه درجة به لكن المصائب حين تصيب المنافق فهي مغرم فقط؛ لأن المنافق لا يرجو الآخرة؛ ولذلك يقال :

إن المصاب ليس من أصيب فيما يجب ، ولكن المصاب هو من حرم الثواب .

فإن استقبل المؤمن المصيبة بالرضا ، وعلم أن الذي أجراها عليه حكيم ، ولا يجري عليه إلا ما يعلم الخير وإن لم يعلمه؛ فهو ينال الثواب على الصبر والأجر على الرضا ، وهكذا يخرج من دائرة الألم العنيف . أما غير المؤمن فهو يتمرد على القدر ، وبعدم إيمانه يُحْرَم من الثواب .

أو أن العذاب مرتين ، وغير الفضيحة بنفاقهم ، فيتمثل في محاولتهم أن يظهروا بمظهر الإيمان والإسلام ، فيخرج الواحد منهم الزكاة من ماله ، والمال محبب للنفس؛ لذلك فهو يخرج الزكاة مرغماً؛ ويشعر أنه قد خسر المال لأنه لا يؤمن بإله؛ لذلك فمصيبته كبيرة . وقد يرسل المنافق ابنه للحرب وهو يعلم أنه ليس له في ذلك ثواب ، وهذا لون آخر من العذاب .

وهذا العذاب متحقق بقول الحق : { وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدنيا . . . } [التوبة : 85]

أو أن يكون العذاب في الدنيا هو ما يرونه حين تغرغر النفس ، لحظة أن تبلغ الروح الحلقوم ، ويرى المُغَرْغِر الملائكة مصداقاً لقوله الحق : { وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الحريق } [الأنفال : 50]

وكل هذه ألوان من العذاب في الدنيا .

والإنسان – كما نعلم – في استقبال الزمن له ثلاث حالات : زمن هو حياته الدنيا ، وزمن هو زمن موته ، وزمن هو زمن آخرته . فحين يصاب المؤمن في الزمن الأول – زمن حياته – يُعزِّيه في مصابه الزمنُ الأخير ، وهو زمن آخرته .

أما حين يصاب الكافر أو المنافق في زمن حياته ، فلا شيء يعزيه أبداً؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا هو يطمع في شيء من خيره سبحانه .

ويأتيه الزمن الثاني ، وهو زمن الموت ، وفيه عذاب القبر .

والعذاب إنما يكون بأحد اثنين : إما عرض ما يعذب به ، أو دخول فيما يعذب به ، وهذا يكون في الآخرة . أما عرض العذاب فهو القبر كأنه يقول لك : انظر ما ينتظرك . وما دام الإنسان يرى الشر الذي ينتظره ، أليس هذا عذاباً؟

إنه عذاب مؤكد .

{ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إلى عَذَابٍ عَظِيمٍ } ولو قال الحق : « نعذبهم مرتين » فقط بدون السين ، لصار لها معنى آخر مختلف تماماً . يتلخص في أن من يصيبه عذاب ، فقد انتهى حسابه . لكن قوله : { سَنُعَذِّبُهُم } يؤكد لنا كلما قرأناه أن العذاب متصل .

ويُنهي الحق الآية الكريمة بقوله :

{ ثُمَّ يُرَدُّونَ إلى عَذَابٍ عَظِيمٍ } وكلمة { يُرَدُّونَ } مثلها مثل { يُرْجعون } أو { يَرْجعون } ونحن نقول مرة : « يُرْجعون » وأخرى « يَرْجعون » ، فكأن النفس البشرية تألف جزاءها في قولنا : « يَرْجعون » ، أما قولنا : « يُرْجعون » ففي الكلمة قوة عليا تدفعهم ألا يتقاعسوا .

وهكذا نجد المعذَّب إما مدفوع بقوة عُليا ، وإما أن توجد فيه بقوة ذاتية تجعله يذهب إلى العذاب . والإنسان قد يتصرف تصرفاً ما ، ثم يرد إلى أفكاره فلا يعجبه هذا التصرف ، ويستقبل نفسه

بالتوبيخ وبالتعنيف؛ لأن هناك إلحاحاً من النفس على العقوبة ، وهو إلحاح يأتي من ذات النفس .

والنفس الأمارة بالسوء قد تقضي حياتك معها في أمر بالسوء ، ثم حين يأتي العقاب فأنت تقول لها : « اشربي أيتها النفس نتيجة ما فعلت » .

إذن فالمعذَّب يُدفع مرة للعذاب ، وأخرى يندفع بذاته .

{ ثُمَّ يُرَدُّونَ إلى عَذَابٍ عَظِيمٍ } ومثلما قلنا من قبل : فإن هناك ألواناً متعددة من العذاب ، فهناك العذاب العظيم ، والأليم ، والمهين ، والمقيم . والعذاب العظيم يأتي إما بأسباب وإما بمسبِّب ، وعذاب الدنيا كله بأسباب ، فقد يكون العذاب بالعصا ، أو بالكرباج ، أو بالإهانة ، والأسباب تختلف قوة وضعفاً ، أما عذاب الآخرة فهو بمسبِّب ، والمعذِّب في الآخرة واحد وقوته لا نهاية لها ، وإن قسْتَ عذاب الآخرة بالعذاب في الدنيا فمن المؤكد أن عذاب الآخرة عذاب عَظيم .

ويقول الحق من بعد ذلك : { وَآخَرُونَ اعترفوا . . . }

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102)

وقوله الحق : { وَآخَرُونَ } معطوفة على قوله : { وَمِنْ أَهْلِ المدينة مَرَدُواْ عَلَى النفاق } ، فهل يظلون جميعاً على النفاق ، أم أن منهم من يثوب إلى رشده؛ ليجد أن موقفه مخز حتى أمام نفسه؟ لأن أول ما ينحط المنافق إنما ينحظ أمام نفسه؛ لأنه نافق ولم يقدر على المواجهة ، واعتبر نفسه دون من يواجهه؛ فيحتقر نفسه ، ولا بد أن منهم من يأنف من هذا الموقف ، ويرغب في حسم المسألة : إما أن يؤمن وإما أن يكفر ، ثم يرجح الإيمان ، ويتخلص من النفاق؛ بأن يعترف بذنوبه .

وبذلك يصبح ممن يقول الحق عنهم : { وَآخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ } أي : ممن لم يُصرّوا على النفاق ، واعترفوا بذنوبهم ، والاعتراف لون من الإقرار . والإقرار بالذنب أنواع ، فهناك من يقر بالذنب إفاقة ، وآخر يقر الذنب في صفاقة ، مثلما تقول لواحد : هل ضربت فلاناً؟ فيقول : نعم ضربته ، أي أنه اعترف بذنبه ، وقد يضيف : وسأضرب من يدافع عنه أيضاً ، وهذا اعتراف فيه صفاقة .

أما من يعترف اعتراف إفاقة ، فهو يقر بأنه ارتكب الذنب ويطلب الصفح عنه ، وهذا هو الاعتراف المقبول عند الله . وهم قد { اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ } اعتراف إفاقة ، بدليل أن الله قال فيهم : { خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً } وعملهم الصالح هنا هو إقرارهم بالذنب ومعرفتهم أن فضيحة الدنيا أهون من فضيحة الآخرة ، أما عملهم السيء فهو التخلف عن الجهاد والإنفاق .

واعترافهم هذا هو اعتراف الإفاقة ، واختلف العلماء : هل هذا الاعتراف يعتبر توبة أم لا؟
نقول : إن الحق سبحانه وتعالى حينما قال : { اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً } ثم قوله : { عَسَى الله أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } أي : رجاء أن يتوب عليهم ، وهذه مقدمات توبة وليست توبة ، فإن صاحبها الندم على ما مضى ، والإصرار على عدم العودة في المستقبل فيُنظر هل هذا كان منه مخافة أن يُفضح أم موافقة لمنهج الله؟
إن كان الأمر موافقة لمنهج الله فتكون التوبة مرجوَّة لهم .
وكلمة { خَلَطُواْ } تؤدي معنى جمع شيئين كانا متفرقين ، وجمع الشيئين أو الأشياء التي كانت متفرقة له صورتان؛ الصورة الأولى : أن يجمعهم على هيئة الافتراق ، كأن تأتي بالأشياء التي لا تمتزج ببعضها مثل : الحمص واللب والفول ، وتخلط بعضها ببعض في وعاء واحد ، لكن يظل كل منها على هيئة الانفصال ، فأنت لم تدخل حبة اللب في حبة الحمص ، ولم يتكون منهما شيء واحد؛ لأنه لو حدث هذا لصار مزيجاً لا خلطاً ، مثلما تخلط الشاي باللبن؛ لأنك بعد أن تجمعهما يصيران شيئاً واحداً ، بحيث لا تستطيع أن تفصل هذا عن ذاك .
إذن : فهم حين خطلوا العمل الصالح والعمل السَّيِّئ ، لم يجعلوا من العمل الصالح والعمل السَّيِّئ مزيجاً واحداً .

لكن العمل الصالح ظل صالحاً ، والعمل الفاسد ظل فاسداً .
وقوله سبحانه : { عَسَى الله أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ } كلمة { عَسَى } معناها الرجاء وهو ترجيح حصول الخير . وهو لون من توقع حصول شيء محبوب . والرجاء يخالف التمني؛ لأن التمني هو أن تحب شيئاً وتتمنى أن يكون موجوداً ، لكنه لا يأتي أبداً ، مثل قول الشاعر :
ألا لَيْتَ الشَّبابَ يَعُودُ يَوْماً ... فَأخبِرُه بِمَا فعلَ المشِيبُ
إنه قد تمنى أن يعود شبابه ، وهذا دليل على أن فترة الشباب محبوبة ، لكن ذلك لا يحدث . إذن : فإظهار الشيء المحبوب له لونان : لون يتأتى ، ولون لا يتأتى ، فالذي يتأتى اسمه (رجاء) ، والذي لا يتأتى نسميه (التمني) ، مثل قول الشاعر :
لَيْتَ الكَوَاكِب تَدْنُو لِي فَأنظِمَهَا ... عُقُودَ مَدْحٍ فما أرضَى لَكُمْ كَلَما
فالشاعر يتمنى حدوث ذلك ، ولكنه لن يحدث . أما الرجاء فهو أمل يمكن أن يحدث ، والرجاء له منازل ومراحل بالنسبة للنفس الإنسانية . فأنت عندما ترجو لواحد شيئاً فتقول : « عسى فلان أن يمنحك كذا » ، فأنت مُترَجٍّ ، وهناك مترجّىً له ، هو من تخاطبه ، ومترجّىً منه ، وهو من يعطي ، فهذه ثلاثة عناصر .
لكن ألك ولاية على من يمنح؟ لا ، لكن إن قلت : عسى أن أمنحك أنا كذا ، فأنت ترجو لواحد غيرك أن تمنحه أنت ، وهذا أرجى أن يتحقق . وحين تقول : « عسى أن أمنحك » فقد

تقولها في لحظة إرضاء للذي تتحدث معه . ثم قد يبلغك عنه شيء يغير من نفسك ، أو جئت؛ لتعطيه ، فلم تجد ما تعطيه له ، هنا لم يتحقق الرجاء .

لكن عندما تقول : « عسى الله أن يمنحك » ، فأنت ترجو له من الله ، وهو القادر على كل شيء ولا تؤثّر فيه أغيار ، أما إذا قال الله عن نفسه : « عسى الله أن يفعل » ، فهذا أقوى وسائل الرجاء .

إذن : فنحن أمام أربع وسائل للرجاء . أن تقول : « عسى فلان أن يمنحك » أو أن تقول : « عسى أن أمنحك أنا » ، أو تقول : « عسى الله أن يمنحك » وقد يجيبني الله ، أو لا يجيب دعائي ، لكن حين يقول الحق : « عسى أن أفعل » فهذا هو اللون الرابع من ألوان الرجاء ، وقالوا : الرجاء من الله إيجاب .

{ عَسَى الله أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ } ، فهذا رجاء أن يتوب الله عليهم ، أما توبة العبد فمسألة تقتضي الندم على ما فات ، والرجوع إلى منهج الله ، والعزم ألا يغضب الله في المستقبل . أما توبة الله فهي تضم أنواع التوبة ، فتشريع الله للتوبة رحمة بمن ارتكب الذنب ، ورحمة بالناس الذين وقع عليهم السلوك الذي استوجب التوبة . فإن تُبْتُ؛ فقبول التوبة رحمة ثانية ، فلو لم يشرع الله التوبة لاستشرى كل من ارتكب ذنباً واصطلى المجتمع بشروره . لكن حين يشرع الله التوبة؛ فهناك أمل أن يرجع العبد إلى الله ، ويتخلص المجتمع من إمكانية عودته للذنب ، وانتهى هو من أن يوقع مصائب بغيره .

فإذا قَبِلَ الله التوبة ، يقال : « تاب الله على فلان » ، فلله إذن أكثر من توبة ، ولذلك حين تقرأ قوله الحق : { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا . . . } [التوبة : 118]

أي : شرع لهم التوبة؛ ليتوبوا ، فإذا تابوا فسبحانه قابل التوب . إذن : فالتوبة ثلاث مراحل : تشريع للتوبة ، ثم توبة واقعة ، فقبول للتوبة . والتوبة رجوع عن شيء ، وهي بالنسبة للعبد رجوع عن ذنب ، وبالنسبة لله إن كان الذنب يستحق أن يعاقب الله به ، فإذا تبت أنت ، فالحق يعفو ويرجع عن العقوبة .

ويُنهي الحق الآية : { إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } ؛ لأن المغفرة بالنسبة للعبد صعبة ، فإن سرق واحد منك شيئاً فهو يضرك ، ويلحّ عليك حب الانتقام منه؛ لأن الضرر أتعبك ، لكن أيُتْعبُ أحد ربه بالمعصية؟ لا؛ لأنك إن كنت قد أضررت بأحد فإنما أضررت بنفسك ، ولم تضر الله سبحانه؛ لأنه سبحانه لا يلحقه ضرر بذنبك ، وإنما الذنب لحقك أنت .

فحين يقول سبحانه : { غَفُورٌ } فهو غفور لك ، و { رَّحِيمٌ } بك . والمصائب أو الكوارث نوعان؛ نوه للإنسان فيه غريم ، ونوع يصيب الإنسان ولا غريم له . فإن مرض إنسان فليس له غريم في المرض ، أما إذا سرق إنسان فاللص هو غريمه ، ومصيبة الإنسان التي فيها غريم تدفع

النفس إلى الانفعال برد العقوبة إليه ، أما حين تكون المصيبة من غير غريم هي التي تحتاج لشدة إيمان ، والحق يقول : { وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور } [الشورى : 43] هنا يؤكدها؛ لأن غريمه يلح عليه ، فساعة يراه يتذكر ما فعله غريمه به ، فتكون هناك إهاجة على الشر .

أما قوله سبحانه : { واصبر على مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور } [لقمان : 17] فلم يؤكدها ، فالمصيبة هنا من سيكون غريمه فيها؟ والذين اعترفوا بذنوبهم هم قوم تخلفوا بغير عذر ، ثم جاءوا وقالوا : ليس لنا عذر ، ولم يختلقوا أعذاراً؛ لأننا نعلم أن هناك أناساً لم يعتذروا ، وأناساً آخرين اعتذروا بأعذار صادقة ، وآخرين اعتذروا باعتذارات كاذبة ، وهم قد { اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ } أي : أعلنوا أن اعتذاراتهم عن الغزوة لم تكن حقيقية وأنه لم يكن عندهم ما يبرر تخلفهم عن الغزو؛ فهؤلاء تاب الله عليهم في نفوسهم أولاً ، ورسول الله لا يزال في الغزوة في تبوك التي تخلفوا عنها .

ثم عاد الرسول من الغزوة ، ودخل المسجد كعادته حين يرجع إلى المدينة ، وأول عمل كان يعمله بعد العودة هو أن يدخل المسجد ، ويصلي فيه ركعتين . فوجد أناساً قد ربطوا أنفسهم بسواري المسجد وهي الأعمدة فسأل عن هؤلاء ، فقالوا : هؤلاء قوم تخلفوا وكانت أعذارهم كاذبة كلنهم اعترفوا بذنوبهم ، وقد عاهدوا الله ألا يحلوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تحلهم وترضى عنهم فقال صلى الله عليه وسلم : « وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أؤمر بإطلاقهم؛ رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين » .

فلما أنزل الله هذه الآية حلهم رسول الله ومنهم : أبو لبابة .

ولذلك من يذهب ليزور المدينة إن شاء الله ، سيجد أسطوانة اسمها « أسطوانة أبي لبابة » وهو أول من ربط نفسه على الساري ، وقلده الآخرون . وهذا يدلك على أن المؤمن حين تختمر في نفسه قضايا الإيمان فهو لا ينتظر أن يعاقب من الله ، بل يبادر هو إلى أن يعاقب من الله ، بل يبادر هو إلى أن يعاقب نفسه .

ومثال ذلك : المرأة التي زنت ، والرجل الذي زنا ، واعترفا لرسول الله ليرجمهما ، ومعنى ذلك أنهما لم ينتظرا حتى يعذبهما الله ، بل ذهب كل منهما بنفسه . ولذلك حين جاء سيدنا عمر ، وكاد أن يركل جثة أحدهما قال الرسول : « دعها يا عمر فقد تابت توبة لو وزعت على أهل الأرض لو سعتهم » .

وكون أبي لبابة يربط نفسه بالسارية ، فهذا يدل على أن المؤمن إذا اختمرت في نفسه قضية الإيمان ، فإنه لا يترك نفسه إلى أن يلقاه الله بعذابه ، بل يقول : لا ، أنا أعذب نفسي كي أنجو من عذاب الله ، فهو قد تيقن أن هناك عذاباً ً في الآخرة أقسى من هذا العذاب . فلما اعترفوا

بذنوبهم وراجعوا أنفسهم متسائلين : ما الذي شغلنا عن الغزو ، وجعلنا نعتذر بالكذب؟ وجدوا أنهم في أثناء غزوة تبوك وقد كانت في الحر ، وفيه كانت تطيب جلسات العرب تحت الظلال وأن يأكلوا من التمر . فقالوا : والله ، إن المال هو الذي شغلنا عن الغزو وجعلنا نرتكب هذا الذنب ، ولا بد أن نتصدق به؛ لذلك قلنا : إن هذه لم تكن الصدقة الواجبة ، بل هي صدقة الكفارة . وهؤلاء قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : خذ هذا المال الذي شغلنا عن الجهاد ، فلم يقبل حتى ينزل قول من الله ، فأنزل الحق قوله : { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً . . . }

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103)

هذه هي الصدقة غير الواجبة؛ لأنها لو كانت الصدقة الواجبة لما احتاجت إلى أمر جديد ، بل هي صدقة الكفارة .

وقوله الحق : { مِنْ أَمْوَالِهِمْ } يعني أموال من اعترفوا بذنوبهم ، وقد نسب الأموال وملكيتها لهم ، رغم أن المال كله لله ، مصداقاً لقوله : { وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ الله الذي آتَاكُمْ . . . } [النور : 33]

ولكن الحق ينقله إلى خلقه تفضلاً منه ، وأوضح سبحانه إذا قلت لكم : أخرجوا شيئاً من المال الذي وهبتكم إياه فلن أرجع فيما وهبته لكم ، ولذلك إذا احتاج مؤمن شيئاً من مؤمن مثله ، فالحق سبحانه وتعالى يقول : { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله . . . } [البقرة : 245]

وسبحانه واهب المال وهو يحترم هبته لصاحب المال .

وقوله : { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً } لاحظ فيه العلماء أن المال حين يضاف إلى صاحبه فهو تطمين له ، حتى يتحرك في الحياة حركة فوق ما يحتاج ، ويبقى له شيء يتموَّله ، وبذلك يحرص الإنسان على الحركة التي ينتفع بها الغير ، وإن لم يقصد . فيوضح له الحق : اطمئن إلى أن كل شيء سيزيد عن حاجتك يصبح ملكاً لك ، ولا يخرج المال عن ملكية صاحبه إلا إذا كان صاحبه غير أهل للتصرّف ، مصداقاً لقوله الحق : { وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء أَمْوَالَكُمُ . . . } [النساء : 5]

لأن السفيه لا يصح أن يتملك؛ لأنه بالحمق قد يضيع كل شيء ، فينزل الحق الحكم : إن مال السفيه الذي يملكه ليس ماله إنما هو مالكم . ولكن إلى متى؟ فيأتي القول الحق : { فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً فادفعوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ . . . } [النساء : 6]

أي : ردوا إليهم أموالهم متى عادوا إلى الرشد وصاروا أهلاً للملكية .

والحق في هذه الآية يقول :

{ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } والله سبحانه وتعالى هو صاحب المال ، وهو يأتي

بالمال ، بالأسباب التي جعلها للبشر في حركة الحياة ، وأمَّنهم على عرقهم ، وأمَّنهم على ما يملكون؛ حتى لا يزهد أحد في الحركة؛ فلو أخذ كل واحد من حركته على قدر نفسه ، ولم يتملك المال؛ لضنّ الناس بالحركة . وإذا ضن الناس بالحركة؛ فلن يستفيد غير القادرين على الحركة ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل ما يزيد على حاجات الناس ملْكاً لهم؛ لأن النفس تحب أن تتملك ، والتملك أمر غريزي في النفس؛ بدليل أن الله سبحانه وتعالى هو الذي طلب أن يؤخذ من الأموال ، وأوضح أنه يضاعفها له ، ومعنى أنه يضاعفها عنده أنه يُنمي فيه غريزة التملك .

وقوله الحق : { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ } نلحظ فيه أن الأموال أضيفت لأصحابها ، ما لم يكن فيهم سفه في التصرف أو عدم رشد؛ بأن يكون وارث المال قاصراً لا يقدر على التصرف فيه ، فأوضح لنا سبحانه : لا تعتبروا مال السفيه ولا مال القاصر ماله ، ولكن ليرعى الوصيّ المال باعتبار أنه ماله هو ، وحذَّر سبحانه الوصيَّ : إياك أن تتعدى في ملكية هذا المال؛ لأن الذي جعله مالك ، إنما جعل الملكية من أجل القيامة على المال ، ولأجل هو أن يبلغ القاصر رشده ، أو يرجع السفيه إلى عقله .

{ وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء أَمْوَالَكُمُ التي جَعَلَ الله لَكُمْ قِيَاماً . . . } [النساء : 5]

فإياك أيها الوصي ، أن تظن أن الله قد أعطى لك هذا المال ، بل جعل لك حق القيام عليه فقط ، ثم يقول سبحانه : { فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً فادفعوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ } ولم يقل : « فادفعوا إليهم أموالكم » وإلا كان الأمر صعباً على الناس .

وهنا ملحظية لحظها العلماء رضي الله عنهم ، وهو أن المال إذا كان فيه حق معلوم للسائل والمحروم ، فلا يصح أن ينسب الإنسان المال كله لنفسه؛ لأن له شركاء فيه هما السائل والمحروم ، فالمال – إذن – ملكية صاحبه باستثناء حق السائل والمحروم .

وفي آية أخرى قال الحق : { والذين في أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ والمحروم } [المعارج : 24–25]

و « الحق المعلوم » هو الزكاة المفترضة من نصاب معلوم بقدر معلوم ، وأما الأمر الثاني فهو حق أيضاً ، ولكن الذي يوجبه ويحدده هو صاحب المال على نفسه ، وهو التطوع ، ولذلك لم يقل : حق معلوم كما في سورة الذاريات : { إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لَّلسَّآئِلِ والمحروم } [الذاريات : 15–19]

لقد ذكر سبحانه هنا الحق ولم يقل إنه معلوم؛ لأن صاحب المال داخل في مقام الإحسان ، وهو المقام الذي يلزم الإنسان فيه نفسه بشيء فوق ما فرض الله من جنس ما فرض الله . والله سبحانه لم يفرض على الإنسان أن يقوم الليل كله ، أو يظل الليل يستغفر ، بل إن المسلم له أن

يصلي العشاء وينام ، ثم يقوم لصلاة الفجر . لكن إن وجد في نفسه نشاطاً ، فهو يقوم الليل؛ لأنه يريد أن يدخل في مرتبة الإحسان .

وكذلك يؤدي المسلم الزكاة وهذا حق معلوم ، أما إن رغب المسلم في أن يدخل في مقام الإحسان فهو يزيد على الزكاة ، وقد جعل الله هذا حقّاً لكنه غير معلوم؛ ليفسح لأريحيات الكرام أن يتجاوزوا الحق المعلوم ، فبدلاً من اثنين ونصف بالمائة ، قد يجعلها الداخل إلى مقام الإحسان ضعف ذلك أو أكثر .

ووقف العلماء رضي الله عنهم هنا قالوا : إن قوله الحق : { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ } لا يعني اعتبار الجزء المأخوذ من المال للفقير هو حق الفقير ، بل هو مال المؤدي ، ولو بيّن الله حق الفقير وعزله عن مال صاحبه ، فهذا يعني أن المال إن هلك فليس للفقير شيء ، ولكن لأن المال مال الغني فحق الفقير محفوظ في ذمة صاحب المال ، وهذا أفضل للفقير ، فإن الغني لو لم يؤد الزكاة في ساعتها ، وبعد ذلك حدث أن هلك المال ، فالغني ضامن لحق الفقير .

{ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ } والصدقة تطهرهم؛ لأن الذنب الذي فعلوه واعترفوا به تسبّب في تقذير أنفسهم بالمعصية ، وما داموا قد قذروا أنفسهم بالمعصية ، فهم في حاجة أن يُطهَّرُوا بالمال الذي كان سبباً في عدم ذهابهم إلى الغزوة .

وانظر هناك إلى ملحظ « الأداء البياني » في القرآن ، فالحق سبحانه يقول : { خُذْ } وهو أمر للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويقول : { مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً } من أموال الأغنياء ، هذه الصدقة ستذهب للمحتاج ، إذن هنا أربعة عناصر : آخذٌ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومأخوذ منه هو صاحب المال ، ومأخوذ هو المال ، ومأخوذ له هو الفقير المحتاج .

وما دام الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا الأمر ينسحب بالتالي على كل من وَلِيَ أمراً من أمور المسلمين . ولقائل أن يقول : ولكنها صدقة وليست زكاة . ونقول : ما دام الله هو الذي أمر بها تطهيراً فقد صارت واجباً ، والآية صريحة ، وتقتضي أنه ما دامت هناك ولاية شرعية ، فولي الأمر هو الذي يأخذ من الناس ويؤدي للفقراء ، أو لأوجه الصرف التي شرعها الله؛ لأن الله لا يريد أن يعذب الفقير بأن يمد يده آخذاً من مُسَاو له ، أما إن أخذ من الوالي وهو المسئول عن الفقراء ، فلن يكون عيباً ، كما أن الحق سبحانه يريد أن يحمي أهل الفقير من أن يعلموا أن البيت الفلاني يعطي لهم زكاة ، فيعاني أولاد الآخذ من المذلة أمام أولاد المعطي ، ويعيش أبناء المعطي في تعال لا لزوم له . إذن : فحين يكون الوالي هو الذي يعطي فلن يكون هناك مُسْتعلٍ أو مُستعلىً عليه .

أما إن لم تكن هناك ولاية إسلامية ، ولا يعلم الإنسان إلى أين ستذهب الأموال ، فهنا يصبح كل إنسان أن يراعي محيط دينه وهو يخرج الزكاة وحينئذ يكون عندنا مُعْطٍ هو صاحب المال ، ومال

مُعْطىً ، ومعطىً له هو الفقير .
وعلى من يعود قوله الحق : { تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ } ؟ السطحيون في الفهم يقولون : إنها تطهر من نأخذ منه المال ، وتزكّى المال الذي نأخذ منه . لكن من يملك عمقاً في الفهم يقول : ما دامت هناك في هذه الآية عناصر ، فضروري أن يعود التطهير والتزكية عليها ، وإنها تطهر وتزكي المأخوذ منه صاحب المال ، وكذلك تطهر وتزكي المال المأخوذ ، وأيضاً تظهر وتزكي المأخوذ له وهو الفقير ، لأن التطهير معناه إزالة قَذَر ، والتزكية نماء .
القذارة أمر عارض على الشيء الذي نغسله ونطهره ، وتنمية له بشيء عائد عليه فيزداد ، وهكذا تُطهر الصدقة وتزكى عناصر الفعل كلها . والتطهير لمن يعطي ، له معنى مع ، والزكاة لها معنى معه؛ لأنك إن أخذت منه المال ، فقد يكون قد ل وأدخل في ماله شيئاً فيه شبهة ، فالصدقة والزكاة تطهران هذا المال .

أما كيف تنمّي صاحب المال؟ أنت إن أخذت منه وهو قادر ، معنى ذلك أنك تطمئنه أنه إذا احتاج فستعطيه ، وبهذا يعرف أنه لا يعيش في المجتمع بمفرده ، ولا يخاف أن يضيع منه المال ، واطمأن لحظة أن أخذت منه المال وهو قادر كي تعطي المحتاج ، فكأنك تطمئنه وتقول له : أنت لو احتجت فلن تضيع ، وبذلك تُنمّي تواجده وثقته ، وطهرته أيضاً من أن يكون في ماله شبهة ، هذا من ناحية صاحب المال .
أما من ناحية المال نفسه ، فالصدقة تطهر المال؛ لأن المال قد يزيد فيه شيء فيه شبهة فالزكاة تطهره .
وقد يخيل إليك أنك حين تأخذ من المال فهو ينقص ، عكس الربا الذي يزيد المال ، فالربا مثلاً يحقق زيادة للمائة جنيه فتصبح مائة وعشرة مثلاً ، أما المزكّي فالمائة جنيه تصير سبعة وتسعين ونصفاً ، والسطحي يرى أن الزكاة أنقصت المال وأن الربا يزيده ، ولكن هذا بمقاييس البشر ، لا بمقاييس من يملك الأشياء؛ فالزكاة التي تعتبرونها نقصاً تنمّي ، والربا الذي تعتبرونه ينمّي إنما يُنقص ، والحق يقول : { يَمْحَقُ الله الربا وَيُرْبِي الصدقات . . . } [البقرة : 276]
إذن : فهناك مقاييس عند البشر ، ومقاييس أخرى عند الحق ، فما رأيته منقصاً لك ، هو عند الله زيادة ، وما رأيته مزيداً لك ، هو في الواقع نقصٌ ، كيف؟ لأن الناس لا ينظرون إلا إلى رزق الوارد الإيجابي ، ويظنون أن هذا هو الرزق ، ولا يتذكرون أن هناك رزقاً اسمه « رزق السلب » ، فرزق الإيجاب قد يزيد دخلك مثلاً من مائة إلى مائة وعشرة . ورزق السلب يتمثل في أنك تصرف سبعين فقط ، بدلاً من أن تصرف مائةً ، فيبقى لك ثلاثون ، بالإضافة إلى أنه يمنع عنك مصارف الشر ، هذا من ناحية المال .
والحق يقول : { وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ الناس فَلاَ يَرْبُو عِندَ الله وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ

تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فأولئك هُمُ المضعفون } [الروم : 39]

وكيف تكون الصدقة تطهيراً للآخذ وهو لم يذنب ذنباً يحتاج إلى تطهير ، بل هو مُعطىً له لأنه محتاج؟ ونقول : إن الآخذ حين يأخذ من مال غيره ، وهو عاجز عن الكسب فهو يتطهر من الحقد على ذي النعمة؛ لأنه وصله بعض من المال الذي عند ذي النعمة ، فلا يحقد عليه ولا يحسده ، فهو إن رأى عنده خيراً ، دعا له بالزيادة؛ لأن بعضاً من الخير يعود عليه .

والفلاحون في ريف مصر يهدون بعضهم بعضاً من لبن ماشيتهم ، أو بعضاً من الخير الخارج من لبنها ، وساعة أن تمرَّ إحداهما على أهل القرية يدعون الله بحمايتها ، وهكذا تتطهر نفس الفقير من الحقد والحسد .

هذا عن التطهير ، فماذا عن التزكية والنماء؟ إن الفقير ساعة يرى نفسه فقيراً ، ويرى أن المجتمع الإيماني يقوم برعايته ولا يتركه وحيداً ، ويتسابق أهل الخير لنجدته ، فنفسه تنمو بالاطمئنان؛ لأنه في مجتمع إيماني .

إذن : فقوله الحق : { تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ } راجع لكل العناصر في الآية .

ثم يقول سبحانه : { وَصَلِّ عَلَيْهِمْ } أي : ادع لهم بالخير؛ ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم كلما أتاه قوم بأي صدقة قال : « اللهم صَلِّ عليهم » فأتاه أبو أوفى بصدقته ، فقال : « اللهم صَلِّ على آل أبي أوفى » ، هذه هي التزكية القولية التي يحب كل مسلم أن يسمعها فيعطِي ، ويجِدّ ويجتهد من ليس عنده؛ ليسمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله الحق : { إِنَّ صلاوتك سَكَنٌ لَّهُمْ } أي : اطمئنان لهم ، وما دام الرسول صلى الله عليه وسلم قد دعا له ، فهو قد اطمأن إلى أن صدقته وصلت إلى مرتبة القبول حيث جازاها رسول الله بالدعاء . وإذا ما سمعها الآخذ للصدقة يقول بينه وبين نفسه : ولماذا لا أجِدّ في حياتي وأجتهد؛ حتى أظفر بتلك الدعوة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ويُنهي الحق الآية بقوله : { والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ } أي أنه سبحانه { سَمِيعٌ } لكل ما تعتبره قولاً . و { عَلِيمٌ } بكل ما تعتبره فعلاً .

ويقول الحق بعد ذلك : { أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله . . . }

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104)

و { أَلَمْ يعلموا } مكونة من ثلاث كلمات هي : همزة استفهام ، « لم » حرف نفي « ، و » يعلم « وهو فعل . فهل يريد الله هنا ان ينفي عنهم العلم أم يقرر لهم العلم؟ لقد جاء سبحانه بهمزة يسمونها » همزة الاستفهام الإنكاري « والإنكار نفي ، فإذا دخل نفي على نفي فهو إثبات ، أي

» فليعلموا « .

ولماذا لم يأت بالمسألة كأمر؟ نقول : إن الحق حين يعرضها معرض الاستفهام فهو واثق من أن المجيب لا يجيب إلا بهذا ، وبدلاً من أن يكون الأمر إخباراً من الله ، يكون إقراراً من السامع .

{ أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة } لماذا جاء الحق بكلمة { هُوَ } ، وكان يستطيع سبحانه أن يقول : » ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة « ولن يختل الأسلوب؟

أقول : لقد شاء الحق أن يأتي بضمير الفصل ، مثلما نقول : فلان يستطيع أن يفعل لك كذا . وهذا القول لا يمنع أن غيره يستطيع إنجاز نفس العمل ، لكن حين تقول : فلان هو الذي يستطيع أن ينجز لك كذا . فهذا يعني أنه لا يوجد غيره . وهذا هو ضمير الفصل الذي يعني الاختصاص والقصر ويمنع المشاركة .

لذلك قال الحق : { أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة . . . } [التوبة : 104]

وهل كانت هناك مظنة أن أحداً غير الله يقبل التوبة؟ لا . بل الكل يعلم أننا نتوب إلى الله ، ولا نتوب إلى رسول الله . ونحن إذا استعرضنا أساليب القرآن ، وجدنا أن ضمير الفصل أو ضمير الاختصاص هو الذي يمنع المشاركة فيما بعدها لغيرها؛ وهو واضح في قصة سيدنا إبراهيم حين قال : { إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمُ الأقدمون * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إِلاَّ رَبَّ العالمين } [الشعراء : 70-77]

ولم يقل سيدنا إبراهيم : » إنهم أعداء « ، بل جمعهم كلهم في عصبة واحدة وقال : { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لي } .

و { إِنَّهُمْ } – كما نعلم – جماعة ، ثم يقول بعدها { عَدُوٌّ } وهو مفرد ، فجمعهم سيدنا إبراهيم وكأنهم شيءٌ واحد . وكان بعضٌ من قوم إبراهيم يعبدون إلهاً منفرداً ، وجماعة أخرى يعبدون الأصنام ويقولون : إنهم شركاء للإله . إذن : كانت ألوان العبادة في قوم إبراهيم عليه السلام تتمثل في نوعين اثنين .

ولما كان هناك من يعبدون الله ومعه شركاء ، فقول إبراهيم قد يُفسر على أن الله داخل في العداوة؛ لذلك استثنى سيدنا إبراهيمُ وقال : { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إِلاَّ رَبَّ العالمين } ، أي : أن الله سبحانه ليس عَدُوّا لإبراهيم عليه السلام ، وإنما العداوة مقصورة على الأصنام .

أما إن كان قومه يعبدون آلهة دون الله ، أي : لا يعبدون الله ، لم يكن إبراهيم ليستثنى .

والاستثناء هنا دليل على أن بعضاً من قومه هم الذين قالوا : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى . . . } [الزمر : 3]

وهكذا تبرأ سيدنا إبراهيم عليه السلام من الشركاء فقال : { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العالمين } وهذا كلام دقيق محسوب . وأضاف : { الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } [الشعراء : 78]

ولم يقل : « الذي خلقتني يهديني » ، بل ترك « خلقني » بدون « هو » وخَصَّ الله سبحانه وحده بالهداية حين قال : { فَهُوَ يَهْدِينِ } ؛ لأن « هو » لا تأتي إلا عند مظنة أنك ترى شريكاً له ، أما مسألة الخلق فلا أحدٌ يدّعي أنه خلق أحداً . فالخلق لا يُدَّعى ، ولذلك لم يقل « الذي هو خلقني » .

والحق سبحانه هو القائل : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله . . . } [الزخرف : 87]

فليس هناك خالق إلا هو سبحانه . إذن : فالأمر الذي لا يقول به أحد غير الله لا يأتي فيه الضمير . لكن الأمر الذي يأتي فيه واحد مع الله ، فهو يخصّص ب « هو » تأكيداً على تخصيصه لله وحده { الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } فليس لأحد أن يُدخل أنفه في هذه المسألة؛ لأن أحداً لم يدّع أنه خلق أحداً ، فمجيء الاختصاص – إذن – كان في مجال الهداية بمنهج الحق ، لا بقوانين من الخلق . فمن الممكن أن يقول بشر : أنا أضع القوانين التي تسعد البشر ، وتنفع المجتمع ، وتقضي على آفاته ، ونقول : لا ، إن الذي خلقنا هو وحده سبحانه الذي يهدينا بقوانينه .

إذن : فما لا يُدَّعى فلا تأتي فيه (هو) ، أما ما يمكن أن يُدَّعى فتأتي فيه (هو) . وقوله سبحانه : { والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ } [الشعراء : 79]

وجاء هنا أيضاً بضمير الفصل؛ لأن الإنسان قد يرى والده وهو يأتي له بالطعام والشراب فيظن أن الأب شريك لله؛ لذلك جاء ب { هُوَ } ، فأنت إن نسبت كل رزق يأتي به أبوك ، لانتهيت إلى مالم يأتي به الأب؛ لأن كل شيء فيه سببٌ للبشر ينتهي مإلى ماليس للبشر فيه أسباب ، فكل شيء من الله؛ لذلك قال سيدنا إبراهيم : { والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء : 79–80]

وخصص الشفاء أيضاً؛ حتى لا يظن ظان أن الطبيب هو الذي يشفي ، وينسى أن الله وحده هو الشافي ، أما الطبيب فهو معالج فقط؛ ولذلك تجد أننا قد نأخذ إنساناً لطبيب ، فيموت بين يدي الطبيب؛ ولذلك يقول الشاعر عن الموت :

إنْ نَام عنْكَ فَأيُّ طِبٍّ نَافِعٌ ... أوْ لم يَنَمْ فالطِّبَّ مِن أذنَابِه

فقد يعطي الطبيب دواءً للمريض ، فيموت بسببه هذا المريض . وجاء سيدنا إبراهيم بالقصر في الشفاء لله؛ حتى لا يظن أحد أن الشفاء في يد أخرى غير يد الله سبحانه .

ثم يقول سيدنا إبراهيم : { والذي يُمِيتُنِي . . . } [الشعراء : 81]

ولم يقل : « هو » يميتني؛ لأن الموت مسألة تخص الحق وحده ، وقد يقول قائل : كان يجب أن

يقول : « هو يمتني » ، ونقول : انتبه إلى أن إلا بنقض البنية ، ويضيف الحق على لسان سيدنا إبراهيم :

{ والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ } [الشعراء : 81] .

وأيضاً لم يقل : « هو يحييني »؛ لأن هذا أمر خارج عن أي توهم للشركة فيه ، فقد جاء ب « هو » في الأمور التي قد يُظن فيها الشركة ، وهو كلام بالميزان : { والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين } [الشعراء : 82]

لم يأت أيضاً ب « هو »؛ لأن المغفرة لا يملكها إلا الله .

إذن فكل أمر معلوم أنه لا يشارَك فيه جاء بدون « هو » ، وكل ما يمكن أن يُدَّعى أن فيه شركة يجيء ب « هو » .

وهنا يقول الحق : { أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ } وظاهر الأمر أن يقال : ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة « من » عبادة ، ولكنه ترك « من » وجاء ب « عن » . والبعض يقولون : إن الحروف تنوب عن بعضها ، فتأتي « من » بدلاً من « عن » . ونقول : لا ، إنه كلام الحق سبحانه وتعالى ولا حرف فيه يغني عن حرف آخر؛ لأن معنى التوبة ، أن ذنباً قد حدث ، واستوجب المذنب العقوبة ، فإذا قَبل الله التوبة ، فقد تجاوز الله عن العقوبة؛ ولذلك جاء القول من الحق محدداً : { أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة } أي : متجاوزاً بقبول التوبة عن العقوبة .

وهكذا جاءت « عن » بمعناها؛ لأنه سبحانه هو الذي قَبِل التوبة ، وهو الذي تجاوز عن العقوبة .

ثم يقول سبحانه : { وَيَأْخُذُ الصدقات } صحيح أن الله هو الذي قال للرسول : { خُذْ } ولكن الرسول هو مناول ليد الله فقط ، و « يأخذ » هنا معناها « يتقبل » واقرأ قول الحق : { إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ . . . } [الذاريات : 15-16]

أي : متلقين ما آتاهم الله . ومثال ذلك ما يُروى عن السيدة فاطمة حينما دخلا عليها سيدنا رسول الله عليه وسلم فوجدها تجلو درهماً ، والدرهم عملة من فضة . والفضة من المعادن التي لا تصدأ ، والفضة على أصلها تكون لينة لذلك يخلطونها بمعدن آخر يكسبها شيئاً من الصلابة . والمعدن الذي يعطي الصلابة هو الذي يتأكسد؛ فتصدأ الفضة؛ لذلك أخذت سيدتنا فاطمة تجلو الدرهم . فلما دخل عليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سألها : ما هذا؟ قالت : إنه درهم . واستفسر منها لماذا تجلو الدرهم؟ فقالت : كأني رأيت أن أتصدق به ، وأعلم أن الصدقة قبل أن تقع في يد الفقير تقع في يد الله فأنا أحب أن تكون لامعة .

فعلت سيدتنا فاطمة ذلك؛ لأنها تعلم أن الله وحده هو الذي يأخذ الصدقة .

{ أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصدقات وَأَنَّ الله هُوَ التواب الرحيم } .

كل هذه الآية نفي لمظنة أن يتشككوا إذا فعلوا ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ رسول الله الصدقات ، فإن توبتهم قد قُبلَتْ ، ولكن الذي يقبل التوبة هو الله ، والذي يأخُذ الصدقات هو الله؛ لأنه هو التواب الرحيم؛ لذلك جاء قول الحق من بعد ذلك : { وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى الله . . . }

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

إذن : هم أعلنوا التوبة بعد أن اعترفوا بذنوبهم ، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وربطوا أنفسهم في سواري المسجد ، وقالوا : لا نحل انفسنا حتى يحلّنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : خذ من أموالنا صدقة لتطهرنا؛ كل هذا جعل هناك فاصلاً بني ماضٍ ندموا عليه ، ومستقبل يستأنفونه قد ولدت الآن . وبدأت صفحة جديدة ، فهل أنتم ستسيرون على مقتضى هذه التوبة أم لا؟

ولا تظنوا أن أموركم ستكون في الخفية بل ستكون في العلن أيضاً ، أم أموركم الخفية فسيعلمها الله؛ لذلك قال : { فَسَيَرَى الله } . أما الأمور التي تحتاج لفطنة النبوة فالرسول صلى الله عليه وسلم سيراها بنوره في سلوككم . أما الأمور الظاهرة الأخرى فسيراها { المؤمنون } .

نحن هنا أمام ثلاثة أعمال : عمل يراه المؤمنون جميعاً ، فالتزموا بهذا المنهج حتى يشهد لكم المؤمنون بما يرون من أعمالكم ، وإياكم أن تخادعوا المؤمنين؛ لأن رسول الله بفطنته ونورانيته وصفائه وشفافيته سيعرف الخديعة ، أما إن كانت المسألة قد تتعمَّى على المؤمنين وعلى الرسول ، فالله هو الذي يعلم .

{ وَقُلِ اعملوا } أي : اعملوا عملاً جديداً يناسب اعترافكم بذنوبكم ، ويناسب إعلانكم التوبة ، ويناسب أنكم ربطتم أنفسكم في المسجد ، ويناسب أنكم تصدقتم بالأموال ، عمل تستأنفون به حياتكم بصفحة جديدة ، واعلموا أننا سنرقب عملكم ، الله يرقبه فيما لا يعلمه البشر ، وهو النيَّات ، ورسول الله يعلمه فيما يطابق نورانيته وإشراقه ، والمؤمنون يعلمونه في عاديات الأمور . وهذه الرؤية من الله ومن الرسول ومن المؤمنين لا تكون لها قيمة إلا إذا ترتب عليها الجزاء ثواباً أو عقاباً ، فهي ليست مجرد رؤية ، بل إن الرائي يملك أن يثيب أو أن يعاقب . وأنكم راجعون إليه لا محالة . وإذا كنتم في الدنيا تعيشون في الأسباب التي يعيش فيها الكافر والمؤمن ، ويعيش فيها الطائع والعاصي ، فهناك عالم الغيب الذي يملكه الله وحده : { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16]

إذن : سيعامل التائب معاملة جديدة ، وما دام قد تاب ، فلعله بسبب الغفلة التي طرأت عليه فأذنب؛ غفل عن اليوم الآخر ، فيحتاج إلى تجديد التذكير بالإيمان .

لذلك قال : { وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمؤمنون } .
قوله سبحانه : (فَسَيَرَى) ذكر الفعل مرة واحدة ، فالرؤية واحدة ملتحمة بعضها ببعض لتروا هل أنتم على المنهج أم لا؟
{ وَسَتُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغيب والشهادة } أما علم الغيب فانفرد به الله سبحانه ، وأما عالم الشهادة فالرسول سوف يعلم عنكم أشياء ، وكذلك المؤمنون يعلمون أشياء ، وربنا عالم بالكل . وسبحانه لا يجازي على مجرد العلم ، بل بنية كل إنسان بما فعل ، وسبحانه يقول : { كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً } [الإسراء : 14]
ولذلك يُنهي الحق هذه الآية بقوله :
{ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } وهؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم ، وربطوا أنفسهم في السواري ، وتصدقوا بالأموال ، وأعطى الله فيهم حكمه بأن جعل رسول الله هو من يحل وثاقهم من السواري ، وقبل منهم الصدقات؛ ليسوا وحدهم ، فهناك أناس آخرون فعلوا نفس الأمر ، لكنهم لم يربطوا أنفسهم في سواري المسجد ، ولا اعترفوا بذنوبهم؛ لذلك يجيء قوله الحق : { وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ . . . }

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106)

والمقصودون بهذه الآية هم الثلاثة الذين سيخصهم القرآن بآيات خاصة يقول فيها : { وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وظنوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ الله إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا إِنَّ الله هُوَ التواب الرحيم } [التوبة : 118]
وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع . وهم قد تخلفوا أيضاً عن غزوة تبوك ، ولم يكن لهم عذر في التخلف أبداً ، فكل واحد يملك راحلته ، وعندهم مالهم ، وعندهم كل شيء ، وقد قصّ واحد منهم حكايته ، وبيّن لنا أنه لم يكن له عذر : « وما كنت في يوم من الأيام أقدر على المال والراحلة مني في تلك الغزوة ، كنت أقول : أتجهز غداً ، ويأتي الغد ولا أتجهز ، حتى أنفصل الركب ، فقلت ألحق بهم ، ولم ألحق بهم » .
هؤلاء هم الثلاثة الذين جاء فيهم القول : { وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله }
و { مُرْجَوْنَ } أو « مرجَئون » والإرجاء هو التأخير . أي : أن الحكم فيهم لم يظهر بعد؛ لأن الله يريد أن يبين للناس أمراً ، وخاصَّةً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينشئ في الدولة الإسلامية سجناً يُعزَل فيه المجرم؛ وهذا لحكمة ، فكونك تأخذ المجرم وتعزله عن المجتمع وتحبسه في مكان فهذا جائز . لكن النكال في أن تدعه طليقاً ، وتسجن المجتمع عنه .
وهكذا تتجلى عظمة الإيمان؛ لذلك أصدر صلى الله عليه وسلم أمراً بأن يقاطعهم الناس ، فلا يكلمهم أحد ، ولا يسأل عنهم أحد ، حتى اقرباؤهم ولا يختلط بهم أحد في السوق أو في

المسجد .

وكان أحدهم يتعمد أن يصلي قريباً من النبي صلى الله عليه وسلم ويختلس النظرات ليرى هل ينظر النبي له أم لا؟ ثم يذهب لبيت ابن عمه ليتسلق السور ، ويقول له : أتعلم أنني أحب الله ورسوله؟ فيرد عليه : الله ورسوله أعلم . وهكذا عزل رسول الله صلى الله عليه وسلم المجتمع عنهم ، ولم يعزلهم عن المجتمع . وكذلك عزلهم عن زوجاتهم ، وهو الأمر الذي يصعب التحكم فيه . وحذر صلى الله عليه وسلم زوجاتهم أن يقربوهم إلى أن يأتي الله بأمره .

{ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ }

هذا بالنسبة لنا – إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم . لكن الحق سبحانه وحده هو الذي يعلم مصير كل واحد منهم .

فالتشكيك إذن هو بالنسبة لنا؛ لأنهم مُرْجَوْن لأمر الله ولم يبت فيهم بحكم لا إلى النار ولا إلى الجنة ، ولم يبَت فيهم بالعفو . أما أمرهم فهو معلوم له سبحانه إما أن يعذب وإما أن يتوب؛ لأن كل حكم من الله له ميعاد يولد فيه ، ولكل ميلاد حكمة ، وهناك قوم عجّل الله بالحكم فيهم ، وقوم أخّر الله الحكم فيهم؛ ليصفى الموقف تصفية تربية ، لهم في ذاتهم ، ولمن يشهدونهم .

وقد استمرت هذه المسألة أكثر من خمسين يوماً؛ ليتأدبوا الأدب الذي يؤدبهم به المجتمع الإيماني ، فلم يشأ الله أن يبين الحكم حتى يستوفي هذا التأديب .

وإذا أُدِّب هؤلاء ، فإن تأديبهم سيكون على مَرْأى ومسمع من جميع الناس ، فيأخذون الأسوة من هذا التأديب .

ولو أن الله عجّل بالحكم ، لمرّت المسألة بغير تأديب للمعتذرين كذباً وغيرهم ، فقال : { وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله } وما دام سبحانه قد حكم هنا بأنهم مؤخَّرون لأمر الله ، فليس لنا أن نتعجل قصتهم ، إلى أن يأتي قول الله فيهم : { وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ . . . } [التوبة : 118]

وأراد الله أن يقص لنا قصة أخرى من أحوالهم ، فقال : { والذين اتخذوا مَسْجِداً . . . }

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107)

يقص لنا القرآن هنا حالاً من أحوال المنافقين ، وأحوالهم مع الإيمان متعددة . وقد ذكر الحق سبحانه عنهم أشياء صدَّرها بقوله : { وَمِنْهُمْ } ، { وَمِنْهُمْ } و { وَيَحْلِفُونَ } ، { وَيَحْلِفُونَ } ؛ ولذلك يسميها العلماء « مناهم التوبة » ، مثل قوله : { وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ الله . . . } [التوبة : 75]

وقول الحق : { وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبي . . . } [التوبة : 61]

وقوله الحق : { وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائذن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي . . . } [التوبة : 49]

وقال الحق عنهم أيضاً : { وَيَحْلِفُونَ } ، { وَيَحْلِفُونَ } ، { وَيَحْلِفُونَ } ويقولون عنها : « محالف التوبة » ، ويقص الحق هنا حالاً آخر من أحوال المنافقين ، وقد قص له نظيراً فيما سبق ، وهؤلاء المنافقون – كما قلنا – متعارضون في ملكاتهم ، ملكة لسانية تؤمن ، وملكة قلبية تكفر . والمزاوجة بين الملكات المتناقضة أمر عسير على النفس وشاق ، ويتطلب مجهوداً عاطفيّاً ، ومجهوداً عقليّاً ، ومجهوداً حركيّاً ، فَهُم إذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا كلاماً ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا كلاماً ، ويقص الحق ذلك حين يعلنون الإيمان بألسنتهم في قوله : { وَإِذَا لَقُواْ الذين آمَنُواْ قالوا آمَنَّا . . . } [البقرة : 14]

أما إذا خَلَوْا إلى أنفسهم فالحق يصف حالهم : { وَإِذَا خَلَوْاْ إلى شَيَاطِينِهِمْ قالوا إِنَّا مَعَكُمْ . . . } [البقرة : 14]

وهكذا تُكْبَت ملكات لسانهم في أن يقولوا وقت يكونوا مع المؤمنين ، أما حين يكونون مع إخوانهم فهم يُنفِّسون عن ملكاتهم فيقولون قولاً مختلفاً ، وهذه مسألة متناقضة؛ ولذلك قال القرآن فيما سبق : { لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئاً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ } [التوبة : 57]

أي : لو أنهم يجدون مكاناً أميناً ، لا يراهم فيه المؤمنون ، لنفَّسوا عن أنفسهم ، وسبّوا النبي ، وسبّوا المؤمنين ، وقالوا ما يريدون ، إلا أنهم لا يجدون هذا المكان ، إنهم يُنفِّسوا عن أنفسهم؛ إذن : { لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ } ، لكنهم لا يجدون .

ويقص الحق سبحانه وتعالى هنا قصة أخرى من أحوالهم فيقول عز وجل : { والذين اتخذوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً . . . } [التوبة : 107]

نحن نعلم أن كلمة « مسجد » في عمومها هي مكان السجود ، وفي الخصوص هي مكان يحجز للسجود وللصلاة فقط ، فإن أردت المعنى العام ، فكل الأرض مسجد ، وتستطيع أن تصلي في أي مكان فيصير مسجداً ، لا بالمكان ولكن بالمكين ، وبعد ذلك تزاول فيه أعمال الحياة ، وقد تصلي في الفصل الدراسي أو المكتب أو المصنع أو الحقل أو في أي مكان تزاول فيه أسباب الحياة .

وبذلك يصبح المكان الذي تصلي فيه مسجداً بالمكين ، ولكن هناك مسجد آخر مخصص دائماً للصلاة حين يؤخذ حيز من المكان ، ويقال : « حجز ليكون مسجداً » ، فلا تباشر فيه أي عملية من عمليات الحياة إلا الصلاة وهو مسجد – بالمكان – ، ونحن نعلم أن أول مسجد أسِّس هو مسجد قباء والذين بنوه هم بنو عمرو بن عوف ، ثم أراد المنافقون أن يُنفِّسوا عن

أنفسهم في صورة طاعة ، فبنوا مسجداً ضراراً ، وقد بناه بنو غُنْم بن عوف وأرادوا بهذا المسجد أن ينافسوا مسجد قباء .

ونعلم كيف يكون الضرار بين المتنافسين على شيء ، كما يحدث الآن تماماً ، وتسمع من يقول : ولماذا أقام الحي الفلاني مسجداً ، ولم نقُم نحن مسجداً؟

وعلى ذلك فكل مسجد فيه هذه الصفة؛ صفة التنافس للحصول على سمعة أو تحيز لجهة على جهة ، أو رياء ، فهذا يعتبر مسجداً ضراراً؛ لأن كل هذه المسائل فرقت جماعة المسلمين .

وقد يقول قائل : ولكن هذا الأمر ظاهرة صحية ، ونقول : لا ، إن لنا أن نعرف أنها ظاهرة مرضية في الإيمان؛ لأنك ترى المسجد وليس فيه صفان مكتملان ، ثم يوجد بعده بعدة أمتار مسجد ، وهناك مسجد ثالث بعد عدة أمتار ، ثم مسجد رابع ، فهذه كلها مساجد ضرار .

إذن : ف « المسجد » بمعناه الخاص هو المكان الذي يحيز حتى يصير مسجداً ، لا يزاول فيه شيء غير المسجدية ، ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى واحداً ينشد ضالته في المسجد ، قال له : « لا رد عليك ضالتك » لأن المسجد حين تدخله فأنت تعلن نية الاعتكاف لتكون في حضرة ربك ، وعندك من الوقت خارج المسجد ما يكفيك لتتكلم في مسائل الدنيا .

إذن : فهؤلاء القوم أرادوا أن يُنفِّسوا عن نفاقهم بمظهر من مظاهر الطاعة ، فقالوا : نقيم مسجداً ، وبذلك نفرق جماعة الملسمين ، فجماعة يصلون هنا ، وجماعة يصلون هناك ، وإن قعدنا نحن نصلي فيه فنكون أحراراً ، ونتكلم مثلما نريد ، أما حين نذهب للصلاة في المسجد الآخر ، فنحن نجلس هناك مكبوتين ، وغير قادرين على الكلام ، ونحن نريد أن ننفس عن أنفسنا .

فهم بَنَوْا المسجد ، ثم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي معهم في المسجد الجديد أثناء خروجه لغزوة تبوك فاعتذر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوضح لهم : إننا في حال لا يسمح بذلك ، وإن شاء الله عند عودتنا من الغزوة نصلي فيه . وبعد أن عاد من الغزوة حاولوا أن يستوفوه وعده ، ويطلبوا منه الوفاء بوعده ، فإذا بجبريل ينزل عليه بالآيات التي توضح حكاية هذا المسجد ، وكيف أنه مسجد ضرار؛ لأن الله علم نيتهم في ذلك .

ومعنى « الضرار » من المضارة ، وأنهم أرادوا أن يأخذوا راحتهم في كل الزمن ، وأن يبتعدوا عن التواجد مع المؤمنين في المسجد الذي يصلي فيه رسول الله ، ويريدون أن يخلو بعضهم ببعض ، وأن يتكلموا كما يريدون في مضارة المسلمين ، ويفرقوا بين جماعة المسلمين . ثم يقول سبحانه : { وَتَفْرِيقاً بَيْنَ المؤمنين } .

إذن : فكل ما يفتت جماعة المسلمين هو أمر ضار بمصلحة الإسلام؛ لأن الإسلام يريد أن يعلم الناس أنهم قوة مجتمعة ، ويكون أمر هذه القوة واضحاً؛ ولهذا أباح الحق أن تصلي الصلوات في

أي مكان ، وحتَّم أن نصلي جميعاً يوم الجمعة في مكان واحد؛ ليفرح المسلمون حين يرون أنفسهم مقبلين على الدين ، ويلتقي كل واحد منهم بالآخر؛ ولذلك كان مسجد الضرار هذا تفريقاً بين المسلمين .

ثم يقول سبحانه :

{ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ الله وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ } والإرصاد هو الترقب ، ولذلك يقال : لقد استمر القوم في المكان الفلاني لرصد فلان ، أي : أنهم أناس يترقبون مجيئه بمكان ليفتكوا به ، وهذا هو ترقب الكراهية لا ترقب الحب . والذين أقاموا هذا المسجد أرصدوه مترقبين ومنتظرين إنساناً له سابقة في عداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي طلب منهم إقامة هذا المسجد وهو « أبو عامر الراهب » وقد سماه رسول الله « الفاسق » .

وأبو عامر هذا رجل تنصَّر في الجاهلية ، ولم تكن الجاهلية بيئة ديانات ، فمن كان مثلاً يسافر إلى مكان ويسمع بدين فهو يأتي به ليدعوا لهذا الدين ويترأس من يتبعونه ، وأبو عامر من هؤلاء الذين تنصَّروا وصاروا في المدينة ، فلما جاء رسول الله ليبطل كل هذه الأشياء في المدينة وزالت رياسته ، عادَى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قال له في أحد : ما رأيت قوماً يقاتلونك إلا قاتلك معهم . وحين تمكن الإسلام في المدينة فر إلى مكة ، ولما فتحت مكة فرّ إلى الطائف ، لم يجد له وطناً فذهب إلى الروم « بالشام » . ثم كتب للمافقين أن أعدوا مسجداً؛ لأني سأتي لكم بقوة من ملك الروم؛ لأهاجم محمداً وأحاربه وأخرجه من المدينة .

إذن : فهم قد بَنَوْا ذلك المسجد ضراراً ، وكفراً ، وتفريقاً ، وإرصاداً ، أي : ترقباً وانتظاراً لذلك الراهب الذي سيذهب إلى الشام ويأتي بجنود لمحاربة الله ورسوله . ورغم أنهم قد فعلوا ذلك ، فقد امتلكوا جراءة الطلب من رسول الله ان يصلي معهم فيه بهدف ترسيم هذا المكان مسجداً ليصلى فيه الناس ما دام رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صلى فيه ، وظنوا أن هذه المكيدة سوف تفلح ، ولكن الله الذي يحرس نبيه ، ويحرس دينه من المنافقين ، كشف له حقيقة هذا المسجد .

وقد يتغافل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين بعض الشيء لحكمة ، فهم قد أخذوا بالإسلام لوناً من الصحبة ، ولم يفضحهم أولا حتى لا يقال : إن محمداً يحارب أصحابه؛ لذلك فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم ما لم يكن يعلمه غيره؛ لذلك أراد أن يحمي الإسلام من لسان من لم يعلم . ولكن بعد أن انكشف الأمر أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم « مالك بن الدُّخْشم » و « عامر بن السكن » ، و « وحشيّ » قاتل حمزة ، و « معن بن عدي » ليهدموا هذا المسجد ، وأن يجعلوا في موضعه مكان « القمامة » .

وبذلك فُضِحَ المنافقون ، فَأسرّوها في نفوسهم .

وأنت إذا رأيت من عدوك فعلاً تكرهه ، فعليك أولاً أن تفسد عليه الفعل ، هذه أول مرحلة ، فإذا تكرر الفعل منه ، ولم يرتدع ، لا بد أن تضعه في مكانه اللائق به . والمنافقون أرادوا بهذا المسجد الضرر والإضرار بالإسلام ، وكان يجب أن يكفوا عن مثل هذا العمل ما دام الحق قد كشفهم . لكنهم لم يكفوا ، وظلوا سادرين في العداوة للإسلام؛ لذلك كان لا بد كما تخلصت أولاً من الفعل أن تتخلص من الفاعل؛ لذلك أصبحوا خائفين من أن يتجه الردع إلى الفاعل ، والحق سبحانه يقول : { يَحْذَرُ المنافقون أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ استهزءوا إِنَّ الله مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ } [التوبة : 64]

ونعلم أن المريب يكاد أن يقول : خذوني . إنه بسلوكه إنما يدل على نفسه ، ويأتي القرآن في سورة ثانية فيقول : { وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ . . . } [المنافقون : 4]

وهم يتصرفون هكذا لأن الريبة تملأ أعماقهم ، وكلما رأى واحد منهم مؤمناً يسير إلى ناحيته يظن أنه جاء ليؤدبه ضرباً أو قتلاً .

والحق سبحانه يقول هنا :

{ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ الله وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ } ، وكلمة { مِن قَبْلُ } فيها إيحاء بأن لهم سوابق في محاربة رسول الله بغرض ان يؤذوه صلى الله عليه وسلم ، ولكن الحق سبحانه يحميه دائماً ، ولم يعد هناك مكر أو حرب يمكن أن ينالوا بها منه صلى الله عليه وسلم .

وفي هذا الأمر أمثلة كثيرة ، فالقرآن حينما يقص على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحوال اليهود ويوضح له : { وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق . . . } [البقرة : 61]

أليس هذا القول يدفع في خاطره احتمال أن يقتلوه؟ بلى فهم ما دامت عندهم الجرأة على قتل الأنبياء فما الذي يمنعهم من قتله؟ لكن الحق يطمئنه ويكبتهم ويقطع عندهم الأمل ، ويأتي قوله الحق : { فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ الله مِن قَبْلُ . . . } [البقرة : 91]

وقوله : { مِن قَبْلُ } هنا يعني أن ذلك لن يحدث الآن ، فقد اختلف الموقف . وهكذا طمأن الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك كُبتت هذه الفكرة إن فكروا فيها .

وأيضاً حين يأتي القرآن بشيء في نيتهم أن يفعلوه ، ولم يفعلوا بعد ، ويفضحهم القرآن بإعلان ما في نيتهم ، ومن غبائهم فهم يفعلون الأمر المفضوح ، ولو كان عندهم قليل من ذكاء لامتنعوا عن فعل ما فضحهم به القرآن .

ويتمثل ذلك في أحد المواقف التي يحلفون فيها ، ولو كان فيهم رجل رشيد يملك التفكير المتوازن لقال لهم : إنكم سوف تحلفون : { إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحسنى } فلا تحلفوا حتى يشك المسلمون في

القرآن ، ومن غبائهم أيضا أنهم حلفوا في أمر لهم فيه اختيار أن يفعلوه أو لا يفعلوه ، مثلما قال الحق سبحانه :

{ سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا . . . } [البقرة : 142]

إنهم لم يكونوا قد قالوا بعد ، وأنزل الحق ذلك في قرآن يتلى كل صلاة ، ويعرفه كل مسلم ، فيكف يقولون نفس القول بعد أن نزل به القرآن؟ لقد فعل اليهود ذلك؛ وهم بهذا الفعل قد اختاروا أن يكونوا سفهاء ، ولم يخرج منهم عاقل واحد يحثهم على ألا يقولوا .

وهنا يقول الحق : { وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحسنى } والحق هنا قد أكد الأمر حين جاء بلام القطع . وهم قد أسهموا وقالوا : وما أردنا باتخاذ هذا المسجد إلا مصلحة المسلمين ولنيسر على المعذورين والمرضى ، والعاجزين عن السير إلى المسجد الآخر ، وإن كانت ليلة مطيرة أو ليلة شاتية ، فيستطيع الناس أن يجدوا مسجداً ثانياً ليصلوا فيه ، ولكن حكم الله ينزل { والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } .

ويقول الحق بعد ذلك : { لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى . . . }

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108)

فهل قوله الحق : { لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً } معناه ألأن يظل المسجد قائما ولا تقام فيه صلاة؟ هل { لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً } صيغتها النهي ، أي لا تُصَلِّ فيه ، أم أنها إخبار من الحق بأنك لن تقيم فيه صلاة أبداً؛ لأنه لن يكون له وجود؟

إن قوله الحق سبحانه يعني أن هذا المسجد يجب ألا يكون له وجود ، ثم تجد الله سبحانه يقول : { لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التقوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ } إذن : فالمسألة ليست في بناء المسجد ، ولكنها فيمن يدخل المسجد ويعمره ، فهنا مسجد ، وهناك مسجد ، أما المسجد الأول فقد أسس على التقوى ، وفيه أناس يحبون أن يتطهروا ، أما مسجد الضرار فقد أقامه منافقون يحبّون أن يتقذروا؛ لأنهم المقابل لمن يحبون أن يتطهروا .

ومعنى الحب هو ميل الطبع إلى شيء تنبسط له النفس وتخفُّ لعمله .

وحينما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الأنصار ، إن الله قد أثنى عليكم في الطهور ، فما طهوركم هذا؟ قالوا : يا رسول الله نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهل مع ذلك من غيره؟ »

وهنا قال أهل قباء : « لا ، غير أن أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء » ، وكان الواحد منهم يمسك الحجر ويمسح به محل قضاء الحاجة؛ فيخفف من استخدام المياه؛ لأن

المياه كانت قليلة عندهم ، ثم يستخدم الماء بعد الأحجار ليكمل ويتم نظافته ، وأضافوا : « ولا نبيت على جنابة ، ولا نُصرّ على ذنب ، فإن غلبنا الذنب تعجّلنا التوبة » .

{ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ والله يُحِبُّ المطهرين } والحب هنا متبادل ، فلا شيء أقسى على النفس من أن يكون الحب من طرف واحد ، وهذا هو الشقاء بعينه . والشاعر يقول :

أنتَ الحبِيبُ ولَكنِّي أعُوذُ بِكَ ... مِنْ أنْ أكُونَ حَبِيباً غَيْرَ مَحْبُوبِ

وشقاء المحبين أن يكون الحب من جانب واحد ، أما حين يكون الحب متبادلاً من الحانبين فهو قمة الإيعاد والإبعاد ، فحين تكون العداوة من جانبين فهي تأخذ قمة الإسعاد ، وكذلك حين تكون العداوة من جانبين فهي تأخذ قمة الإيعاد والإبعاد ، فحين تكون العداوة من جانب واحد ، تنتهي بسرعة ، لكن عندما تكون من الجانبين فإنها لا تنتهي بل تزداد اشتعالاً .

إذن : فحين يكون الحب متبادلاً تجد المحب كلما رأى حبّاً من حبيبه رد عليه بحب ، فينمو الحب ويزداد ، ولا يكون الأمر كذلك إلا إذا كان حب القلوب فيما لا يتغير وهو « الحب في الله » ، فإذا رأيت حبّاً بين اثنين يتناقص بمرور الزمن؛ فاعلم أنه حب لغير الله ، وإن رأيت الحب ينمو كل يوم ، فاعلم أنه حب في الله .

والحق سبحانه يقول في قصة فرعون وموسى : { فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً . . . } [القصص : 8]

هم لم يلتقطوه ليكون عدواً لهم؛ فهذا الاحتمال لو كان قد جاء في بال آل فرعون لقتلوه ، ولكنهم التقطوه ليكون قرة عين لهم ، فانظر كيف يدخل الله على تغفيل الكافرين به ، فآل فرعون هم من يربون موسى؛ ولذلك قال له فرعون : { أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ } [الشعراء : 18]

ولكن موسعليه السلام لا يجامل في الحق؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو من ربّاه ، أما تربية فرعون فلم يكن لها اعتبار في ميزان الحق ، وقد تكون العداوة هينة لو كانت من جانب موسى وحده ، ولكن شاء سبحانه ألا تكون العداوة من جانب موسى فقط ، بل من جانب فرعون أيضاً ، فيقول سبحانه : { يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ . . . } [طه : 39]

ويقول سبحانه في مجال الحب المتبادل : { فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ . . . } [المائدة : 54]

فحين يحبون الله يرد سبحانه على تحية الحب بحب زائد ، وهم يردون على تحية الحب منه سبحانه بحب زائد ، وهكذا تتوالى زيادات وزيادات؛ حتى نصل إلى قمة الحب ، ولكن الحب عند الله لا نهاية له ، وأنت حين تقرأ قوله سبحانه وتعالى : { قُلِ الحمد لِلَّهِ وَسَلاَمٌ على عِبَادِهِ الذين اصطفى . . . } [النمل : 59]

ويقول سبحانه أيضاً : { تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ . . . } [الأحزاب : 44]
لم يأت سبحانه هنا ب « ال » التعريفية؛ لأنها لو جاءت لانحصرت السلام في لون واحد . فأنت حين تقول : لَقيت الرجل ، فأنت تحدد الرجل . لكنك إنْ قلت : لقيت رجلاً . فقد يكون الرجل هذا أو ذاك أو غيرهما . فإن جاء الاسم نكرة صار شائعاً ، أما إن كان بالتعريف فيكون محدداً .
والحق حين تكلم عن يحيى عليه السلام قال : { وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً } [مريم : 15]
لأنه يريد أن يكثر السلام . وحين تكلم عيسى عليه السلام عن نفسه قال : { والسلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً } [مريم : 33]
وحين يلقاك إنسان فهو يقول لك : « سلام عليكم » ، وأنت ترد : « وعليكم السلام » ، لماذا؟ لأن « سلام عليكم » معناها أن السلام منى يكون عليك وعلى غيرك ، أما ردُّك « وعليكم السلام » فيعني أنك خَصَصْته بهذا السلام .
وهنا الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها زادت في التحية حيث يقول الحق سبحانه : { فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ والله يُحِبُّ المطهرين } وهذا لأن الذي يحب أن يكون طاهراً دائماً ، قد أنس بفيوضات الله عليه ، وما دامت ذراته كلها طاهرة من النجاسات المعنوية ومن النجاسات الحسية يصبح جهاز استقبال الفيوضات من الله عنده صالحاً دائماً للاستقبال ، والحق سبحانه وتعالى يرسل إمداداته في كل لحظة ، ولا تنتهي إمداداته على الخلق أبداً ، وسبحانه يصف نفسه بأنه القيوم فاطمئنوا أنتم ، فإن كنتم تريدون أن تناموا فناموا؛ فربكم لا تأخذه سنة ولا نوم .

إذن : فقد جاء الإيمان ليريحنا إلا ليتعبنا ، كما أنه سبحانه يصف نفسه : { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ . . . } [المائدة : 64]
أي : يطمئن الخلق أنهم بمجرد إيمانهم ستأتيهم إمدادات الله وفيوضاته المعنوية والمادية . فصحِّح جهاز استقبالك؛ بألا توجد فيه نجاسة حسيّة أو نجاسة معنوية؛ ولذلك إذا رأيت إنساناً عنده فيوضات من الحق فاعلم أن ذرات جسمه مبنية من حلال ، ولا توجد به قذارة معنوية ، ولا قذارة حسّية ، ويتضح ذلك كله على ملامح وجهه ، وكلماته ، وحسن استقباله . وإن كان أسمر اللون فتجده يأسرك ويخطف قلبك بنورانيته . وقد تجد إنساناً أبيض اللون لكن ليس في وجهه نور؛ لأن فيوضات ربنا غير متجلية عليه .
وكيف تأتي الفيوضات؟ إنها تأتي بتنقية النفس؛ لأن الإنسان إن افتقر إلى الفيوضات الربانية ، فعليه أن يبحث في جهازه الاستقبالي . وأضرب هنا مثلاً بالإرسال الإذاعي ، فمحطات الإذاعة

ترسل ، ومن يملك جهاو استقبال سليم فهو يلتقط البث الإذاعي ، أما إن كان جهاز الاستقبال فاسداً فهذا لا يعني أن محطات الإذاعة لا تبث برامجها .

ولذلك قال الحق : { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ . . . } [المائدة : 64]

فاحرص دائماً على أن تتناول من يد ربك المدد الذي لا ينتهي ، والحديث الشريف يقول : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »

والليل قد ينتهي عند إنسان ، ويبدأ عند إنسان آخر ، وهكذا النهار ، فالليل مستمر دائماً والنهار مستمر دائماً ، فيداه سبحانه مبسوطتان دائما ولا تنقبضان أبداً .

ثم يقول سبحانه : { أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على تقوى . . . }

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109)

وقوله : { أَفَمَنْ } استفهام ، وكأنه يقول : وكيف تساوون بين مسجد أسِّسَ على التقوى من أول يوم ، ومسجد اتُّخِذ للضرار وللكفر ولتفريق جماعة المسلمين وإرصاداً لمن حارب الله؟ إنهما لا يستويان أبداً ، وساعة يطرح الحق هذه العملية بالاستفهام فسبحانه واثق من أن عبده سيجيب بما يريد الله .

وقوله الحق : { أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ } نجد كلمة « بنيان » وهي مصدر؛ « بنى » « بنياناً » ، لكن أطلق على الشيء المبني ، فنقول ، إن هذا البنيان فرعوني .

إّذن : هناك فرق بين عملية البناء وبين الشيء الذي ينشأ من هذه العملية ، وكلمة البنيان اسم جنس جمعي؛ لأنه يصح أن يكون جمعاً ومفرده « بنيانة » مثلما نقول : « رمان » ، ومفرده « رمانة » ، و « عنب » ومفرده عنبة « ، وأيضاً » روم « مفرده » رومي « فياء النسب هنا دخلت على الجمع فجعلته مفرداً . إذن : يُفرق بين الواحد والجمع ، إما بالياء وإما بالتاء .

وقد حكم سبحانه بألا يصلوا في مسجد الضرار ، وعليهم أن يصلوا في المسجد الآخر ، وهو مسجد قباء ، ثم يرد سبحانه الأمر إلى المؤمنين ، ليعرفوا أن ما حكم به سبحانه هو ما تقبله العقول ، وأن حكمهم يوافق حكم ربهم .

ثم يقول سبحانه :

{ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فانهار بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ } وهنا ثلاث كلمات : شفا ، وجُرف ، وهَار . والشفا مأخوذ من الشَّفَة ، و » الشفا « حرف الشيء وطرفه . وسكانُ سواحل البحار يعرفون أن البحار لها نحر من تحت الأرض ، وتجد الماء يحفر لنفسه مساحة تحت الأرض ويترك شفة من الأرض ، ولو سار عليها الإنسان لوقع؛ لأنها الطرف الذي ليس له قاعدة

وأسفله مَنْحور .

و » شفا جُرُف « أي طرف سينهار؛ لأنه » هار « أي غير متماسك ، فتكون الصورة أن الماء ينحر في الساحل ، فيصنع شفة لها سطح وليس لها قاعدة تحتها ، وهذه اسمها » شفا جُرُف « .

وقد قال القرآن في موضع آخر : { واذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النار فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا . . . } [آل عمران : 103]

إنها الحفرة في النار ، فكيف يكون شكلها؟ لابد أنه مرعب .

ونحن نعلم أنهم كانوا حين يحفرون الآبارليخأذوا منها الماء ، كانوا يضعون في جدار البئر أحجاراً تمنع ردمه؛ لأن البئر إن لم يكن له جدار من حجارة قد ينهار بفعل سقوط الرمال من على فوهته ، وهكذا تمنع الأحجار أي جزء متآكل من سطح البئر من الوقوع فيه ، والجزء المتآكل هو جرف هَارٍ ، وهكذا كان مسجد الضرار ، ينهار بمن فيه في نار جهنم .

ويذيل الحق الآية : { والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } وهم كانوا ظالمين بالنفاق؛ لذلك لم يَهْدِهم الله إلى عمل الخير؛ لأن الله لا يهدي الظالم . وسبحانه يقول في أكثر من موضع بالقرآن : { والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين } [المائدة : 108]

ويقول سبحانه : { والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين } [البقرة : 264]

ويقول عز وجل : { والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } [البقرة : 258]

والهداية – كما علمنا من قبل – قسمان : هداية الدلالة ، وهي لجميع الخلق ويدل بها الناس على طريق الخير ، ولهم أن يسلكوه أو لا يسلكوه ، فهم أحرار ، فلله هداية شملت الجميع ، وهي هداية الدلالة ، أما الهداية المنفية هنا فهي هداية المعونة .

ويقول الحق بعد ذلك : { لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذي . . . }

لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110)

البنيان الذي بنوا هو مسجد الضرار ، وأرادوا به ضرراً وكفراً وتفريقاً وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وعدهم أن يصلي فيه ، وكشف له الحق أنهم أرادوا بصلاة رسول الله فيه ذريعة وأن يرسموا الصلاة فيه .

ولما عاد صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أنزل الله عليه : { لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً } وأرسل صلى الله عليه وسلم بعضاً من صحابته ليهدموا هذا المسجد ، ولم يكتف بالهدم ، بل أمر أن يُجْعَل مكان المسجد قمامة إشعاراً منه صلى الله عليه وسلم بأن المسجد بنيته الأولى كانت نجاسته نجاسة معنوية ، وحين توضع فيه النجاسة الحسّية ، تكون طهارة بالنسبة للنجاسة المعنوية ، فكأنه

طهر المكان من النجاسة المعنوية بالنجاسة الحسيّة .

ورسول الله يعلمنا هنا أن الأمر ليس أمر نجاسات حسيّة ، وإنما النجاسات المعنوية أفظع من النجاسات الحسيّة ، فالإنسان قد يتحرز من النجاسات الحسيّة ، لكن النجاسات التي تخامر القلوب والعقائد والعواطف فهي التي تسبب للإنسان الشقاء .

وهنا يقول الحق : { لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ } فبعد أن هدم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا البنيان وصار موقعه موضع القذارة ، بقي أمر هذا البنيان موضع شك منهم وصاروا يتوجسون أن ينزل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم العقاب ، وظلوا في شك من ان يصيبهم رسول الله بسوء ، ولن يذهب هذا الشك من قلوبهم إلا أن تقطع تلك القلوب بالموت .

إن الشك والريبة محلها القلب ، والقلب هو العضو الثاني في استبقاء الحياة ، أما العضو الأول في استبقاء الحياة فهو المخ ، فما دامت خلايا المخ سليمة ، فمن الممكن أن تعود الحياة إلى الإنسان ولكن برتابة ، أما القلب فحين يتوقف فالأطباء يحاولون أن يعيدوا له الحركة ، إما بشق الصدر أو تدليك القلب ليعود إليه النبض ، وقد يفلحون ما دامت خلايا المخ سليمة ، فالمخ في الإنسان هو سيد الجسم كله ، ولذلك تجدون أن الحق قد صان المخ بأقوى الصيانات بعظام الجمجمة .

وكذلك النخاعات التي تتحكم في إدارة الجسد ، نجده سبحانه قد كفل لها من العظام أعلى درجات الصيانة . وترى في الحفريات أن الجماجم هي أبقى شيء ، مما يدل على أنه للحفاظ على المخ قد جعل الله له أقوى العظام ، وما دام المخ سيد الجسم سليماً فمن الممكن أن تستمر الحياة ، ولذلك نجد أن الجسم كله يخدم المدبر للجسم ، ويحافظ على صيانته .

والإنسان إن تعرض للجوع يأكل من شحمه ، وحين يفوته ميعاد تناوله للطعام ، يعرض عليه الطعام يقول : ليس لي رغبة في الأكل ، وهذا ليس إلاّ تعبيراً علمياً لما حدث في الجسم ، فأنت أكلت بالفعل ، فما دام قد مر ميعاد طعامك ولم تأكل فإن جسمك يأخذ ما يحتاجه من الدهون المخزونة به ، وإذا ما انتهى الدهن يأخذ الإنسان من لحمه ، وإذا ما انتهى اللحم يأخذ الإنسان غذاءه من عظامه ، وكل ذلك من أجل أن يبقى السيد وهو « المخ » مصاناً .

ولذلك تجد القرآن حيثما عرض مسألة سيدنا زكريا ، قال على لسانه : { رَبِّ إِنِّيَ وَهَنَ العظم مِنِّي . . . } [مريم : 4]

أي : أن آخر مخزن للقوت قد قارب على الانتهاء ، أما النبات فهو عكس الإنسان ، فسيد النبات أسفل شيء فيه وهو الجذر ، ويحاول النبات المحافظة على جذره ، فإن امتنع الغذاء عن النبات بامتناع المياه عنه ، بدأت أوراق النبات في الذبول؛ لأنها تعطي حيويتها ومائيتها للجذر ،

ثم تجد الساق تجف لأنها تعطي حياة للجذر ليستمر إلى أن يأتي قليل من المياه أو قليل من الغذاء ، فيعود الجذر قوياً .

والقلب هو محل العقائد والاعتقادات ، وهي الأشياء التي تنشأ من المحسّات ، وتتكون في الفؤاد لتصير عقائد لا تطفو للمناقشة من جديد ، أما العقل فهو يناقش كل المسائل ، وما إن ينتهي من الاقتناع بفكرة حتى تستقر في القلب .

وهنا يوضح لنا الله أن هذا البنيان سيظل أثره في قلوبهم ، ولن ينتهي منهم أبداً إلا بشيء واحد هو : { أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ } والقلوب لا تتقطع إلا بالموت ، وكأن الشك من هذا البنيان سيظل يلاحقهم إلى أن يموتوا .

أو : { إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ } أي : أن تتقطع توبة وأسفاً وحزناً .

وهذا تهديد لهم بأنهم مسيئاتهم ليست من الخارج ، وإنما مسيئاتهم من ذوات نفوسهم . ووجود الريبة في نفوسهم ، يعني أنها لن تجعلهم يستشرون في الإفساد لخوفهم المستمر من العقاب .

ثم يقول سبحانه : { والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ } وعلمه سبحانه شامل فلا تخفى عليه خافية ، وحكمته سبحانه أنه يضع كل شيء في مكانه .

ثم يقول سبحانه : { إِنَّ الله اشترى . . . }

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111)

بعد أن تكلم الحق عن الذين تخلفوا عن الغزو ، وعن الذين اعتذروا بأعذار كاذبة ، وعن الذين أرجأ الله فيهم الحكم ، أراد أن يبين سبحانه أن تخلفهم ليس له أي أهمية؛ لأن الله سبحانه وتعالى عوَّض الإيمان وعوّض الإسلام بخير منهم ، فإياكم أن تظنوا أنهم بامتناعهم عن الغزو سوف يُتعبون الإسلام ، لا؛ لأن الحق سبحانه ينصر دينه دائماً .

فيقول الله سبحانه :

{ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ }

يقول العلماء : كيف يشتري الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، وهو الذي خلق الأنفس وهو الذي وهب المال؟ وقالوا : ولكن هبة الله لهم لا يرجع فيها ، بدليل أن المال مال الله ، وحين أعطاه لإنسان نتيجة عمله أوضح له : إنه مالك بحيث إذا احتاجه أخ لك في الدين ، فأنا أقترضه منك ، ولم يقل : « أسترده » . فسبحانه القائل : { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً والله يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [البقرة : 245]

لقد احترم الحق الهبة للإنسان ، واحترم عرقه وسعيه ، وكأنه سبحانه حينما وهب البشر الحياة ،

ووهبهم الأنفس أعلن أنها ملكهم حقّاً ، ولكنه أعطاها لهم ، وحين يريد أخذها منكم فلا يقول : إنه يستردها بل هو يشتريها منكم بثمن؛ ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام : « إن سلعة الله غالية ، إن سلعة الله غالية ، إن سلعة الله هي الجنة . »

أي : اجعلوا ثمنها غالياً .

{ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ } . وكلمة { اشترى } تدل على أن هناك صفقة ، عملية شراء وبيع . وإن كان هذا ملكاً لله ، فالله هو المشتري ، والله هو البائع ، فلابد أن لهذا الأمر رمزية ، وهذه الرمزية يلحظها الإنسان في الولي على اليتيم أو السفيه ، فقد يصح أن يكون عندي شيء وأنا ولي على يتيم ، فأشتري هذا الشيء بصفتي ، ثم أبيعه بصفتي الأخرى ، فالشخص الواحد يكون هو الشاري وهو البائع ، فكأن الله يضرب لنا بهذا المثل : « إنكم بدون منهج الله سفهاء ، فدعوا الله يبيع ودعوا الله يشتري » .

وما الثمن؟ يأتي التحديد من الحق : { بِأَنَّ لَهُمُ الجنة } هذا هو الثمن الذي لا يفنى ، ولا يبلى ، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات الله التي لا نهاية لها ، أما نعيمك في حياتك فهو على قدر إمكانياتك أنت في أسباب الله ، وهكذا يكون الثمن غالياً .

« وحينما جاء الأنصار في بيعة العقبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال له عبدالله بن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت .

قال : أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم »

قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك؟

ماذا قال رسول الله؟ أقال لهم ستفتحون قصور بُصْرى والشام وتصيرون ملوكاً ، وينفتح لكم المشرق والمغرب؟

لم يقل صلى الله عليه وسلم شيئاً من هذا ، بل قال : « الجنة »؛ لأن كل شيء في الدنيا تافه بالنسبة لهذا الثمن ، قالوا : « ربح القليل لا نقيل ولا نستقيل » وبمجرد عقد الصفقة العهدية بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين الأنصار ، كان من الممكن أن يموت واحد أو اثنان أو ثلاثة قبل أن يبلغ الإسلام حظه وذروته ، وقد يقال : فلان مات ولم يأخذ شيئاً من ماديات الحياة .

لكنه صلى الله عليه وسلم حين قال : « الجنة » ، فمن مات يدخلها .

{ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة } هذا هو الثمن ، وهو وعد بشيء يأتي من بعد ، ولكنه وعد ممن يملك إنفاذه؛ لأن الذي يقدح في وعود الناس للناس ، أنك قد تعدُ بشيء ولكن تظل حياتك ولا تفي به ، أو أن تقل إمكاناتك عن التنفيذ .

إذن : الوعد الحق هو ممن يملك ويقدر ، وحيّ لا يموت ، لذلك يقول في هذه الآية :

{ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة }

ويقول في آخرها :

{ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً } و « وَعْد » مصدر ، فأين الفعل ، إننا نفهمها : أي وعدهم الله بالجنة وعداً منه سبحانه وهو الذي يملك وهو وعد حق . والقرآن حين يأتي بقضية كونية ، فالمؤمن يستقبلها بأنها سوف تحدث حتماً ، فإذا ما جاء زمنها وحدثت صارت حقّاً ثابتاً ، مثلما يقول سبحانه : { وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } [الصافات : 173]

هذه قضية قرآنية ، حدثت من قبل وثبتت في الكون .

وماذا بعد أشتري الله من المؤمنين أموالهم وأنفسهم؟ هنا يحدد الحق المهمة أمامهم : { يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ } و « قَاتَل » ، و « قَتَلَ » غير « قَاتَلَ » . فالقتل عمل من جهة واحدة ، لكن « قَاتَلَ » تقتضي مفاعلة ، مثلها مثل « شَارَكَ زيدٌ عَمْراً » . وكل مادة « فاعَلَ » توضح لنا الشركة في الأمر ، فكل واحد منهم فاعل ، وكل واحد منهم مفعول . ولذلك تجد في أساليب العرب ما يدلك على أن ملحظ الفاعلية في واحد هو الغالب ، وملحظ المفعولية في الآخر هو الغالب ، ولكن على التحقيق فإن كل واحد منهم فاعل من جهة ، ومفعول من الجهة الأخرى .

فمثلاً : الرجل الذي سار في الصحراء التي فيها حيّات وثعابين ، ولم يُهج الرجل أثناء سيره الحيّات ولا الثعابين ، بل تجنبها ، والثعبان ما دُمْت لا تهيجه فهو لا يفرز سمّاً؛ لأن سمّ الثعبان لا يفرز إلا دفاعاً .

وساعة يرى الثعبان أنك ستواجهه يستعمل سُمَّه ، فإذا كان الرجل سائراً وله قدرة المحافظة على عدم إهاجة الثعابين ولا الحيات ، فهو قد « سالمها » ، والشاعر يقول :

قد سَالَمَ الحيَّاتُ منه القَدَما ... والإفْعُوان والشُّجَاعَ الشَّجْعَما

والأفعوان هو الثعبان الفظيع ، ونلحظ أن « الأفعوان » منصوب ، وأن « الحياتُ » مرفوعة ، إذن : فالقدم مفعول ، والحيات فاعل وجاء بالقدم منصوبة ، وكذلك الشجعم لما في الحيات من المفعولية؛ لأن الحيّات إذا سالمت القدمَ فقد سالمها القدمُ ، فكأنه قال : سالم القدمُ الحيّاتِ ، ثم جعل الأفعوان بدلاً منها .

وهنا يقول الحق :

{ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة يُقَاتِلُونَ } فمن يقاتل : إما أن يَقْتل وإما أن يُقْتَل ، وفي قراءة الحسن يقدم الثانية على الأولى ، ويقول : « فيُقْتَلُون ويَقْتُلوُنَ »؛ فالمسألة صفقة بمقتضى قوله : { بِأَنَّ لَهُمُ الجنة } لذلك يُقدم قتلهم ، وهو الأقرب لمعنى الصفقة . وأيضاً فإن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد

بعضه بعضاً؛ وإذا ما جاء المؤمنون في جانب؛ والكفار في جانب آخر فالمؤمنون بنيان ، والحق هو القائل : { إِنَّ الله يُحِبُّ الذين يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ } [الصف : 4]
فإذا ما سبق قوم من المؤمنين بأن يُقْتَلوا ، فكأن الكل قُتل . إذن : فحين قتل بعض المؤمنين ، يمكننا أن نقرأ قول الحق على قراءة الحسن ونقول : « فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » .
أو : أنهم حينما دخلوا إلى القتال وضعوا في أنفسهم أن يقتلوا ، ولم يغلبوا جانب السلامة .
وكلنا نعرف قصة الصحابي الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس بيني وبين الجنة إلا أن ألقى هؤلاء فيقتلوني؟ قال له : « نعم » فأخرج الصحابي تمرة كانت في فمه ، ودخل إلى القتال وكأنه يستعجل الجنة .
{ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التوراة والإنجيل والقرآن } ، وهذا تأكيد بأن لهم الجنة ، وهو وعد من الحق في التوراة والإنجيل والقرآن لمن يدخلون المعارك دفاعاً عن الإيمان .
وكل دين في وقته له مؤمنون به ، ويدخلون المعارك دفاعاً عنه . إذن : فالقتال في سبيل نصرة الدين والدفاع عنه ليس مسألة مقصورة على المسلمين ، لكنها لم تكن عامة عند الرسل ، فقد كان الحق سبحانه وتعالى هو الذي يتدخل لعقاب أهل الكفر ، وكان الرجل يبلّغ ، فإذا لم يستجِبْ له قومه؛ عاقبهم الله سبحانه ، والقرآن يقول : { فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا . . . } [العنكبوت : 40]
ولم تَأْتِ مسألة القتال في سبيل الله إلا عندما طلب اليهود من بعد سيدنا موسى عليه السلام أن يقاتلوا في سبيل الله : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الملإ مِن بني إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ موسى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابعث لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله . . . } [البقرة : 246]
إذن : فهذا وعد من الله في التوراة للذين آمنوا بموسى عليه السلام ، وطالبوا بالقتال في سبيل الله ، وكذلك في الإنجيل للذين آمنوا بعيسى عليه السلام ، وأخيراً في القرآن للذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .
أو : أن هذا الوعد خاص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنها الأمة المأمونة للدفاع عن كلمة الله بالمجهود البشري .

وبهذا يكون الوعد في التوراة والإنجيل والقرآن هو وعد لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكأن التوراة قد بُشّر فيها بهذا للمسلمين المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وكذلك الإنجيل قد بُشّر فيه بهذا الوعد للأمة المسلمة . والدليل على ذلك هو قول الحق سبحانه في آخر سورة الفتح : { مُحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . . } [الفتح : 29]
إذن : فالدين لا يطبع المتدين لا على الشدة ولا على الرحمة ، إنما يطبعه انطباعاً يصلح لموقف الشدة فيكون شديداً ، ولموقف الرحمة فيكون رحيماً . ولو أنه مطبوع على الشدة لكان شديداً

طوال الوقت ، ولو طُبع على الرحمة فقط لكان رحيماً كل الوقت ، ولكن شاء الحق أن يطبع المؤمنين ليكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم؛ ولذلك فالدين لا يطبع الناس على ذلة ولا على عزة ، إنما يجعلهم أذلة على المؤمنين ، وأعزة على الكفار .

وبذلك يُطوِّع المؤمن نفسه ، هو شديد ورحيم ، عزيز وذليل ، فهو طوع للمنهج ، فحين يتطلب منه منهج الله أن يكون شديداً يشتد ، وحين يتطلب منهج الله منه أن يكون رحيماً يرحم ، وحين يتطلب الله من أن يكون ذليلاً بالنسبة لإخوانه المؤمنين يذل ، وحين يتطلب الله منه أن يكون عزيزاً على الكافرين يعز . { مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . . } [الفتح : 29]

وتتابع صفات المؤمنين في قوله سبحانه : { تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً . . . } [الفتح : 29]

وهم في ركوعهم وسجودهم إنما يعبرون عن قيم الولاء لله .

ثم يصفهم سبحانه : { يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ الله وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود . . . } [الفتح : 29]

وهم لا يريدون إلا رضاء الله وفضله ، والنور يشع من وجوههم؛ لأنهم أهل للقيم ، ويضيف سبحانه : { ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة . . . } [الفتح : 29]

أي : أن التوراة جاءت فيها البشارة بأن محمداً سيجيء بأمة فيها الخصال الإيمانية والقيمية التي لا توجد في اليهود ، هؤلاء الذين تغلب عليهم المادية ولا ترتقي أرواحهم بالقيم الدينية ، فأنت إن نظرت إلى التوراة المحرفة فلن تجد فيها أي شيء عن اليوم الآخر ، بل كلها أمور مادية .

أما في الإنجيل فقد جاءت المسيحية بالرهبنة ، والماديات فيها ضعيفة؛ ولذلك جاء القرآن منهجاً متكاملاً تنتظم به الحياة ، قيماً حارسة ، ومادة محروسة؛ فالعالم يفسد حين تأتي المادة فتطغى وتنحسر القيم ، أو حين توجد قيم ليس لها قوة مادية تدافع عنها ، فيأبى القوي الظالم إلا أن يطغى بقوته المادية على القيم الروحية فيكون الخلل في البناء الاجتماعي .

إذن : فنحن في حاجة دائمة إلى قيم تحرسها مادة ، ومادة تحرسها قيم . وأخبر الله قوم موسى : أنتم لا تملكون القيم المعنوية ، وتعتزون بالقيم المادية ، لذلك ستأتي أمة محمد وهي تملك قيم الروح والمادة ، فهم رُكَّع ، سُجَّد ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وسيماهم في وجوههم من أثر السجود .

وأبلغ سبحانه قوم عيسى عليه السلام أنه سيأتي في أمة محمد بمنهج يعطيهم ما فقدتموه من المادة؛ بسبب أنكم انعزلتم عن الحياة وابتدعتم رهبنة ما كتبها الله عليكم ، بينما نحن نريد حركة في الحياة . { ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فاستغلظ فاستوى على سُوقِهِ يُعْجِبُ الزراع لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار . . . } [الفتح : 29]

ومن حق المسلمين أن يقولوا : أيها الكافرون ليست لكم مادة تطغون بها علينا؛ لأن الإسلام يريد من حركة حياتنا على ضوء منهجه في الأرض أن تتوازن المادة مع القيم؛ لأن القيم هي التي تحرس الحضارة ، والمادة إنما تحرس القيم ، وحين يمتلك المسلمون القوة المادية فسيرتدع أي إنسان عن أن يطمع في فتنة المسلمين في دينهم؛ ولذلك قال الحق سبحانه : { وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ . . . } [الأنفال : 60]

فالكفار إذا رأوك قد أعددْتَ لهم يتهيبون .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، يقول الحق :

{ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التوراة والإنجيل والقرآن }

وما دام الحق قد أعطى الوعد ، فلن يوجد من هو أوفى منه؛ لذلك يقول : { وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله } وبذلك يطمئننا سبحانه على أن وعده محقق؛ لأن العهد ارتباط بين مُعَاهَد ومُعَاهِد ، والذي يخرج عن هذا الارتباط أمران :

الأول : ألا يكون صادقاً حين أعطى عهداً ، بل كان في نيته ألا يوفي ، ولكنه أقام العهد خديعة حتى يستنيم له المعَاهَد .

والأمر الثاني : أن يكون قد أعطى وعداً بما لا يستطيع تنفيذه ، فهو كاذب .

والله لا يليق به لا الكذب ولا الخديعة؛ فسبحانه مُنزَّه عن كل ذلك ، ولا أحد أوْفَى بالعهد من الله .

فقد يُطعن في العهد والوفاء به عدم القدرة ، لكن قدرة الحق مستوفية .

إذن : فالعهد الحقيقي إنما يؤخذ من الله ، وقد جاء الحق بهذه القضية بشكل استفهامي { وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله } ؟ فالإجابة : لا أحد؛ لأن الذي يقدح في مسألة العهد الخُلف والكذب وغير ذلك .

والله سبحانه مُنزَّه عن الكذب والخديعة؛ لأن الخديعة لا تأتي إلا من ماكر ، وإذا سمع أي إنسان { وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله } ثم أدار فكره في الكون ليبحث عن جواب ، فلا يجد إلا أن يقول : « الله » ، ولا أحد أوفى من الله بالعهد . وما دام الوعد بالجنة ، فالجنة لا يملكها إلا هو سبحانه ووعده حق ، وكلها تأكيدات بأن المسألة واقعة وحادثة .

ولهذا يقول سبحانه : { فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم } [التوبة : 111]

فالنتيجة لهذه المسألة كلها من شراء الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، ثم وعده الحق المبيّن في التوراة والإنجيل والقرآن ، وكلها شهادات مسجلة هي الاستبشار بما باعه المؤمن لله . فالإنسان – ولله المثل الأعلى – لا يسجل إلا ما يكون في صالح قضيته ، ولا يسجل

للخصم ، فعندما يكون عندك صَكٌّ على فلان ، فأنت الذي تحتفظ به وتحرص عليه؛ لأنه يؤيد حقك .

والحق سبحانه يقول : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9]
والقرآن هو الحجة الكاملة الشاملة في كل أمور الدنيا والآخرة ، ومن فَرْط صدق القرآن أن البشر قد يصلون إلى قضية كونية ما ، ومن بعد ذلك تُخَالَف ، وحين تعود إلى القرآن تجد أن كلام القرآن هو الذي صدق ، وقد حفظ الحق سبحانه القرآن لأن قضايا الكون الذي خلقه الله لا يمكن أن تخرج عن قضايا القرآن؛ لأن منزل القرآن وخالق الكون واحد ، فلا شيء يصادمه .
{ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ }
قوله الحق : { فاستبشروا } مأخوذ من « البشرة » ، وهي الجلد عامة ، وإن كان الظاهر منه هو الوجه .
وحين يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ } فقد يفهم أحد أن النفس سوف تضيع ، وأن الأموال سوف تنفق ، وهذا قد يُقبِضُ النفس فهذا فيه الموت ، وخسارة للمال ، وكان من الطبيعي أن يشحب وجه الإنسان ويفزع ويخاف . ولكن ساعة يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الله اشترى } يجد بشرة المؤمن تطفح بالسرور . والبشر ، ويحدث له تهلل وإشراق ، مع أنه هنا سيأخذ نفسه ، ولكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة .
إذن : قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أن تصيبنا بالخوف ، بل علينا أن نستقبلها بالاستبشار ، ولذلك يقول الحق : { فاستبشروا } أي : فليظهر أثر ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً .
{ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ } وهل يستبشر الإنسان بالبيع؟ نعم؛ لأن الإنسان لا يبيع إلا ما يستغني عنه عادة ، ويشتري ما يحتاج إليه ، فهنا الاستبشار بالبيع وليس بالشراء ، فالمؤمن هنا يبيع فانياً بباق .
{ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم } وأنت إذا ما نظرت إلى الذين يخالفون العهد الذي أخذ عليهم ، تجد الواحد منهم يحتاج للمخالفة لأن وفاءه يتبعه . لكن الحق سبحانه ليس في حاجة لأحد وهو غني عن الجميع ، ولا يوجد أدنى مبرر لخُلْف الوعد أبداً .
وتأتي { وَذَلِكَ } إشارة إلى الصفقة التي انعقدت بينكم وبين ربكم .
{ وَذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم } والفوز هو بلوغ الغاية المأمولة في عرف العقل الواعي ، كما تقول لابنك : « ذاكر لتفوز بالنجاح » وتقول للتاجر : « اجتهد في عملك بإخلاص لتفوز بالربح » .
إذن : فهناك « فوز » ، وهناك « فوز عظيم » والفوز في الدنيا أن يتمتع الإنسان بالصحة

والمال وراحة البال . وهناك فوز أعظم من هذا؛ أن تضمن أن النعمة التي تفوز بها لا تفارقك ولا أنت تفارقها ، فيكون هذا هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه؟

ويقول الحق بعد ذلك : { التائبون العابدون . . . }

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112)

وبعد أن عرض الحق هذه الصفقة ، فمن هم المقبلون عليها؟ إنهم التائبون ، والتوبة : هي الرجوع عن أي باطل إلى حق .

وعمَّ يتوب هؤلاء التائبون؟

نحن نعلم أن هناك إيماناً اسمه إيمان الفطرة . نجد ذلك في قول الحق سبحانه وتعالى : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ * أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون } [الأعراف : 172-173]

إذن : فالإيمان أمر فطري ، والكفر هو الذي طرأ عليه ، وقلنا من قبل : إن الكفر هو الدليل الأول على الإيمان؛ لأن الكفر هو الستر ، فمن يكفر بالله – والعياذ بالله – إنما يستر وجوده ، فكأن وجوده هو الأصل ، ثم يطرأ الكفر فيسرته ، ثم يأتي من ينبه في الإنسان مشاعر اليقين والإيمان فيرجع الإنسان إلى الإيمان بالله بعد أن يزيل الغشاوة التي طرأت على الفطرة .

و { التائبون } : منهم التائبون عن الكفر الطارئ على إيمان الفطرة ، وأخذوا منهج الله الذي آمنوا به ، ومن هنا نشأت العبادة التي تقتضي وجود عابد ومعبود ، والعبادة تعني الانصياع من العابد لأوامر ونواهي المعبود .

{ التائبون العابدون الحامدون } والعبادة كلها طاعة تتمثل في تطبيق ما جاء به المنهج من « افعل » و « لا تفعل » ، وقد يتدخل المنهج في حريتك قليلاً ، وأنت بقوة الإيمان تعتبر أن هذا التدخل في هذه الحرية نعمة يجب أن تحمد الله عليها؛ لأنه لو تركك على هواك ، كما يترك ولي الأمر التلميذ ابنه على هواه فهو يفشل ، ولكن الأب الذي يحث ابنه على المذاكرة وينهاه عن اللعب والعبث ، فلا بد أن ينجح .

إذن : الأوامر والنواهي هنا نعمة ، كان يجب أن نحمد ربنا عليها ، وكل ما يجريه الله على العبد المؤمن يجب أن يأخذه العبد على أساس أنه نعمة .

إذن : فالذين تابوا عن الكفر الطارئ على إيمان الفطرة هم تائبون يأخذون منهج الإيمان من المعبود ، ويصبحون بذلك عابدين لله ، أي : منفذين الأوامر ، ومبتعدين عن النواهي ، وهم يعلمون أن الأوامر تقيد حركة النفس وكذلك النواهي ، ولكنهم يصدقون قوله صلى الله عليه

وسلم : « حُفَّتِ الجنةُ بالمكاره ، وحُفَّت النارُ بالشَّهوات »
حين تعرف أن العبادة أوصلتك إلى أمر ثقيل على نفسك ، فاعرف أن هذا لمصلحتك وعليك أن تحمد الله عليه؛ وبذلك يدخل المؤمن في زمرة الحَامِدينَ .
وأنت حين تؤمن بالله ، يصبح في بالك ، فلا يشغلك كونه عنه سبحانه ، وإياك أن تشغل بالنعمة عن المنعم ، واجعل الله دائماً في بالك ، والحق سبحانه يقول : { كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى }

[العلق : 6-7]
لذلك يفكر المؤمن في الله دائماً ويشكر المنعم على النعمة وآثارها من راحة في بيت وأولاد وعمل .

و { الحامدون } أيضاً لا بد أن يستقبلوا كل قدر لله عليهم بالرضا؛ لأن الذي يُجري عليهم القدر – ما دام لم يأمرهم بما لم يقع في اختيارهم – فهو حكيم ولا يُجري سبحانه عليهم إلا ما كان في صالحهم . وبعد أن ترضى النفس بما أجرى عليها تعرف الحكمة؛ ولذلك يقول سبحانه : { واتقوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله . . . } [البقرة : 282]
ويتابع الحق صفات المقبلين على الصفقة الإيمانية فيقول : { السائحون } ومعنى « سائح » هو من ترك المكان الذي له موطن ، فيه بيته وأهله وأولاد وأنس بالناس ، ثم يسيح إلى مكان ليس فيه شيء ما ، قد يتعرض فيه للمخاطر ، والمؤمن إنما يفعل ذلك؛ لأنه لا شيء يشغله في الكون عن المكوّن ، ويقول الحق سبحانه : { قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ثُمَّ انظروا . . . } [الأنعام : 11]
إذن : فالسياحة هي السير المستوعب ، والسير في الأرض منه سير اعتبار لينظر في مكلوت السموات والأرض ، وليستنبط من آيات الله ما يدل على تأكيد إيمانه بربه ، ومنه سير استثمار بأن يضرب في الأرض ليبتغي من فضل الله .
إذن : فالسياحة إما سياحة اعتبار ، وإما سياحة استثمار ، أما سياحة الاستثمار فهي خاصة بالذين يضربون في الأرض ، وهم الرجال .
أما سياحة الاعتبار؛ فهي أمر مشترك بين الرجل والمرأة ، بدليل أن الله قال ذلك في وصف النساء : { عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ . . . } [التحريم : 5]
إذن : { سَائِحَاتٍ } هنا مقصود بها سياحة الاعتبار ، أو السياحة التي تكون في صحبة الزوج الذي يضرب في الأرض .
وقيل أيضاً : إن السياحة أطلقت على « الصيام »؛ لأن السياحة تخرجك عما ألْفتَ من إقامة في وطن ومال وأهل ، والصيام يخرجك عما ألْفتَ من طعام وشراب وشهوة .

إذن : القَدْرُ المشترك بين الرجال والنساء هو في سياحة الاعتبار وسياحة الصوم .

ثم يقول الحق سبحانه :

{ الراكعون الساجدون } أي : المقيمون للصلاة ، وقد جاء بمظهرين فقط من مظاهر الصلاة ، مع أن الصيام قيام وقعود وركوع وسجود؛ لأن الركوع والسجود هما الأمران المختصان بالصلاة ، وأما القيام فقد يكون في غير الصلاة ، وكذلك القعود . إذن : فالخاصيَّتان هما ركوع وسجود؛ والحق يقول : { يامريم اقنتي لِرَبِّكِ واسجدي واركعي مَعَ الراكعين } [آل عمران : 43] أي : صلّي مع المصلِّين ، وهكذا نجد أن الركوع والسجود هما الأمران اللذان يختصان بالحركة في الصلاة .

ثم يقول سبحانه : { الآمرون بالمعروف والناهون عَنِ المنكر } والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو حيثية تخص الأمة المحمدية لتكون خير أمة أخرجت للناس ، فالحق سبحانه يقول : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر . . . } [آل عمران : 110] فإذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، فلا بد أن تكون بمنأى عن هذا المنكر فليس معقولاً أن تنهى عن شيء أنت مزاول له .

إذن : فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، صلاح أو هدى مُتَعدٍّ من النفس إلى الغير ، بعد أن تكون النفس قد استوفَتْ حظها منه .

ويقتضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تعرف المعروف الذي تأمر به ، وأن تعرف المنكر الذي تنهى عنه؛ لذلك لا بد أن تكون من أهل الاختصاص في معرفة أحكام الله ، ومعرفة حدود الله حِلاّ وحُرْمة ، أما أن يأتي أي إنسان ليُدخل نفسه في الأمر ويقول : أنا آمر بمعروف وأنا أنهى عن منكر ، هنا نقول له : لا تجعل الدين ، ولا تجعل التقوى في مرتبة أقل من المهن التي لا بد أن يزاولها أهل فكر ومتخصصون فيها .

ثم يقول سبحانه : { والحافظون لِحُدُودِ الله } و « الحدود » جمع « حد » وتأتي الحدود في القرآن على معنيين : المعنى الأول هو المحافظة على الأوامر ، وتلك التي يردفها الحق بقوله : { تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا . . . } [البقرة : 229]

وكل أمر يقول فيه ذلك هو حد الله فلا تتعدَّ هذا الحد ، أما المعنى الثاني : فهو البعد عن المنهيات فلا يقول لك : لا تتعداها ، بل يقول سبحانه : { تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَقْرَبُوهَا . . . } [البقرة : 187]

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : { وَبَشِّرِ المؤمنين } أي : بَشِّرْ هؤلاء الذين يسلكون هذا السلوك مطابقاً لما اعتقدوه من اليقين والإيمان ، لا هؤلاء المنافقين الذي قد يصلون أو يصومون ظاهراً . وكلمة { وَبَشِّرِ } و « استبشر » و « البشرى » و « البشير » كلها مادة تدل على

الخبر السار الذي يجعل في النفس انبساطاً وسروراً؛ بحيث إذا رأيت وجه الإنسان وجدته وجهاً متهللاً تفيض بشرته بالسرور .

وبعد ذلك يتكلم الحق عن أمر شغل بال المؤمنين الذين كان لهم آباء على الكفر؛ ومن حقوق هذه الأبوة على الأبناء أن يستغفروا لهم لعل الله يغفر ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن رعاية حدود الله وحقوقه أوْلَى من قرابة الدم ، وأوْلى من عاطفة الحنوّ والرحمة؛ فالحق سبحانه وتعالى أوْلى بأن يكون الإنسان باراً به من أن يكون بارّا بالأب الكافر ، وقد جعل الحق سبحانه النسبَ في الإسلام نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه : { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين . . . }

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113)

قبل أن يحظر الحق سبحانه على المؤمنين الاستغفار لآبائهم المنافقين ، بدأ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالك { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ } ، وإذا كان النبي ينهى ، فالمؤمنون من باب أوْلى ليس بهم الحق في ذلك؛ لأن الله لو أراد أن يكرم أحداً من الآباء لأجل أحد ، لأكرم أباء النبي إن كانوا غير مؤمنين .

وكلمة { مَا كَانَ } تختلف عن كلمة « ما ينبغي » فساعة تسمع « ما ينبغي لك أن تفعل ذلك » فهذا يعني أن لك قدرة على أن تفعل ، لكن لا يصح أن تفعل ، ولكن حين يقال : « ما كان لك أن تفعل » ، أي : أنك غير مؤهل لفعل هذا مطلقاً .

ومثال ذلك أن يقال لفقير جدّاً : « ما كان لك أن تشتري فيديو »؛ لأنه بحكم فقره غير مؤهل لشراء مثل هذا الجهاز ، لكن حين يقال لآخر : ما ينبغي لك أن تشتري فيديو « أي : عنده القدرة على الشراء ، لكن القائل له يرى سبباً غير الفقر هو الذي يجب أن يمنع الشراء . إذن : فهناك فَرْق بين نفي الإمكان ، ونفي الانبغاء .

وهنا يقول الحق سبحانه : { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانوا أُوْلِي قربى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجحيم }

أي : ما كان للنبي ولا المؤمنين أن يستغفروا للذين ماتوا على الشرك والكفر ، ولو كانوا أولي قربى . فهذا أمر لا يصح .

وحتى لا يحتج أحد من المؤمنين بأن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد استغفر لأبيه جاء الحق بالقول الكريم : { وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ . . . }

وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114)

فقد وعد سيدنا إبراهيم عليه السلام أباه ما ذكره القرآن : { سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رِبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً } [مريم : 47]

{ حَفِيّاً } أي : أن ربَّ إبراهيم يحبه وسيكرمه في استغفاره لأبيه .

{ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ } ويأتي الحق سبحانه بالحيثية الموحية ، بأن إبراهيم له من صفات الخير ، الكثير جداً ، لدرجة أن الله خالقه يقول فيه : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً . . . } [النحل : 120]

أي : أن خصال الخير في إبراهيم عليه السلام لا توجد مجتمعة في إنسان واحد ، ولا في اثنين ولا في ثلاثة ، بل خصال الخير موزعة على الناس كلها ، فهذا فيه صفة الأمانة ، وثان يتحلى بالصدق ، وثالث يتميز بالشهامة ، ورابع موهوب في العلم ، إذن : فخصال الخير دائماً ينشرها الله في خلقه ، حتى يوجد تكافؤ الفرص بين البشر ، كالمهن ، والحرف ، والعبقريات ، والمواهب ، فلا يوجد إنسان تتكامل فيه المواهب كلها ليصبح مجمع مواهب .

لكن شاء الحق أن يجمع لسيدنا إبراهيم عليه السلام خصال خير كثيرة فقال : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } أي : فيه عليه السلام من خصال الخير التي تتفرق في الأمة . وبعد ذلك يعطينا الحيثية التي جعلت من سيدنا إبراهيم أمة ، وجامعاً لصفات الخير بهذا الشكل ، فإن أعطاه الله أمراً فهو ينفذه بعشق ، لا مجرد تكليف يريد أن ينهيه ويلقيه من على ظهره ، بل هو ينفذ التكليف بعشق ، واقرأ قول الله سبحانه : { وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . . . } [البقرة : 124]

أي : أتى بها على التمام ، فلما أتمهن أراد الله أن يكافئه ، فقال : { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً . . } [البقرة : 124]

فهو – إذن – مأمون على أن يكون إماماً للناس لأنه قدوة ، أي أنه يشترك مع الناس في أنه بشر ، ولكنه جاء بخصال الخير الكاملة فصار أسوة للناس ، حتى لا يقول أحد : إنه فعل الخير لأنه ملك ، وله طبيعة غير طبيعة البشر ، لا . . إنه واحد من البشر ، قال فيه الحق سبحانه : { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً . . . } [البقرة : 124]

أي : أسوة وقدوة ، والأسوة والقدوة يشترط فيها أن تكون من الجنس نفسه فلا تكون من جنس مختلف ، فلا يجعل الله للبشر أسوة من الملائكة؛ حتى لا يقول أحد : وهل أنا أستطيع أن أعمل مثل عمله؟ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في عرض هذه القضية : { وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً } [الإسراء : 94]

فحين تعجَّب بعض الناس من أن ربنا قد بعث من البشر رسولاً أنزل الحق هذا القول وأضاف

سبحانه : { قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً } [الإسراء : 95]

فما دُمتم أنتم بشر فلا بد أن يرسل لكم رسولاً منكم لتحقق الأسوة ، لهذا يقول الحق سبحانه :

{ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ } [الأنعام : 9]

ولنَر كيف أتم سيدنا إبراهيم عليه السلام بعض التكاليف بعشق ، فلننظر إلى قول الحق سبحانه : { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت . . . } [البقرة : 127]

ومعنى رفع القواعد أي إيجاد البعد الثالث ، وهو الارتفاع؛ لأن البيت الحرام له طول وهذا هو البعد الأول ، وله عرض وهو البعد الثاني وبهما تتحدد المساحة . أما الارتفاع فبضربه في البعدين الآخرين يعطينا الحجم ، وقد أقام سيدنا إبراهيم عليه السلام البعد الثالث الذي يبرز الحجم ، وقد قال بعض السطحيين : إن سيدنا إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى الكعبة ، لا لم بن الكعبة ، بل رفع القواعد التي تبرز حجم الكعبة؛ بدليل أنه حينما جاء هو أمرأته هاجر ومعها الرضيع إسماعيل عليه السلام قال : { رَّبَّنَآ إِنِي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم . . . } [إبراهيم : 37]

وهذا دليل على أن البيت كان معروفاً من قبل إبراهيم عليه السلام ، وقد استقرت به هاجر وطفلها إسماعيل إلى أن كبر واستطاع أن يرفع مع أبيه القواعد ، ولذلك نقول : إن هناك فرقاً بين « المكان » و « المكين » فالذي فعله إبراهيم هو إقامة « المكين » أي المبنى نفسه ، أما المكان فقد كان معروفاً .

ولنفترض أنه جاء سيل على الكعبة وهدمها فإلى أي شيء سنصلي؟ إلى أن نقيم المكين . إذن : عملية البناء هذه للمكان ، وليبست للمكين .

ويقول الحق عن البيت الحرام : { فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ . . . } [آل عمران : 97]

وآيات جمع ، وبينات جمع ، ولم يأت من الآيات البينات إلا « مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ » . { فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ . . . } [آل عمران : 97]

أي : أن « مقام إبراهيم » هو مجموع الآيات البينات؛ لأن الله قد أمره أن يرفع القواعد ، وكان لا بد أن يبحث عن الإمكانات التي تساعده في الرفع؛ لأنه لو رفعها على قدر ما تطول يده لما بلغ طول الكعبة فوق مستوى ما تطوله اليدان؛ لذلك فكر سيدنا إبراهيم وتدبر وجاء بحجر ليقف فوقه ليطيل في ارتفاع جدران الكعبة ، وهذا من دلائل أنه ينفذ التكليف بعشق ، وعلى أتم وجه؛ لذلك قال الحق :

{ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ } وفي هذا آيات واضحة على أن الإنسان إذا كلف أمراً فعليه ألا ينفذ الأمر لينهى التكليف بأية طريقة ، ولكن عليه أن يؤدي ما يكلف به بعشق ، ويحاول أن

يزيد فيه ، وبذلك يؤدي « الفرض » والزائد على الفرض وهو « النافلة » .
ونحن هنا في قضية الاستغفار { وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ }
وهنا وقفة توضح لنا طبع سيدنا إبراهيم كأواه حليم ، والأواه هو الذي يكثر التوجع والتأوه على نفسه مخافة من الله ، وعلى الناس إن رأى منهم معصية ، فيحدث نفسه بما سوف يقع عليهم من عذاب ، إنه يشعل نفسه بأمر غيره ، فهذه فطرته ، وهو أواه لأن التأوه لون من السلوى يجعلها الله في بعض عباده للتسرية عن عبادٍ له آخرين .

ولذلك يقول الشاعر :
ولا بد من شكوى إلى ذي مروءةٍ ... يواسيك أو يسلّيك أو يتوجع
أي : أنه إذا إصابت الإنسان مصيبة فهو يشكو إلى صاحب المروءة ، فإما أن يساعده في مواجهة المشكلة ، وإما أن يواسيه ليحمل عنه المصيبة ، بأن يتأوه له ويشاركه في تعبه لمصيبته ، وهذا التأوه علامة رقة الرأفة وشفافية الرحمة في النفس البشرية .
فإبراهيم { أَوَّاهٌ } ، وهذا طبع فيه يسلكه مع كل الناس ، فما بالك إن كان لقريب له؟ لا بد إذن أن يكثر من التأوه ، وخصوصاً إن كان الأمر يتعلق بأبيه ، ومع ذلك أراد الله أن يضع طبع إبراهيم عليه السلام في التأوه في موضعه الصحيح ، ولكن الله أوضح له : إياك أن تستغفر لأبيك ولا شأن لك به ، فالمسألة ليست في الطبع ، ولكن في رب الطبع الذي أمر بذلك .
وهنا قضية هامة أحب أن تصفى بين مدارس العلم والعلماء في العالم كله؛ لأنها مسألة تسبب الكثير من المشاكل ، وتثار فيها أقضية كثيرة .
لقد أمر الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام ألا يستغفر لأبيه ، بعد أن تبين له أنه عدو لله ، وما دام والد إبراهيم قد وصف بهذه الصفة وأنه عدو الله ومحمد صلى الله عليه وسلم من نسل إبراهيم إذن : فلماذا يقول الرسول : « إنني خيار من خيار من خيار »
؟ ولو فهمنا قول الحق : إن أبا إبراهيم عدو لله ، ففي هذا نقض لحديث رسول الله ، وما دام أبو إبراهيم كان عدوا لله وتبرأ منه وقال له الحق : لا تستغفر . إذن : ففي نسبه صلى الله عليه وسلم أحد أعداء الله ، وفي ذلك نقض لقوله صلى الله عليه وسلم : « خيار من خيار خيار ، ما زلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات »
ولهذا نريد أن نصفي هذه المسألة تصفية علماء ، لا تصفية غوغاء ، ولنسأل من هو الأب؟
الأب هو من نَسَلَكَ وأنجبك ، أو نسل من نسلك . إذن : فهناك أب مباشر وأبوه يعتبر أبا لك أيضاً إلى أن تنتهي لآدم ، هذا هو معنى كلمة « الأب » كما نعرفه ، لكننا نجد ان القرآن قد تعرض لها بشكل أعمق كثيراً من فهمنا التقليدي ، وأغنى السور بالتعرض لهذه المادة « سورة

يوسف »؛ لأن مادة « الأب » جاءت ثماني وعشرين مرة خلال هذه السورة ، فمثلاً تجد في أوائل سورة يوسف ، قول يوسف عليه السلام : { إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ ياأبت إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً . . . }

[يوسف : 4]

وبعد ذلك جاءت السورة بأن الله سوف يجتبئ يوسف ويعلمه من تأويل الأحاديث : { وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعلى آلِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَآ على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ . . . } [يوسف : 6]

والأبوان المقصودان هما إبراهيم وإسحاق عليهما السلام ، ثم قال الحق من بعد ذلك : { إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إلى أَبِينَا . . . } [يوسف : 8]

ثم جاء قوله الحق على لسان إخوة يوسف : { وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } [يوسف : 8]

وفي نفس السورة يقول الحق عن إخوة يوسف : { اقتلوا يُوسُفَ أَوِ اطرحوه أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ . . . } [يوسف : 9]

ثم يمهد إخوة يوسف للتخلص منه ، فيبدأون بالحوار مع الأب : { قَالُواْ ياأبانا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا على يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [يوسف : 11-12]

وبعد أن ألقوه في غيابة الجب ، وعادوا إلى والدهم : { وجآءوا أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ } [يوسف : 16]

وكانت هذه هي المرة الثامنة في ذكر كلمة أب في سورة يوسف ، ثم تأتي التاسعة : { قَالُواْ ياأبانآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا . . . } [يوسف : 17]

ثم تدور أحداث القصة إلى أن دخل سيدنا يوسف السجن ، وقابل هناك اثنين من المسجونين وأخبراه أنهما يريانه من المحسنين ، وأن عندهما رؤى يريدان منه أن يفسرها لهما فقال لهما : { لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ . . . } [يوسف : 37]

وينسب ذلك الفضل إلى الحق سبحانه فيقول : { ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِي ربي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بالله وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ * واتبعت مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ . . . } [يوسف : 37-38]

وهكذا ذكر اسم ثلاثة من آبائه : إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام .

ثم خرج يوسف من السجن وتولى أمر تنظيم اقتصاد مصر ، وجاء إخوته للتجارة فعرفهم ، ويحكى للقرآن عن لقائه بهم دون أن يعرفوه ، وقال : { وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائتوني بِأَخٍ

لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ . . . } [يوسف : 59]

وقال أيضاً : { قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ } [يوسف : 61]

ثم عادوا إلى أبيهم يرجونه أن يسمح لهم باصطحاب أخيهم الأصغر معهم ، وسمح لهم يعقوب عليه السلام باصطحابه بعد أن آتوه موثقاً من الله أن يأتوه به إلا أن يحيط بهم أمر خارج عن إرادتهم ، ونزلوا مصر وطلبوا الميرة . { فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السقاية فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا العير إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِمْ مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الملك وَلِمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ * قَالُواْ تالله لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأرض وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ . . . } [يوسف : 70-75]

قالوا : { إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين } [يوسف : 78]

قال يوسف : { مَعَاذَ الله أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ . . . }

[يوسف : 79]

ويأمرهم سيدنا يوسف عليه السلام : { ارجعوا إلى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ ياأبانا إِنَّ ابنك سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ } [يوسف : 81]

ويعودون إلى أبيهم الذي يعاتبهم : { بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً . . . } [يوسف : 83]

ثم يأمرهم أن يعودوا مرة أخرى قائلاً : { يابني اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ . . . } [يوسف : 87]

وعندما عرفهم يوسف بنفسه وعلم منهم أن والدهم قد صار أعمى قال لهم : { اذهبوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً } [يوسف : 93]

ثم يأمرهم يوسف عليه السلام بأن يأتوا بأهلهم أجمعين . { وَلَمَّا فَصَلَتِ العير قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ } [يوسف : 94]

ثم يقول الحق سبحانه : { وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ ياأبت هذا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ . . . } [يوسف : 100]

وما يهمنا في كل ذلك آيتان اثنتان : الأولى هي قوله سبحانه : { وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعلى آلِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَآ على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [يوسف : 6]

وإسحق هو أبو يعقوب ، وإبراهيم هو الأب الثالث . وحين قال يوسف : { واتبعت مِلَّةَ آبَآئِي . . } [يوسف : 38] .

و « أبائي » جمع أب . وعندما أراد أن يذكر الأعلام من آبائه قال : { إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ

وَيَعْقُوبَ . . . } [يوسف : 38] .

ويعقوب هو أبو يوسف ، وإسحق أبو يعقوب ، وإبراهيم أبو إسحق ، إذن : فإبراهيم أب ، وإسحق أب ، ويعقوب أب . وهكذا نرى أن كلمة « الأب » تطلق على الجد ، وآباء الجد إلى آدم . وإذا نظرت في سورة البقرة تجد قول الحق سبحانه : { أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ . . . } [البقرة : 133]

ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحاداً ، وهكذا يكون إبراهيم أباً ، وإسماعيل أباً ، وإسحق أباً ، ولكن إسماعيل أخ لإسحق ، إذن فقد أطلق الأب هنا وأريد به العم ، وهكذا ترى أنه إذا ألحق بكلمة « أب » اسم معين هو المقصود بها ، فالمعنى ينصرف إما إلى الجد وإما إلى العم ، وإن جاءت من غير تحديد الاسم ، فهي تنصرف إلى الأب المباشر فقط .

والحق يقول في شأن إبراهيم مع أبيه : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ . . . } [الأنعام : 74]

لقد ذكر الحق هنا اسم الأب وحدده ب « آزر » ولو أنه أبوه حقيقة لما قال آزر ، مثلما يأتيك إنسان ليسأل : أين أبوك؟ هنا نفهم أن السؤال ينصرف إلى الأب المباشر ، لكن إذا قال : هل أبوك محمد هنا؟ فهذا التحديد قد ينصرف إلى العم .

إذن : قول الله : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ } يبين لنا أن آزر ليس هو الصُّلب الذي انحدر منه رسول الله ، ولكنه عمه ، وبذلك نحل الإشكال واللغز الذي حير الكثيرين .

وهنا يقول الحق سبحانه : { وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } [التوبة : 114]

و « الحليم » هو خلق يجعل صاحبه صبوراً على الأذى صفوحاً عن الذنب .

وقد شغل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخوانهم المؤمنين ، الذين ماتوا قبل أن تكتمل عندهم أحكام الإسلام؛ لأن منهج الإسلام نزل في « ثلاثة وعشرين عاماً » . وليس من المفروض فيمن آمن أن يأتي بكل أحكام الإسلام عند بداية آياته ، بل قد يكون قد آمن فقط بالشهادة ، فاعتبر مسلماً ، ومثال هذا مخيريق اليهودي الذي لم يصل ركعة واحدة في الإسلام؛ لأن الحرب قامت بعد إسلامه مباشرة ، وقال : مالي كله لمحمد وسأذهب لأحارب معه ، وحارب فقتل ، وهكذا صار شهيداً . لأنه لم يمكث زمناً ينفذ فيه ما جاء به الإسلام قبل ذلك .

ومن باب أولى أن الذي مات قبل أن تتم أحكام الإسلام يعتبر مسلماً ، والذي مات مثلاً قبل أن تحرم الخمر تحريماً نهائيّاً ، أيقال : إنه عاصٍ أو كافر؟ لا ، إنه مسلم ، والذي مات قبل أن يعلم أن القبلة قد حولت من بيت المقدس إلى الكعبة يعتبر مسلماً وشاء الحق أن يبين للمسلمين ألا يحزنوا على هؤلاء ، فنزل الوحي : { وَمَا كَانَ الله لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حتى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا

يَتَّقُونَ إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [التوبة : 115]

وهذا يوضح ما نعرفه في عرف التقنين البشري أنه لا جريمة إلا بنص ، ولا عقوبة إلا بتشريع ، فنحن لا نعاقب إلا بعد تحديد الفعل الذي يعاقب عليه ، وأن يكون النص المحدد للجريمة والعقوبة سابقاً على الفعل .

إذن : لا عقوبة بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص . والذي لم يبلغه النص؛ لأنه مات قبل أن يوجد النص؛ لأنه لا رجعية في القانون السماوي ، إنما الرجعية فقط عند البشر؛ ولذلك نجد الحق يقول في كثير من الآيات : { إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ . . . } [النساء : 22]

إذن : فلا تحزنوا على من مات من إخوانكم قبل أن يستكمل الإسلام كل أحكامه . فإسلامهم هو ما بلغهم من هذه الأحكام؛ فإن أدوها استووا بالذي يؤديها بعد أن تتم أركان الإسلام كلها؛ لذلك جاء قوله الحق : { وَمَا كَانَ الله لِيُضِلَّ . . . }

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115)

وهنا الهداية هي هداية الدلالة حتى يبين لهم ما يتقون؛ { وَمَا كَانَ الله لِيُضِلَّ قَوْماً } أي : ما كان الله ليحكم بضلالة قوم حتى يبين لهم ما يتقون . والتقوى التزام أمر الله ونهيه ، فإذا وافقوا البيان هداهم هداية معونة ، وإذا لم يوافقوا كانوا ضالين ، وقد حكم الله بضلالة عم إبراهيم وما حكم الله بضلالته إلا بعد أن بين له منهج الهداية .

وقد بين إبراهيم لعمه منهج الهداية فلم يهتد . ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم ألا يستغفر له .

ويقول الحق بعد ذلك : { إِنَّ الله لَهُ مُلْكُ . . . }

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (116)

ومادة ال (م . ل . ك) يأتي منها « مالك » ، و « مَلك » ، و « ملْك » ، ومنها « مُلْك » ، ومنها « ملكوت » ، و « المِلْك » هو ما تملكه أنت في حيزك ، فإن كان هناك أحد يملكك أنت ومن معك ويملك غيرك ، فهذا هو المَلِك ، أما ما اتسع فيه مقدور الإنسان أي الذي يدخل في سياسته وتدبيره ، فاسمه مُلك ، فشيخ القبيلة له ملك ، وعمدة القرية له ملك ، وحاكم الأمة له ملك ، ويكون في الأمور الظاهرة . . . واما الملكوت فهو ما لله في كونه من أسرار خفية .

مثل قوله تعالى : { وَكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض . . . } [الأنعام : 75]

وساعة ترى « تاء المبالغة » في مثل « رهبوت » ، و « عظموت » تدرك أنها رهبة عظيمة .

إذن : إياك أن تفهم أن الله حين يمنعك أن تستغفر لآبائك ، وأنك إن قاطعتهم فذلك يخل بوجودك في الحياة؛ لأنهم هم ومن يؤازرهم داخلون في ملك الله ، وما دام الله له ملك السموات والأرض ، فلا يضيرك أحد أو شيء ولا يفوتك مع الله فائت ، وما دام الله سبحانه موجوداً فكل شيء سهل لمن يأخذ بأسبابه مع الإيمان به .

والحق سبحانه يبين لنا أنه سبحانه وحده الذي بيده الملك؛ فقال : { قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الخير . . . } [آل عمران : 26]

وفي هذا القول الكريم أربعة أشياء متقابلة : { تُؤْتِي الملك } و { وَتَنزِعُ الملك } ، وإيتاء المُلْك في أعراف الناس خير ، ونزعه في أعراف الناس شر ، وإعزاز الناس خير ، وإذلالهم شر ، ولم يقل الله بيده : « الخير والشر » . وإنما قال في كُلّ : { بِيَدِكَ الخير } .

إذن : فحين يؤتي الله إنساناً مُلْكاً؛ نقول : هذا خير وعليك أن تستغله في الخير . وحينما ينزع الله منه الملك نقول له : لقد طغيت وخفف الله عنك جبروت الطغيان ، فنزعه الله منك فهذا خير لك . وإن أعزك الله ، فقد يعذبك حقّاً ، وإن أذلهم الله ، فالمقصود ألا يطغوا أو يتجبروا .

إذن : فكلها خير . { تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الخير . . . } [آل عمران : 26]

ساعة تجد ملكاً عضوضاً ، إياك أن تظن أن هذا الملك العضوض قد أخذ ملكه دون إرادة الله ، لا ، بل هو عطاء من الله . ولو أن المملوك راعى الله في كل أموره لرقق عليه قلب مالكه .

ولذلك يقول لنا في الحديث القدسي : « أنا الله ملك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيها بيدي ، فإن العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة ، وإن هم عصوني جعلتهم عليهم عقوبة ، فلا تشتغلوا بسب الملوك ، ولكن أطيعوني أعطفهم عليكم »

وما دام الأمر كذلك ، فلا بد أن نعرف أن كل حادثة له حكمة في الوجود .

وإن رأيت واحداً قد أخذ الملك وهو ظالم ، فاعلم أن الله قد جاء به ليربي به المملوكين ، وسبحانه لا يربي الأشرار بالأخيار؛ لأن الأخيار لا يعرفون كيف يربون؛ وقلوبهم تمتلئ بالرحمة؛ ولذلك يعلمنا سبحانه : { وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً . . . } [الأنعام : 129]

والخيِّر لا يدخل المعركة بل يشاهد الصراع من بعيد ، ويجري كل شيء بعلم الله؛ لأنه سبحانه لم ملك السموات والأرض وهو الذي يحيي ويميت ، فإياك أن تُفْتَن في غير خالقك أبداً؛ لأن الخلق مهما بلغ من قدرته وطغيانه ، لا يستطيع أن يحمي نفسه من أغيار الله في كونه ولذلك فليأخذ المؤمن من الله وليّاً له ونصيراً .

وبعد أن قال لنا سبحانه : { إِنَّ الله لَهُ مُلْكُ السموات والأرض } يأتي لنا بالأمر الذي يظهر فيه

أثر القدرة ، ولا يشاركه فيه غيره ، فقال : { يُحْيِي وَيُمِيتُ } . وقال بعض العلماء في قوله : { يُحْيِي وَيُمِيتُ } أنه سبحانه « يحيي الجماد » ، و « يميت الحيوان »؛ لأنهم ظنوا أن الحياة هي الحس والحركة التي نراها أمامنا من حركة وكلام وذهاب وإياب ، ونسوا أن الحياة هي ما أودعه الله في كل ذرة في الكون ، مما تؤدي به مهمتها ، ففي ذرة الرمل حياة ، والجبل فيه حياة ، وكل شيء فيه حياة ، بنص القرآن حيث يقول : { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . . } [الأنفال : 42]

إذن : فالحياة مقابلها الهلاك ، وفي آيات أخرى يقابل الحياة الموت ، فالهلاك هو الموت . فإذا قال الحق سبحانه : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . } [القصص : 88]

إذن : فكل شيء قبل أن يكون هالكاً كان حيّاً ، وهكذا نعرف أن الحياة ليست هي الحس والحركة الظاهرتين ، وبعد التقدم العلمي الهائل في المجاهر الدقيقة تكشفت لنا حركة وحس كائنات كنا لا نراها ، وإذا كان الإنسان قد توصل بالآلات التي ابتكرها إلى إدراك ألوان كثيرة من الحياة فيما كان يعتقد أنه لا حياة فيها ، إذن : فكل شي في الوجود له حياة تناسبه فلو جئت بمعدن مثلاً وتركته ستجده تأكسد ، أي حدث فيه تفاعل مع مواد أخرى . . فهذه حياة .

بعد ذلك يقول الحق : { لَقَدْ تَابَ الله على النبي . . . }

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (117)

قلنا : إن التوبة لها مراحل ، فهناك توبة شرعها الله ، ومجرد مشروعية التوبة من الله رحمة بالخلق ، وهي أيضاً رحمة بالمذنب؛ لأن الحق سبحانه لو لم يشرع التوبة لاستشرى الإنسان في المعاصي بمجرد انحرافه مرة واحدة ، وإذا استشرى في المعاصي فالمجتمع كله يشقى عليه الذنب ، فمشروعية التوبة نفسها رحمة بمن عمل الذنب . وأنت إذا سمعت قوله الحق سبحانه : { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا . . . } [التوبة : 118]

فافهم أن تشريع التوبة إنما جاء ليتوب العباد فعلاً ، وبعد أن يتوبوا ، يقبل الله التوبة .

والحق هنا يقول : { لَقَدْ تَابَ الله على النبي } وعطف على النبي صلى الله عليه وسلم { المهاجرين والأنصار } ، فأي شيء فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقول الله : { لَقَدْ تَابَ الله على النبي } ؟! ونقول ألم يقل الحق سبحانه له : { عَفَا الله عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ . . . } [التوبة : 43]

فحين جاء بعض المنافقين استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في التخلف عن الغزوة ، فأذن لهم ، مع أن الله سبحانه قال : { لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً . . . } [التوبة : 47]

إذن : فرسول لله صلى الله عليه وسلم كان بالفطرة السليمة قد اتخذ القرار الصائب ، ولكن

الحق سبحانه لا يريد ان يتبعوا فطرتهم فقط ، بل أراد أن يضع تشريعاً محدداً .
وشاء الحق سبحانه أن يخبرنا بأنه قدم العفو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أذن لمن استأذنه من المنافقين ألا يخرجوا إلى القتال ، وهناك أشياء يأخذها الله على عبده؛ لأن العبد قام به ضد صالح نفسه ، ومثال هذا من حياتنا ولله المثل الأعلى : أنت إذا رأيت ولدك يذاكر عشرين ساعة في اليوم؛ فإنك تدخل عليه حجرته لتأخذ منه الكتاب أو تطفئ مصباح الحجرة ، وتقول له : « قم لتنام » . وأنت في هذه الحالة إنما تعنف عليه لأنك تحبه ، لا ، لأنه خالف منهجاً ، بل لأنه أوغل في منهجٍ وأسلوب عملٍ يرهق به نفسه .
وحين سمح النبي صلى الله عليه وسلم لقوم أن يتخلفوا ، فهل فعل ذلك ضد مصلحة الحرب أم مع مصلحة الحرب؟ أنهم لو اشتركوا في الحرب لكثر ثوابهم حتى ولو حرسوا الأمتعة أو قاموا بأي عمل ، إذن : فإذنه صلى الله عليه وسلم لهم بالتخلف هو تصعيب للأمر على نفسه .
ولذلك نجد أن كل عتب على نبي الله ، إنما كان عتباً لصالحه لا عليه فسبحانه يقول له : { لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ الله لَكَ . . . } [التحريم : 1]
والنبي صلى الله عليه وسلم لم يحل ما حرم الله بل حرم على نفسه ما أحل الله له ، وهذا ضد مصلحته ، وكأن الحق يسائله : لماذا ترهق نفسك؟ . إذن : فهذا عتب لمصلحة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأيضاً حين جاء ابن مكتوم الأعمى يسأل رسول الله في أمر من أمور الدين ، وكان ذلك في حضور صناديد قريش ، فالتفت صلى الله عليه وسلم إلى الصناديد وهم كافرون ، يريد أن يلين قلوبهم ، وترك ابن أم مكتوم؛ فنزل القول الحق :

{ عَبَسَ وتولى * أَن جَآءَهُ الأعمى } [عبس : 1–2]
وابن أم مكتوم جاء ليستفسر عن أمر إيماني ، ولن يجادل مثلما يجادل صناديد قريش ، فلماذا يختار الرسول صلى الله عليه وسلم الأمر الصعب الذي يحتاج إلى جهد أكبر ليفعله؟ . إذن : العتب هنا لصالح محمد صلى الله عليه وسلم ، وحين يقول الحق له : { عَفَا الله عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ . . . } [التوبة : 43]
ثم جاء ها في الآية بالمهاجرين والأنصار معطوفين على رسول الله ، وذلك حتى لا يتحرج واحد من المهاجرين أو الأنصار من أن الله تاب عليه ، بل التوبة تشمله وتشمل الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه؛ فلا تحرُّج .
وهذه المسائل التي حدثت كان لها مبررات ، فقد قال الحق : { مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ } ويزيغ : يميل ، أي : يترك ميدان المعركة كله؛ لأنها كانت معركة في ساعة العسرة ، ومعنى العسرة الضيق الشديد ، فالمسافة طويلة ، والجنود الذين سيواجهونهم هم جنود الروم ، والجو حارٌّ ، وليس عندهم رواحل كافية ، فكل عشرة كان معهم بعير واحد ، يركبه واحد منهم ساعة

ثم ينزل ليركبه الثاني ، ثم الثالث ، وهكذا ، ولم يجدوا من الطعام إلا التمر الذي توالد فيه الدود .

وقد بلغ من العسرة أن الواحد منهم كان يمسك التمرة فيمصها بفيه يستحلبها قليلاً ، ثم يخرجها من فيه ليعطيها إلى غيره ليستحلبها قليلاً ، وهكذا إلى أن تصير على النواة ، وكان الشعير قد أصابه السوس ، وبلغ منه السوس أن تعفن ، وقال من شهد المعركة : « حتى إن الواحد منا كان إذا أخذ حفنة من شعير ليأكلها يمسك أنفه حتى لا يتأذى من رائحة الشعير » . كل هذه الصِّعاب جعلت من بعض الصحابة من يرغب في العودة . ولا يستكمل الطريق إلى الغزوة . إذن : فالتوبة كانت عن اقتراب زيغ قلوب فريق منهم . وجاء الحق بتقدير ظرف العسرة ، ولذلك تنبأ بالخواطر التي كانت في نواياهم ومنهم أيضاً من همّ ألا يذهب ، ثم حدجثته نفسه بأنه يذهب مثل أبي خيثمة الذي بقي من بعد أن رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزوة ومرت عشرة أيام ، ودخل الرجل بستانه فوجد العريشين ، وعند كل عريش زوجةٌ له حسناء ، وقد طَهَتْ كل منهما طعاماً ، وهكذا رأى أبو خيثمة الظلال الباردة ، والثمر المدلَّى ، فمسّته نفحة من صفاء النفس؛ فقال : « رسول الله في الفيح – أي الحرارة الشديدة جدّاً – والريح ، والقُرّ والبرد ، وأنا هنا في ظل بارد ، وطعام مطهوّ ، وامرأتين حسناوين ، وعريش وثير ، والله ما ذلك بالنِّصَفة لك يا رسول الله ، وأخذ زمام راحلته وركبها فكلَّمته المرأتان ، فلم يلتفت لواحدة منهما وذهب ليلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال صحابة رسول الله : يا رسول الله إنَّا نرى شبح رجل مُقْبل . فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « كن أبا خيثمة » ، ووجده أبا خيثمة ، هذا معنى الحق :

{ لَقَدْ تَابَ الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فِي سَاعَةِ العسرة مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [التوبة : 117]

وفي واقعة الصحابة الذين راودتهم أنفسهم أن يرجعوا وتاب الله عليهم أيضا على آخرين اعترفوا بذنوبهم ، فتاب الحق عليهم حين قال : { وَآخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى الله أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [التوبة : 102]

وأرجأ الحق أمر آخرين نزل فيهم قوله : { وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله . . . } [التوبة : 106]

وما دام الله قد قال : { مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله } أي : ما بَتّ الله سبحانه في أمرهم بشيء؛ فلا بد من الانتظار إلى أن يأتي أمر الله ، ويجب ألا نتعرض لهم حتى يأتي قول الله . وتاب أيضاً على الثلاثة الذين خلفوا ، في قوله سبحانه : { وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ . . . }

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118)

قد يظن أحد أن (خُلِّفُوا) هنا تدل على أن أحداً قال لهم : اقعدوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن لم يقل لهم أحد هذا . إنما (خُلِّفُوا) معناها : لم يظهر أمر الشارع فيهم كما ظهر في غيرهم ، بل قال الحق فيهم من قبل : { وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله } [التوبة : 6] ، وما دام قد تأخر فيهم الحكم فلا بد من الانتظار .

{ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وظنوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ الله إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا إِنَّ الله هُوَ التواب الرحيم } [التوبة : 118]

ونعلم أن الإنسان إذا شغله همّ يُحدّث نفسه بأن يترك المكان الذي يجلس فيه ، ويسبب له الضيق ، لعل الضيق ينفك . ولكن هؤلاء الثلاثة قابلوا الضيق في كل مكان ذهبوا إليه حتى ضاقت عليهم الأرض بسعتها ، فلم يجد واحد منهم مكاناً يذهب إليه ، وهذا معناه أن الكرب الذي يحيطهم قد عَمَّ ، والإنسان قد تضيق عليه الأرض بما رحبت ولكن نفسه تسعه .

والحق يقول عنهم : { وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ } أي : ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم أيضاً ، فقد تخلف الثلاثة عن الغزوة ، لا لعذر إلا مجرد الكسل والتواني ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بمقاطعتهم ، فكان كعب بن مالك يخرج إلى السوق فلا يكلمه أحد ، ويذهب إلى أقربائه فلا يكلمه أحد ، ويتسوَّر عليهم الحيطان لعلهم ينظرون إليه ، فلا ينظرون إليه .

وبعد ذلك يتصاعد الأمر في عزل هؤلاء ، حتى تعدى إلى نسائهم ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بألا يقربوا نساءهم هكذا بلغ العزل مبلغاً شديداً ودقيقاً ، فقد كان التحكم أولاً في المجتمع ، ثم في الأقارب ، ثم في خصوصيات السكن وهي المرأة ، حتى إن امرأة هلال بن أمية ذهبت إليه وقالت : يا رسول الله إن هلال بن أمية ، رجل مريض ضعيف ، وأنا أستأذنك في أن أصنع له ما يقيمه ، قال لها : « ولكن لا يقربنك » . قالت والله يا رسول الله ما به حركة إلى شيء ، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . وذهب بعض المسلمين إلى كعب بن مالك ليبلغوه أن رسول الله صرح لامرأة هلال أن تخدمه ، وقالوا له : اذهب إلى رسول الله واستأذنه أن تخدمك امرأتك .

قال : إن هلالاً رجل شيخ ، فماذا أقول لرسول الله وأنا رجل شاب؟ والله لا أذهب له أبداً .

وظل الثلاثة في حصار نفسي ومجتمعي لمدة خمسين يوماً إلى أن جاء الله بالتوبة ، وفي هذا تمحيص لهم ، فكعب بن مالك – على سبيل المثال – يقص عن حاله قبل الغزوة قائلاً : لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة .

أي : أنه لم يكن له عذر يمنعه .

بعد ذلك يجيء البشير بأن الله قد تاب عليه ، فيأتي واحد من جيل سَلْع فيقول : يا كعب أبشر بخير يوم مرّ عليك . فقد أنزل الله فيك قرآناً وأنه تاب عليك .

قال كعب : فلم أجد عندي ما أهديه له لأنه بشَّرني إلا ثوبيّ فخلعتهما وأعطيتهما له ، ثم استعرت ثوبين ذهبت بهما إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال : يا رسول الله ، إن من تمام توبتي أن أنخلع من مالي – الذي سبَّب لي هذا العقاب – صدقة إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه .

إذن : فتأخر الحكم كان المراد منه تمحيص هؤلاء ، وإعطاء الأسوة لغيرهم . فحين يرون أن الأرض قد ضاقت عليهم بما رحبت ، وكذلك ضاقت عليهم أنفسهم يتيقنون من قول الحق : { وظنوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ الله إِلاَّ إِلَيْهِ } [التوبة : 118]

أي : أن أحداً لا يجير إلا الله ، وسبحانه يجير من نفسه . كيف؟ أنت تعلم أنك ساعة لا يجيرك إلا من يتعقبك ، فاعلم أنه لا سلطان لأحد أبداً؛ ولذلك نقول : أنت تلجأ إلى الله لا من خلقه ، ولكنك تلجأ إلى الله ليحميك من الله ، فسبحانه له صفات جلال وصفات جمال ، وتتمثل صفات الجلال في أنه : قهار ، وجبار ، ومنتقم ، وشديد البطش ، إلى آخر تلك الصفات . وفي الحق سبحانه صفات جمال مثل غفور ، ورحيم ، وغيرها ، فإذا ما أذنب الإنسان ذنباً ، فالمجال في هذه الحالة ان يُعاقب من صفات الجلال ، ولا ينفع العبد وقاية من صفات الجلال إلا صفات الجمال .

وكلنا يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا الله بقوله : « أعوذ بك منك »

أي : أعوذ بصفات الجمال فيك من صفات جلالك ، فلن يحميني من صفات جلالك إلا صفات جمالك .

ولذلك حينما جاء في الحديث الشريف عن آخر ليلة من رمضان قوله صلى الله عليه وسلم . « فإذا ما كان آخر ليلة من رمضان تجلَّى الجبَّار بالمغفرة . »

يظن بعض الناس أن هذه المسألة غير منطقية ، فكيف يتجلَّى الجبّار بالمغفرة؟ ألم يكن من المناسب أن يقال : « يتجلّى الغفّار »؟ ونقول : لا؛ فإن المغفرة تقتضي ذنباً ، ويصبح المقام لصفة الجبار ، وهكذا تأخذ صفة الرحمة من صفة الجبار سُلْطتها ، وكأننا نقول : يا جبار أنت الحق وحدك ، لكننا نتشفع بصفات جمالك عند صفات جلالك . هذا هو معنى : « يتجلى الجبار بالمغفرة » .

وقد سمع الأصمعي – وهو يطوف – مسلماً عند باب الملتزم ، يقول : اللهم إني أستحي أن أطلب منك المغفرة؛ لأني عصيتك ، ولكني تطلَّعْتُ فلم أجد إلهاً سواك .

فقال له : يا هذا ، إن الله يغفر لك لحُسْن مسألتك .

ثم يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا } والتوبة أولاً – كما عرفنا – هي تشريعها ، ثم تأتي التوبة بالقبول ، وقوله : { ليتوبوا } أي : أنها تصبح توبة رجوع وعودة إلى ما كانوا عليه قبل المعصية .

ويُنهي الحق الآية بقوله : { إِنَّ الله هُوَ التواب الرحيم } فلا توَّاب ولا رحيم سواه سبحانه وتعالى .

ويقول الحق بعد ذلك : { ياأيها الذين آمَنُواْ . . . }

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119)

وساعة ينادي الحق عزّ وجلّ عباده المؤمنين ، فهو سبحانه إما أن يناديهم بحكم يتعلق بالإيمان ، وإما أن يناديهم بالإيمان ويطلب منهم الإيمان مثل قوله الحق : { يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ آمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ . . . } [النساء : 136]

والحق سبحانه يُبيّن للذين آمنوا به قبل أن يخاطبهم ، أنه من الممكن أن يؤمن الإنسان ثم يتذبذب في إيمانه ، فيطلب منه الحق « دوام الإيمان » . فإذا طلب الله من عباده ما كان موجوداً فيهم ساعة الخطاب ، فالمطلوب دوامه ، وإن طلب منهم حكماً يتعلق بالأيمان ، فهو يوجّههم إلى الاستماع وتطبيق ما يطلب منهم ، ومثال هذا قول الحق سبحانه : { اتقوا الله } [التوبة : 119]

وكلمة { اتقوا } تعني : اجعلوا بينكم وبين الله وقاية ، ويتساءل البعض : هل يطلب أحد من الإنسان أن يجعل بينه وبين وقاية؟ إن العبد المؤمن يطلب أن يكون في معيَّة الله . وهنا تأتي ضرورة فهم صفات الجمال وصفات الجلال . إن قوله سبحانه : { اتقوا الله } يعني : اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية ، مثلما قال سبحانه : { اتقوا الله } [البقرة : 24]

لأن النار من جنود صفات الجلال ، فاجعلوا بينكم وبين الله وقاية من صفات الجلال .

وهنا يقول الحق : { اتقوا الله وَكُونُواْ مَعَ الصادقين } ، وفسر بعض العلماء قوله : { وَكُونُواْ مَعَ الصادقين } بمعنى كونوا من الصادقين ، أي : أن « مع » هنا بمعنى « من » والمقصود أن يعطي هذا القول معنى إجماليّاً عامّاً . لكني أقول : هنام فرق بين { وَكُونُواْ مَعَ الصادقين } و « كونوا من الصادقين » ، فقوله الحق : { وَكُونُواْ مَعَ الصادقين } أي : التحموا بهم فتكونوا في معيّتهم وبعد أن تلتحموا بهم يأتي الذين من بعدكم ويجدونكم مع الصادقين .

ويقتضي الأمر هنا أن نتذكر ما سبق أن قلناه عن النسبة الكلامية والنسبة الذهنية ، فأيُّ قضية تمر على ذهنك قبل أن تقولها هي نسبة ذهنية ، مثل قولك : « محمد زارني » ، وأنت قبل أن تقول هذه العبارة جاء في ذهنك أن تنطقها ، وهذه « نسبة ذهنية » . ومن يسمعك لا يدري بها ، ولكونك المتكلم فأنت وحدك الذي تدري بها ، فإذا ما نطقتها وسمعها منك المخاطب؛ علم أن

نسبة ذهنية جاءت في ذهنك فترجمتها قولاً بالنسبة الكلامية . فحين قلت : « محمد زارني بالأمس »؛ جاءت في ذهنك قل أن تقولها ، فلما سمعها السامع عرف أن هناك نسبتين؛ نسبة سمعها عن نسبة عندك .

وحين يمحّص السامع هذا القول؛ يعلم أن هناك واحداً في الواقع اسمه محمد وعلم منك أنه قد زارك ، وخبرته معك أنه قد زارك ، وخبرته معك دائماً أنك صادق ، إذن : فالصدق هو أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع . أما إذا قلت : إن محمداً قد سافر إلى أمريكا ، وهو لم يسافر ، فهذا يعني أن النسبة الكلامية لم تتطابق مع النسبة الواقعية وهذا هو الكذب .

إذن : فهناك « نسبة ذهنية » و « نسبة كلامية » و « نسبة واقعية » . فإن تطابقت النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية ، فذلك هو الصدق ، وإن لم تتطابق يكون الكذب .

وكل نسبة تقولها تحتمل أن تكون صادقة أو كاذبة ، والفيصل في هذا الأمر هو الواقع ، هل يتطابق ما تقول أم لا؟ . أما إن قلت لك : « زُرْ فلاناً » فهذه نسبة إنشاء؛ لأن الواقع يأتي بعدها ، لا قبلها .

وهنا يقول الحق سبحانه : { اتقوا الله وَكُونُواْ مَعَ الصادقين } والصدق هو الخَلَّة التي تجمع كل الإيمان ، ولنر التطبيق لذلك في قصة الرجل البدوي الذي ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله ، إن فيَّ خلالاً ثلاثة لا أقدر على التخلِّي عنها أبداً ، أما الأولى فهي النساء ، وأما الثانية فهي الخمر ، وأما الثالثة فهي الكذب ، وقد جئتك يا رسول الله ، لتختار لي خصلة من الثلاثة وتقوّيني عليها ، وأعاهد ربنا عليها . فاختار رسول الله للأعرابي أن يتوب عن الكذب ، وأن يتحلّى بالصدق ، فقال له : كن صادقاً وما عليك . وحين أحب الأعرابي أن يشرب كأس خمر؛ تساءل : وماذا إن سألني النبي صلى الله عليه وسلم أشربت الخمر؟ وامتنع عن الخمر حتى لا يكذب على الرسول . وحين جاء ليختلس النظر إلى امرأة؛ قال لنفسه : « وماذا إن سألني صلى الله عليه وسلم وكيف أُخزي نفسي بصفة لا تليق بمسلم؛ فامتنع عن النظر إلى المحارم ، وهكذا سيطر الصدق على الرجل فهذّب سلوكه . وحين سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكون المؤمن جباناً؟ فقال : نعم . فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً؟ فقال : نعم . فقيل له : أيكون المؤمن كذاباً؟ فقال : لا . لأن مدخل الإيمان هو التصديق بالقضية العقدية الجازمة ، وهكذا تجد أن الصدق هو » رأس الأمر كله « .

وقوله الحق : { وَكُونُواْ مَعَ الصادقين } أي : لا تقولوا كلاماً لا يصادفه الواقع ، وكذلك إياكم أن تقولوا كلاماً تناقضه أفعالكم ، لهذا يقول الحق سبحانه : { ياأيها الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } [الصف : 2-3]

وفي سورة البقرة يقول الحق سبحانه : { لَّيْسَ البر أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المشرق والمغرب ولكن

البر مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وَآتَى المال على حُبِّهِ ذَوِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسآئلين وَفِي الرقاب وَأَقَامَ الصلاوة وَآتَى الزكاوة . . . } [البقرة : 177]

ولننتبه إلى الملاحظ الدقيقة في هذه الآية ، فقد قال الحق هنا : { وَآتَى المال على حُبِّهِ ذَوِي القربى } [البقرة : 177]

ثم ذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فلماذا إذن ذكر { وَآتَى المال } ؟ أقول : لقد ذكر الحق هنا المال الذي ينفقه المؤمن دون أن يكون مفروضاً عليه إخراجه مثل الزكاة ، فالزكاة واجبة ، أما إيتاء المال تصدقاً ، فهذا فوق الواجب .

ثم يقول سبحانه : { والموفون بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ والصابرين فِي البأسآء والضراء وَحِينَ البأس أولئك الذين صَدَقُواْ وأولئك هُمُ المتقون } [البقرة : 177]

هذه هي صفات من صدقوا ، وهم هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قد تصدقوا واتقوا .

{ ياأيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَكُونُواْ مَعَ الصادقين } [التوبة : 119]

وقد جاء الحق بصفة « الصدق » هنا؛ لأن المجال هو الحديث عمن تخلّف عن الغزوات ، وكذب في الأعذار التي افتعلها؛ لذلك يأتي التوجيه السماوي أن ادخلوا من باب الصدق .

يقول الحق بعد ذلك : { مَا كَانَ لأَهْلِ المدينة وَمَنْ . . . }

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120)

والحديث هنا فيه رجوع إلى الذين تخلفوا عن الغزوة ، وعرفنا من قبل أنك ساعة تقول : « ما كان لك أن تفعل كذا » أي : أنك تنفي القدرة على الفعل ، أما إن قلت : « ما ينبغي » أي : عندك قدرة على الفعل ، ولا يجب أن تفعله .

وهنا يقول الحق : { مَا كَانَ لأَهْلِ المدينة وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ الأعراب أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ الله } وبعضهم قد تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغزو .

ثم يقول سبحانه : { وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ } وهنا حديث عن نوعين من الأنفس : أنفس من قالوا بالتخلف ، ونفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت إذا قلت : « رغبت » ، معناها : أنك ملتَ ميلاً قلبياً ، فإن قلت : « رغبت في » كان الميل القلبي إلى ممارسة الفعل

وفيها التغلغل ، أما إن قلت : « رغبت عن » وفيها التجاوز ، هذا يعني أن الميل القلبي يهدف إلى الابتعاد عن الفعل . إذن : فحرف الجر هو الذي يحدِّد لون الميل القلبي .

وقوله الحق : { وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ } أي : أنهم زهدوا في أمر صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضَّلوا أمر نفوسهم على أمر رسول الله ، فيبين الحق لهم أنهم ما كان لهم أن يفعلوا ذلك؛ لأنكم ما دمتم آمنتم بالله ، فإيمانكم لا يكمل حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليكم من نفوسكم .

ولذلك نجد سيدنا عمر رضي الله عنه لما سمع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » ، فقال : يا رسول الله ، أنا أحبك عن أهلي وعن مالي إنما عن نفسي ، فلا . «

وهكذا كان صدق عمر رضي الله عنه ، فكرر رسول الله صلى الله عليه وسلم القول : » لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه « فعلم عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حازم في هذه القضية الإيمانية ، وعلم أن الحب المطلوب ليس حب العاطفة ، إنما هو حب العقل ، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل؛ فحب العاطفة لا تكليف فيه ، لكن حب العقل يأتي بالتكليف .

وعلى سبيل المثال : فأنت تحب ابنك بعاطفتك ، حتى وإن لم يكن ذكيّاً ، لكنك تحب بعقلك ابن عدوك إن كان ذكيّاً وأميناً وناجحاً . وضربنا المثل من قبل وقلنا : إن الإنسان قد يحب الدواء المرّ؛ لأن فيه الشفاء ، والإنسان لا يحب هذا الدواء بعواطفه ، ولا يتلذذ به وهو يشربه ، بل يحبه بعقله؛ لأن هذا الدواء قد يكون السبب في العافية ، وإن لم يجده في الصيدليات يغضب ويشكو ، ويسرّ بمن يأتي له به من البلاد الأخرى .

إذن : فالذين تخلفوا عن رسول الله من أهل المدينة أو ممن حولهم ما كان لهم أن يتخلفوا؛ لأن هذا يناقض إيمانهم في أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليهم من أنفسهم ، وكان من الواجب أن يرغبوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أنفسهم ، أما أن يكون الأمر بالعكس ، فلا . لأن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يأتي لهم بالخير .

أما اتباع حبهم لأنفسهم فهو حب ضيق البصيرة ، سيأتي لهم بالشرور ، وإن جاء لهم بخير فخيره موقوت ، وبحسب إمكاناتهم ، ولكن حبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن أنفسهم يأتي لهم بالخير الثابت الدائم الذي يتناسب مع قدرة الله سبحانه .

ثم يقول سبحانه : { ذلك بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ } و { ذلك } إشارة إلى حيثيات الترغيب التي يأخذون بها الجزاء الطيب من الحق سبحانه بأنهم { لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ } ، ونعلم أن الظمأ قد أصابهم في جيش العسرة لدرجة أن المقاتل كان يذبح البعير ، ويصفي الماء الذي في معدته لِيبُلَّ

ريقه ، وريق زملائه .

{ وَلاَ نَصَبٌ } والنَّصَب : هو التعب ، وكانت الغزوة في جو حار مرهق .

{ وَلاَ مَخْمَصَةٌ } أي : المجاعة ، وقد كانوا يأكلون التمر الذي أصابه الدود ، والشعير الذي انتشر فيه السوس . وإن كاناو قد عانوا من كل ذلك فهو في سبيل الله القادر على أن يمُنَّ عليهم بكل خير جزاء لما يقدمونه في سبيل نصرته .

{ وَلاَ يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكفار } نعلم أن الكفار كان لهم رقعة من الأرض يتمركزون فيها ، فحين يغير عليهم المؤمنون ويزحزحونهم عن هذا المكان ، وينزلون إلى الوديان والبساتين التي يملكها الكفار ، فهذا أمر يغيظ أهل الكفر ، إذن : فهم حين يطأون موطئاً ، فهذا يغيظ الكفار .

{ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً } أي : يأخذون من عدوٍّ منالاً ، والمعنى : أن يقهروا العدو فيتراجع ويشعر بالخسران ، حينئذ يأخذون الجزاء الخيِّر من الله ، وكل ما حدث أن الظمأ والنصب والمخمصة ووطء موطء يغيظ الكفار والنيل من عدوهم نيلاً . كل واحدة من هذه الأحداث لها جزاء يحدده الحق : { إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ } .

إذن : فالذين رغبوا عن رسول الله بأنفسهم ولم يخرجوا للغزوة قد خسروا كثيراً؛ خسروا ما كتبه الحق سبحانه قابله مَنْ خرجوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويُنهي الحق سبحانه الآية : { إِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين } فهؤلاء الذين أحسنوا لا يضيع الله أجرهم أبداً .

ثم يأتي بأحداث أخرى غير الظمأ والنصب والمخمصة ووطء الموطئ الذي يغيظ الكفار ، والنَّيْل من عدو الله نيلاً ، فيقول سبحانه : { وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ . . . }

وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (121)

كل شيء – إذن – محسوب ، فحتى هؤلاء الذين أنفقوا ، فالله سبحانه يعلم ماذا أنفقوا وسيجازيهم عليه ، وهؤلاء الذين ساروا الطريق الطويل وقطعوا الوديان ليلحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته ، فالله سبحانه يكتب لهم الخير . وبعد ذلك تدفق المسلمون على تنفيذ أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى كادت المدينة تفرغ من المسلمين؛ ليلحقوا بالسرايا التي يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنشر الدعوة .

وجاء قول الحق : { وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ . . . }

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122)

هذه الآية جاءت عقب آيات المتخلفين عن الغزو مع رسول الله ، وجاءت بعد أن بيّن الله سبحانه مزايا المجاهدين وما يثيبهم الله به جزاء هذا الجهاد في قوله سبحانه : { مَا كَانَ لأَهْلِ المدينة وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ الأعراب أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ الله وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذلك بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكفار وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين * وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [التوبة : 120-121]

كانت تلك الحيثيات التي ترغّب الناس في الجهاد ترغيباً يخرجهم عما ألفوا من العيش في أوطانهم وبين أهليهم وأموالهم؛ لأن الثمن الذي يتلقونه مقابل ذلك ثمن كبير ، ثم جاءت هذه الآية .

وحينما استقبل العلماء هذه الآية قالوا : إنها تتمة لآيات الجهاد ، وما دام الله قد رغَّب في الجهاد هذا الترغيب ، فإن الناس أقسموا بعده ألا يتركوا غزوة من الغزوات ولا سرية من السرايا إلا ذهبوا إليها ، فنشأ عن ذلك أن المدينة كادت تخلو على رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستقبل وحي الله .

واستقبال وحي الله يقتضي وجود سامعين ليبلغوه ، فلما انصرف الناس إلى مسألة الجهاد أراد الله أن يعدل هذه الموجة من الرغبة في الجهاد ، فبيّن أن الإسلام مُنزَّل من الله على رسوله ليبلغه للناس؛ لأن دين الله يحتاج إلى أمرين : أمر يحمله إلى الناس ، وأمر يثبت صدقه في الناس ، وحين يرى الناس إنساناً يضحى بنفسه ويدخل معركة ، وآخر يضحي بماله ، حينئذ يعلم الناس أن من يفعل ذلك لا بد أنه متيقن تمام التيقن من العقيدة التي يبذل في سبيلها الغالي والرخيص .

لكن يبقى أمر آخر ، هو ضرورة وجود من يحملون العلم بالإسلام ، فإذا كان المناضلون المضحّون بالنفس ، والمنفقون المضحّون بالمال هم دليل صدق الإيمان ، فهذا لا يعني الاستغناء عن هؤلاء الذين عليهم أن يسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يوحي به الله .

إذن : فهناك منهج من الله ، وهناك استقبال لهذا المنهج من رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً ، ومن السامعين لرسول الله ثانياً؛ ليسيحوا به في البلاد ، سياحة إعلام بدين الله لنشر الإسلام ، وهكذا كانت الإقامة مع رسول الله هي استقبال لذلك الإعلام ، وإلا فماذا يُعْلِمون؟

إذن : فلا بد أن يحافظ الملسمون على أمرين : أمر بقاء الاستقبال من السماء ، وأمر الإعلام بما استقبلوه إلى البلاد . فإن كنتم قد انصرفتم إلى الجهاد في سبيل الله فقد حقّقتم أمراً واحداً ، ولكنكم لم تحققوا الأمر الآخر وهو أن تظلوا؛ لتستقبلوا من رسول الله .

فأراد الله سبحانه أن يقسم الأمرين بين مجاهدين يجاهدون للإعلام ، وباقين مع رسول الله ليستقبلوا إرسال السماء لهذه الأرض ، فقال : { وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً } .

وساعة تسمع « كَانَ » منفيةً فاعلم أنها جحود لهذه المسألة ، أي : ما كان يصح أن ينفر المسلمون كافة ، أي : جميعاً ، بدون أن يبقى منهم أحد .

و { كَآفَّةً } مأخوذة من كف الشيء ، وأنت تسمع خائط الثياب يقول : « أريد أن أكفّف الثوب » معنى هذا أن الخائط حين يقص القماش ، فهناك بعض من الخيوط تخرج منه؛ فيكففها حتى لا يتفكك نسيج الثوب ، إذن : فمعنى كلمة { كَآفَّةً } : جميعاً .

ولنا أن نتساءل : لماذا لا ينفر المسلمون إلى الجهاد جميعاً ، أليس الجهاد إعلاماً بمنهج الله؟

نقول : نعم هو إعلام وسياحة بمنهج الله في الأرض ، ولكن الذي يسيح للإعلام بمنهج الله لا بد أن تكون عنده حصيلة يُعْلم بها ، وهذه الحصيلة كانت تأتي في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من منهج السماء حين ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن : فلا بد من أناس يسمعون وحتى السماء ثم يعلمون به ويرسلونه لأهل الأرض جميعاً ، ولو انصرف كل هؤلاء المؤمنين إلى الجهاد لما تحقق أمر حمل الدعوة للإسلام؛ لذلك قال الحق : { وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً } وفي هذا نفي أمر فيه انبغاء أي : لهم قدرة عليه ، ويستطيعون تنفيذ ما يطلبه رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم .

ونحن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نشأ في أمة عربية لها فصاحة وبلاغة ، أمة بيان وأداء قويّ يسحر ، وكان في هذه الأمة كثيرون يتمتعون بموهبة الشعر والقول ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشتهر بهذا ، وحاول بعضهم أن يقلل من فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إنها فصاحة دون من خطب ، ودون من قال ، ودون من شعر ، فجاء الرد عليهم من الحق : { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ . . . } [يس : 69]

أي : أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يستطيع أن يتفوق في ذلك ، لكن الحق سبحانه لم يُعلِّمه الشعر؛ لأنه لا ينبغي له أن يتعلَّمه ، لماذا؟ لأن العرب يعلمون أن أعذب الشعر أكذبه ، وما دام أعذبه أكذبه ، فالحق سبحانه لا يريد أن يعلم الناس أن محمداً صلى الله عليه وسلم مُرْتاض على صناعة البيان أساليب الأدب ، وبعد ذلك يُفاجئ الدنيا بالبيان الأعلى في القرآن ، ويعلن صلى الله عليه وسلم أن هذا البيان ليس من عنده .

وقد عاش الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم مدة طويلة ، ولم يسمعوا منه شعراً ، فكل ما جاء به بلاغاً عن الله لا يُنسب لمحمد ، ولكنه منسوب إلى رب محمد .

وقوله الحق : { وَمَا يَنبَغِي لَهُ } [يس : 69]

أي : لا يصح أن يكون الأمر ، رغم استعداد محمد صلى الله عليه وسلم ذلك ، وكان من

الممكن أن يعلِّمه ربه الشعر وفنون القول؛ ولذلك حينما قال أناس : إن القرآن من عند محمد ، جاء القول الحق مبلِّغاً محمداً : { فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [يونس : 16]

وقد عاش بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين عاماً ولم يقل قصيدة أو مقالة .

ومن الذي يستطيع أن يؤخر عبقريته إلى الأربعين؟ نحن نعلم أن ميعاد بَدْء العبقرية إنما يظهر من قبل العشرين ، أي : في العقد الثاني من العمر ، ولا أحد يؤخر عبقريته .

إذن : فرسول الله صلى الله عليه وسلم حينما نزل عليه القرآن بالترغيب في الجهاد كادت المدينة تخلو من المسلمين؛ فجاء قوله الحق :

{ وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رجعوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } [التوبة : 122]

وفي هذا القول الكريم محافظة على أمرين؛ أمر استقبال وحي الله ، وأمر الإعلام به ، وبذلك يتنوع الجهاد ، طائفة تستقبل ، وطائفة تعلِّم وترسل؛ لأنهم لو تركوا الرسول صلى الله عليه وسلم جميعاً ، فكيف يصل الوحي من الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المؤمنين؟ ولو أنهم جلسوا جميعاً في المدينة فمن الذي يسيح في الأرض معلِّماً الناس؟ أما إذا بقي الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه ، في فترة لا قتال فيها ، فهذا أمر مختلف؛ لأنها ستكون فترة استقبال فقط .

وكذلك إن خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القتال فعلى المؤمنين القادرين على القتال أن يصحبوه؛ لأن الرسول القادر على استقبال الوحي من الله موجود معهم ، وكذلك الإعلام بالرسالة موجود .

إذن : فالمشكلة كانت في حالة عدم وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الخارجين للجهاد ، فإذا ما خرج المقاتلون للجهاد ، وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، فعليهم أن ينقسموا قسمين : قسماً يبقى مع رسول الله ليتعلم منهج الله ، وقسماً يخرج إلى القتال .

حين كان الرسول يخرج إلى اقلتال فالمهمة تسمى غزوة ، وإذا لم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسل جماعة للقتال سُمِّيت العملية ب « السَّرِية » .

ولم يخرج عن التسمية بالسرية إلا عملية واحدة سُمِّيت غزوة ولم يخرج فيها رسول الله ، وكان المفروض أن تُسمى سرية ولكنها سميت غزوة .

وقد خرجت المهمة عن اصطلاح السرية إلى اصطلاح الغزوة ، رغم أن رسول الله لم يحضرها؛ لأن المعركة حدث فيها أشياء كالتي تحدث في الغزوات ، فقد كانت معركة حاسمة وقُتل فيها عدد من المسلمين ، وحمل الراية مقاتل واستشهد فحملها غيره وقتل ، فحملها ثالث ، وكانت المعركة حامية الوطيس فقالوا : لا يمكن أن نسمي تلك المعركة ب « السَّرية » بل هي غزوة؛ لأن فيها عنفاً شديداً .

لم يلحظوا شيئاً واحداً وهو أن التسمية بالغزوة انطبقت تمام الانطباق على مؤتة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في المدينة والمسلمون خارجون للغزو وأرسل إلى القوات : إن مات فلان في القتال فيليه فلان ، وإن مات فلان ففلان يخلفه ، أي : أنه صلى الله عليه وسلم قد سلسل أمور الغزوة قبل أن تبدأ .

وهي الحملة القتالية الوحيدة التي خرجت بهذه التعليمات ، من بين مثيلاتها ، من الحملات المحددة التي لم يخرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المقاتلين ، وكأنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم مُقدّماً بمن سيموت من هؤلاء الخارجين إلى القتال .

ثم وصلت الحملة إلى موقعها فسمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم؛ قال : أخذ الراية فلان فقُتل ، ثم أخذها بعده فلان فقُتِل . ثم قال : وأخذها بعده فلان ، وكان صلى الله عليه وسلم يقصّ المعركة وهو في المدينة فقالوا : لم يقل ذلك إلا لأنه شهد .

وحينما عاد المقاتلون عرف الصحابة منهم أن الأمر قد دار كما رواه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المدينة ، وقد حدث مطابقاً غاية التطابق ، فقالوا : شهدها رسول الله؛ وما دام قد شهدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي غزوة .

ونعود إلى الآية التي يقول فيها الحق :

{ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين . . . } [التوبة : 122]

وساعة تسمع كلمة « لولا » فلك أن تعرف أن في اللغة ألفاظاً قريبة من بعضها ، ف « لو » و « لولا » و « لوما » و « هلاَّ » ، هي – إذن – ألفاظ واردة في اللغة ، وإذا سمعت كلمة « لو » فهذا يعني أن هناك حكماً بامتناع شيئين . شيء امتنع لامتناع شيء ، مثل قولك : « لو كان عندك زيد لجئتك » وهنا يمتنع مجيئك لامتناع مجيء زيد ، فكلمة « لو » حرف امتناع لامتناع ، وتقول : لو جئتني في بيتي لأكرمتك . إذن : فأنا لم أكرمك لأنك لم تأت .

وتقول : « لولا زيد عندك لجئتك » أي : أنه قد امتنع مجيئي لك لوجود زيد . إذن : ف « لولا » حرف امتناع لوجود . ونلحظ أن « لولا » هنا جاء بعدها اسم هو « زيد » ، فماذا إن جاء بعدها فعل ، مثل قولك : « لولا فعلت كذا »؟ هنا يكون في القول حضٌّ على الفعل ، مثل قوله الحق : { لولا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المؤمنون والمؤمنات بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً . . . } [النور : 12]

ومثل قوله : { لَّوْلاَ جَآءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ . . . } [النور : 13]

ومثلها أيضاً « لوما » مثل قوله الحق :

{ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بالملائكة إِن كُنتَ مِنَ الصادقين } [الحجر : 7]

وأيضاً قولك : « هَلَّ » . فهي أيضاً تحضيض مثل قولنا : « هلا ذاكرت دروسك »؟ وأنت بذلك تستفهم ب (هل) ، وجئت بالمد لتصبح (هلاَّ) ؛ لتحثه على المذاكرة . أو قولك : «

هلا أكرمت فلاناً؟ » وفي هذا حَثٌّ على أن تكرم فلاناً .

والأسلوب هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يجمع المؤمنين ويقول لهم : { وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً } ثم يأتي الحث على أن ينقسموا إلى قسمين في قوله : { فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ } ، والقسمان يذهب أحدهما للإعلام وللجهاد . والقسم الثاني يظل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستقبل منهج السماء .

وقوله الحق : { فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ } فيه كلمة { نَفَرَ } وهي من النفور . لكنها استعملت دائماً في مسألة الخروج للحرب ، مثل قول الحق : { يأيها الذين آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفروا فِي سَبِيلِ الله اثاقلتم إِلَى الأرض أَرَضِيتُمْ بالحياوة الدنيا مِنَ الآخرة فَمَا مَتَاعُ الحياوة الدنيا فِي الآخرة إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُواْ . . . } [التوبة : 38-39]

ولماذا يجيء الحق بالنفرة في الجهاد؟ نقول : لأن الذي يعوق الإنسان عن الجهاد حبه لدَعَته ، ولراحته ، ولسعادته بمكانه ، وبأهله ، وبماله ، فإذا ما خرج للقتال شَق ذلك على نفسه ، ولذلك يقول الحق : {كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ . . . } [البقرة : 216]

وفي ذكر أمر الكُرْه إنصاف لهم ، فصحيح أن القتال أمر صعب ويكرهه الإنسان ، لكن الحق قد كتبه ، والمسلم إذا استحضر الجزاء عليه فهو يحتقر ما يتركه؛ لأنه قليل بالنسبة لعطاء الله؛ لذلك ينفر المؤمن الحق من الذي يملكه ، ويذهب للثواب الأعلى ، وهذا هو معنى التحديد في أنهم سمّوا الجهاد نفرة ، فحين يقارن المؤمن بين حصيلة ما يأخذه من الجهاد وما يمسكه عن الجهاد لتساءل : ما الذي يجعلني أتمسك بالأقل ما دام هناك عطاء أكثر؟

فلما جاءت { فَلَوْلاَ نَفَرَ } فهموا أن هذه الآية من تتمة الكلام عن الجهاد ، ولتبقى طائفة من المؤمنين؛ لتسمع من رسول الله الوحي ، وقد يتساءل المسلم حين يقرأ الآية ويجد قوله الحق : { فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين } ، هنا يقول المسلم لنفسه : وهل تنفر الطائفة التي تتفقه في الدين ، إنها الفرقة الباقية والمستقرة مع رسول الله في المدينة؟

ونجيب : إن قول الحق : { وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ } نجد فيه كلمة { فِرْقَةٍ } وهي الجماعة ، والجماعة إنما تنقسم إلى طوائف . مثلما نسمي في الجيوش « الفرقة الأولى » و « الفرقة الثانية » و « الفرقة الثالثة » ، ثم تنقسم الفرقة الواحدة إلى : « جماعة الاستطلاع » و « جماعة التموين » و « الشئون المعنوية » ، ونجد كلمة { طَآئِفَةٌ } وهي تعني « بعض الكثرة » .

وما دام الحق قد قال : { فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ } فهذا يعني أنه سبحانه قسمهم إلى طائفتين ، إحداهما تنفر ، والأخرى تبقى لتتفقه في الدين . إذن : فكأن أسلوب القرآن أسلوب أدائي كل ينفر لمهمته .

{ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ } يبين أن طائفة منهم تكون قتالية والأخرى إعلامية مهمتها { لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رجعوا إِلَيْهِمْ } فمن يجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستمع إليه ، فهو يجهز للمقاتل حيثيات ما يجاهد على مقتضاه ، وحين يرجع المقاتلون يُبلِّغهم من جلس مع الرسول ما نزل عليه صلى الله عليه وسلم من وحي ، ويتناوب المسلمون الجلوس مع الرسول في المدينة ، والقتال ، وكل طائفة تؤدي مهمتها .

وهناك من العلماء من رأي رأياً آخر ، وأخذ المسألة كلها مكتملة على بعضها ، وقال : إن من بقي مع رسول الله له لون آخر من المجاهدة ، ولأنه يأخذ من الرسول صلى الله عليه وسلم علْماً جديداً ، يتبادله مع المقاتلين في ساحة القتال بعد أن يعودوا ، فالمقاتلون في ساحة الجهاد يعودون بما يؤكد نصرة الله للقلة على الكثرة ، وإمداد الله سبحانه للمؤمنين بالملائكة ، وتهدم العدو ، والمعجزات التي رأوها من رسول الله صلى الله عليه وسلم كنبوع الماء من بين أصابعه في حال قلة المياه عند العطش .

ثم إنهم يسمعون من المجاهدين الجالسين لتلقي العلم أخبار الوحي والفقه ، وهكذا يتكافأ المؤمنون في المهامن وكأنهم البنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً .

وما تقدم فهو فهم للآية إذا كانت خاصة بالجهاد ، فماذا إذا كان للآية موضوع آخر غير الجهاد؟ نقول : إن الجهاد إعلام بمنهج الله في الأرض ، والإعلام بمنهج الله في الأرض يقتضي المنهج المعلوم من السماء الذي يوضح مصير المجاهدين ، ومصير المتخلفين . وهو هنا سبحانه يوضح أمر استقبال ما نجاهد من أجله .

{ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ } أي : يذهب بعض المسلمين إلى البلاد التي حول المدينة؛ ليقولوا للناس حقيقة الإسلام ، وأيضاً أن يأتي آخرون من البلاد الأخرى لِيَعْلَمُوا أمر الدين ، ويعلموه لأهاليهم .

ويكون قول الحق : { فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ } مقصود به هؤلاء الذين يأتون من الأماكن البعيدة عن المدينة؛ليجلسوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسمعوا ، ويتفقهوا في الدين؛ ليرجعوا إلى مجتمعاتهم ، ويعلموهم أمور الإيمان .

إذن : فالآية إما أن تكون من تتمة آيات الجهاد ، وإما أن تكون أمراً مستقلاً للذين يبعد بهم المكان عن منبع المنهج ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو صلى الله عليه وسلم يعلِّم من يأتون إليه من أي مجتمع؛ ليرجعوا بعد ذلك لقومهم ، ويبلغوهم مطلوبات المنهج ، وهذه مسألة بعيدة عن القتال .

إذن : تكون النفرة للتفقه في الدين على أي معنى ، ليس هناك فرق بين الطائفة الباقية التي تتفقه؛ لتعلِّم الطائفة التي تجاهد ، أو الطائفة التي تجاهد تتفقه بالمعجزات وبالأحداث التي حدثت أثناء قتالهم وتعلمها للطائفة التي لم تخرج للقتال .

أو أن المعنى هو الأمر الثاني الذي لا قتال فيه ، بل يتناول أمر استقبال الرسول صلى الله عليه وسلم لطائفة من كل بلد ليسمعوا منه صلى الله عليه وسلم ، وقد سماها الحق « نفرة »؛ لأنها جهاد في البحث في المنهج وتعلمه ، وهي نفرة النفرة؛ لأن النفرة للجهاد بالقتال تتطلب فهماً لحيثيات الدفاع عن هذا المنهج المنزَّل من الله .

وقوله الحق : { فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ } علمنا منه أن الفرقة هي الجماعة ، والجماعة إما أن تنقسم إلى أفراد وإما إلى طوائف ، والفرقة أقلها ثلاثة؛ لأنها جمع . وحينما يذهب اثنان من هذه الفرقة للتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعودان للبلاغ عنه صلى الله عليه وسلم نكون أمام خبر من شاهدين اثنين بأن النبي قال كذا وأبلغ بكذا ، وكذلك قد يصح أن يكون المبلِّغ عن الرسول شاهداً واحداً ، واختلف العلماء المسلمون فيما بينهم ، هل يأخذون الخبر عن واحد فقط مبلِّغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا بد من الأخذ بالخبر من شاهدين اثنين؟

وقد جاءت الآية صريحة في أنه { فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ } والفرقة أقلها ثلاثة ، والطائفة إما أن تكون اثنين وإما أن تكون شخصاً واحداً يرجع إلى قومه؛ ليفقههم في الدين ، ويؤدي البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتحفَّظ البعض على ذلك بأن قالوا : إن الذي نفر ليس فرداً من الفرقة ، بل طائفة من الفرقة ، ومفردات الفرقة طوائف ولا واحد ، وكلمة طائفة مقصود بها الجماعة .

والنفرة لها علة محددة يذكرها الحق : { لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين } فالتفقُّه إذن هو سبب النفرة ، مثلما نبعث بعثة في أي بلد متقدم؛ لنأخذ بعلوم الحضارة ، فإن خرج واحد عن حدود البعثة؛ ليلعب ، ويلهو ، فهو لم يحقق النفرة . لا بد إذن من ان يستوعب كل واحد في البعثة أنه قد جاء للتفقه .

والفقه في اللغة : هو الفهم ، ويقال عن أي أمر تفهمه : فقهتُ الأمر الفلاني . فإن فهمت في الهندسة فهذا فقه ، وإن فهمت في العلوم فهذا فقه ، ولكن المعنى الذي غلب هو الفقه لأحكام الله؛ لأن هذا الأمر هو أهم أمور الحياة ، فالفقيه في الدين هو من يبيّن للناس حدود المنهج ب « افعل » و « لا تفعل » .

إذن : الفقه مطلقاً هو الفهم ، لكنه أصبح مصطلحاً يعني فهم أحكام الله؛ لأنه هو الذي يحدد الصواب والخطأ . ولا يقال : « الفقيه » إلا لمن فَقُه . وهناك فرق بين فَقه وفَقُه . فَقُهَ في دين الله ، أي : أصبح الفقه عنده ملكه ، وساعة تسأله في أي موضوع لا يتردد ، بل يجيب؛ لأن الفقه صار ملكه عنده ، والملكة : الصفة التي ترسخ في النفس من مزاولة أي عمل؛ فيسهل أداء هذا العمل .

وكذلك الفقه . وهكذا نعرف أن معنى فَقِهَ : « فهم شيئاً » . أما فَقُهَ فمعناها : صار الفقه عند مَلَكَة .

وقوله الحق : { لِّيَتَفَقَّهُواْ } أي : ليعلموا أحكام الله ، ويصير هذا العلم : من بعد ذلك مَلَكَة عندهم .

ولكنْ ماذا إن نفروا لشيء آخر مثلما ينفر واحد من البدو ليسأل جماعته : إلى أين تذهبون؟ فيجيبون : نذهب إلى رسول الله لنسمع منه ، فيذهب معهم . لكنه لا يسمع بل يذهب هنا أو هناك ، ولا يجلس لتفقُّه العلم ، على الرغم من أن علّة نفوره مع غيره هي التفقّه في الدين؛ وليعلم حقائق هذا الدين؛ لينذر به قومه حين يعود إليهم ، فالفقيه لا يطلب جاهاً ، أو رئاسة ، أو وظيفة ، بل هو يبين للناس متطلبات الحركة على هذا المنهج الحق ، ولينذرهم { لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } أي : يتجنَّبون ما يضرُّهم .

وحين ندقق في هذا الأمر نجده عدة مراحل : { فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ } هذه هي المرحلة الأولى ، ثم { لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين } هذه هي المرحلة الثانية وهي التفقه ، أما الثالثة { وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رجعوا إِلَيْهِمْ } ، ومن تفقه لغير هذا؛ ليشار إليه بالبنان مثلا؛ نقول له : أنت من الذين قال الله فيهم : { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياوة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً } [الكهف : 103-104]

إذن : فالتفقه يكون للدعوة تبشيراً وإنذاراً؛ حتى يتجنب القوم ما يضرهم .

ويقول سبحانه بعد ذلك : { ياأيها الذين آمَنُواْ قَاتِلُواْ . . . }

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123)

ينقلنا الحق هنا إلى الحديث عن الجهاد مرة أخرى . ولنا أن نتساءل : لماذا – إذن – جاء الحديث عن النفرة والفقه كفاصل بين حديث متصل عن الجهاد؟ أجيب : شاء سبحانه هنا أن يعلمنا أن كل من ينفر؛ لتعلُّم الفقه ، وليعلِّم غيره؛ هذا المسلم في حاجة إلى مرحلة التعلُّم ، ومعرفة الأسباب التي يقاتل من أجلها المسلمون وحيثيات الجهاد في سبيل الله .

وقد قسَّم الحق سبحانه الناس في آيات الجهاد إلى قسمين : فرقة تنفر ، وطائفة منها تبقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا استوى الأمر ، فرقة تجاهد ، وفرقة تَتَعَلم وتعلُّم ، وتبادل الفرقتان الخبرة الإيمانية والقتالية ، تصبح الملكات الإيمانية متساندة غير متعاندة ، ومن بعد ذلك يتجهون إلى الكفار .

{ ياأيها الذين آمَنُواْ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ } وهذا يعني أن هناك قوماً قريبين منهم ما زالوا كافرين ، وهناك قوم أبعد منهم ، والحق قد قال : { وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً . . . }

[التوبة : 36]

إذن : فهناك أولويات في القتال ، وقتال الكفار القريبين منك تأمين معسكر الإيمان؛ لذلك جاء الأمر بقتال الأقرب؛ لأنه قتال لن يتطلب رواحل ولا مؤونة للسفر البعيد ، كما أن العدو القريب منك أنت أعلم بحال الكفار البعيدين عنك؛ لذلك فأنت تعلم مواطن قوتهم وضعفهم ، وكيفية تحصيناتهم . فإذا تيسر أمر قتال العدو الأقرب كان ذلك طريقاً لمجابهة العدو الأبعد ، بدلاً من أن تواجه العدو البعيد؛ فيتفق مع العدو القريب ، ويصنع الاثنان حولك « كماشة » بلغة الحرب ، فلا بد أن تحمي ظهرك أولاً ، من شر العدو الأقرب .

إذن : فلا تعارض بين محاربة العدو البعيد والعدو القريب . ولا تَعارض بين قوله الحق : { قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ مِّنَ الكفار } وقوله سبحانه : { وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً } ؛ لأن معنى { كَآفَّةً } أي : جميعاً ، ولكن الجماعة لها أولوية . فخذ القريب منك؛ لتضمه إليك ، فإذا كان الخصم معه سيف ومعك سيف ، وبعد ذلك دخلت المعركة فأوقعت سيفه من يده؛ فأخذته؛ فبذلك يصبح معك سيفان وهو لا سيف معه .

ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى للكفار : اعتبروا أيها الكفار ، فأنتم لا ترون الأرض كل يوم وهي تنقص من تحت أقدامكم ، وما ينقص من أرض الكفار يزيد في أرض الإيمان . وما دام الحق قد جاء بكلمة « قتال » فهذه الكلمة تحتاج إلى عزيمة ، وجرأة تُجَرِّيء على القتال ، وصبر عليه ، فقد تجد في مواجهتك من هو أقوى منك أو من هو أشجع منك ، فإن رأى شجاعة منك تفوق شجاعتهن وأحسَّ منك قوة ومثابرة تفوق قوته ومثابرته ، فهذا ينزع من قلبه الأمل في الانتصار عليك؛ ولذلك يقول الحق :

{ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً } والغلظة صفة ، ويقال : غِلْظَة ، وغُلْظَة ، وغَلْظَة ، والمعروف أنها الشدة ، فحين تضرب عدوكَ اضربه بقوة ، وبجرأة ، وبشجاعة .

وحين يحاول عدوك أن يضربك استقبلْ الضربة بتحمُّل ، وهكذا نجد أن الغلظة مطلوبة في حالتين اثنتين؛ في حالة الإرسال منك ، وفي حالة الاستقبال منه ، فلا يكفي أن تضرب عدوك ضربة قوية ، وحين يردُّ لك الضربة تخور وتضعف . إن الحق يطلب منك غلظة تحمِلُ على عدوّك ، وغلظة تتحمَّل من عدوّك .

ولذلك نجد آية آل عمران يقول فيه الحق : { اصبروا . . . } [آل عمران : 200]

ولكن هَبْ أن عدوَّك يصبر أيضاً ، فيأتي الأمر من الحق : { وَصَابِرُواْ . . . } [آل عمران : 200]

أي : حاول أن تغلبه في الصبر . وحذَّر الحقُّ من إلقاء السلاح بعد انتهاء المعركة؛ لأن العدو قد يستنيم المؤمن؛ لذلك جاء الأمر من الحق : { وَرَابِطُواْ . . . } [آل عمران : 200]

أي : استقر أيها المؤمن في الأرض؛ ليعلم العدو أنك تنتظره إن حاول الكرّة من جديد أو حدَّثته نفسه بالقتال مرة أخرى . إذن : فالغلظة تطلب منك أن تهاجم ، وتطلب منك أن تتحمّل ، والتحمُّل يقتضي صبراً ، والتحامل يقتضي شجاعة ، فإذا ما كان في خصمك صبر وشجاعة؛ فعليك أن تصابره أي : تصبر أكثر منه ، وهي مأخوذه في الأصل من « نافس فلان فلاناً . . أي سابقه وحاول أن يسبقه » ، والمنافسة من النفس ، والحق يقول : { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون } [المطففين : 26]

أي : تنافسوا في الخير ، ونحن نعلم أن تركيبة النفس الإنسانية تحتاج إلى شيء مرة أو مرتين في اليوم ، وتحتاج إلى شيء ثالث دائماً . فأنت في الأكل تأكل ثلاث وجبات ، وفي الشراب تحتاج إلى لترين أو أربعة من الماء أو أكثر . أما التنفس فأنت لا تصبر على الانقطاع عنه ، وهو أهم الضروريات لحياة الإنسان .

وقلنا قديماً : إن من رحمة الله سبحانه وتعالى أنه قد يملك إنسان طعامَ إنسان ، وقد يستطيع الإنسان الصبر عن الطعام لأسابيع ، ولا يصبر الإنسان عن انقطاع الماء إلا أياماً تتراوح من ثلاثة إلى عشرة ، حسب كمية المياه التي في جسمه؛ لذلك لم يُمِّلك الحق سبحانه الماء مثلما مَلَّك الطعام ، وأما الهواء فأنت لا تصبر على افتقاده للحظات؛ ولذلك لم يملِّك الله الهواء لأحد أبداً ، وكأنه سبحانه علم أن عباده غير مأمونين على بعضهم البعض ، ولذلك سُمّي استنشاق الهواء وزفيره بالتنفس ، وهو من النفس ، وهو سبب وجود النفْس وهي مزيج من المادة والروح ، والأساس هو نَفَس الهواء الذي يضمن استمرار النفس في الحياة .

وإذا ما نافست العدو فأنت تصطاد الشيء النفيس ، وهو إعلاء منهج الله . وحين تصابر أهل الباطل ، فكل واحد من أهل الباطل قد يصابر لحاجة لمدة قصيرة ثم يتراجع؛ لأن الباطل زهوق ، وهنا يقول سبحانه : { وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً } يفيد أن الغلظة ليست صفة دائمة ، بل تعني أنك تَطَلّبَ الأمُر فيجب أن تتوافر فيك ، وكذلك قلنا : إن الله لم يطبع المؤمن على الغلظة ، ولم يطبعه على الشدة ، ولم يطبعه على العزة ، بل قال :

{ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . . } [الفتح : 29]

وقال : { أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين . . . } [المائدة : 54]

ويُنهي الحق الآية :

{ واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين } . إياك أن تفهم أنك تواجه أعداءك من الكفار بعددك وعُدَّتك ، ولكن العدد والعدة أمران مطلوبان؛ لتدخل المعركة ، وعندك شيء من الاطمئنان . ومثال هذا من يسلك مفاوز أو صحاري مقفرة أو طريقاً موحشاً ، ويحتمل أن يصادف قُطَّاع طريق ، نجده يستعد بحمل سلاح؛ فهو يعطيه شيئاً من الاطمئنان فقط ، وهكذا الحال مع العدد والعدة .

أما النصر فهو من المدد الرَّبَّاني من الحق سبحانه وتعالى . وما دام الله مع المتقين ، ولله معيَّة مع المتقين فلا بد أن يمدهم بمدده؛ لذلك جاء الحق هنا بقوله : { أَنَّ الله مَعَ المتقين } لننتبه إلى أن الداخل في الحق هو من سيسلك سلوكاً غليظاً مع الأعداء ، وقد يسلك بالغلظة طمعاً في المغنم ، فيدخل على الكافرة بالقسوة ، وقد يكون قلب هذا الكافر مستعداً للإيمان ، فيقول : أسلمت واستسلمت ، لكن من دخل عليه تعجبه مطية هذا الكافر ، ويعتبرها مغنماً .

لذلك يأتي التحذير في قول الحق سبحانه : { أَنَّ الله مَعَ المتقين } فإن سلَّم لك واستسلم؛ فاستأسره ، وإياك أن تؤذيه أو تأخذ معداته على أنها مغنم ، فأنت لم تذهب للقتال من أجل الغنائم ، أو لتكسب مكانة في مجتمعك كمقاتل ، بل أنت تقاتل حين يكون القتال مطلوباً ، وتسلك بالخلق الإيماني اللائق في إطار أنك من المتقين لله ، وتحارب لتكون كلمة الله هي العليا وهنا تكون معيه الله لك { أَنَّ الله مَعَ المتقين } .

إذن : فالغلظة لا تعني أنها طبع أصبح فيك ، ولكن عدوك يجد فيك غلظة إن احتاج الأمر إلى غلظة . فإن لم يحتج الأمر إلى غلظة؛ فلا بد أن يوجد في طبعك اللين والموادعة .

ولذلك يقولون : الرجل كل الرجل هو من كانت له في الحرب شجاعة ، وفي السلم وداعة ، وخيركم من كان في الجيش كميَّ وفي البيت صبيّاً ، فلا يصطحب غلظته مع العدو إلى البيت والزوجة والأبناء؛ لأن ذلك وضع للطاقة في غير مجالها .

هكذا نفهم قوله الحق :

{ ياأيها الذين آمَنُواْ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ مِّنَ الكفار وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين } [التوبة : 123]

أي : كونوا في حربكم غلاظاً بما يناسب الموقف؛ لأن الحرب تتطلب القسوة والشدة ، ولكن إياك أن تستعمل هذه الأمور لصالحك ، ولكن استعملها لله؛ لتضمن أن تكون في معية الله

ويقول سبحانه بعد ذلك : { وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ . . . }

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124)

قوله الحق : { وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ } يعني : إذا نزلت ، ونعلم أن هناك « نَزَل » و « أَنْزلَ » و « نَزَّل » ف « أنَزَل » للتعدية ، فالقرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا . ثم نزّله الحق نجوماً . فالتنزيل معناه : موالاة النزول لأبعاض القرآن ، فالقرآن قد أنزل كله ، ثم بعد ذلك نزله الحق ، ونزل به جبريل – عليه السلام – على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد جمعت الآية تنزيل الحق للقرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم نزول جبريل – عليه السلام – بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحق سبحانه يقول : { وبالحق أَنْزَلْنَاهُ

وبالحق نَزَلَ . . . } [الإسراء : 105]
وفي آية أخرى يقول سبحانه : { نَزَلَ بِهِ الروح الأمين } [الشعراء : 193]
وهنا يقول الحق : { وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ } والسورة هي الطائفة من القرآن المسورة بسور خاص؛ أوله مثلاً : { بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ } وآخره تأتي بعده سورة أخرى تبدأ بقوله الحق : { بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ } ومأخوذة من السور الذي يحدد المكان . وهل المقصود بقوله الحق هنا نزول سورة كاملة من القرآن أم نزول بعض من القرآن؟ إن المقصود هو نزول بعض من القرآن . وتتابع الآية : { فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً } والمقصود بهذا المنافقون الذين رجعوا عن الإيمان . ونحن نعلم أن القرآن حق وأنه من عند الله ، وله أسر وفاعلية إشراقية في صفاء النفس ، وقد سمعه الكفار من قبل ، وشهدوا له ، أما المؤمنون فحين سمعوه فقد أسرهم .
وهذا الأمر بسبب الاستعداد لتلقيه؛ لأن المسألة في كل الأحداث ليست من الفاعل وحده ، ولكن من الفاعل والقابل للفعل – ولله المثل الأعلى – أنت تأتي بمطرقة مثلاً ، وتطرق قطعة حديد فترق وتزيد مساحتها ، أما إن طرقت بالمطرقة قطعة صلب أقوى من المطرقة؛ فلن تؤثر فيها .
إذن : فالطرق شيء وقابلية الطرق شيء آخر ، وهكذا لا بد للفاعل من قابل ، والمطلوب من القابل للشيء أن يستقبله بغير خصومة له نابعة من قلبه . فإذا أراد أحد أن يسمع القرآن فعليه أن يخرج ما في قلبه مما هو ضد القرآن ، ويضع القرآن وضده خارج قلبه وليسمع هذا وهذا وما ينفذ إلى قلبه بعد هذا فليصدقه . لكن أن يستقبل القرآن بما في قلبه من كراهية القرآن؛ فلن يتأثر به ، مثلما قابل بعض المنافقين القرآن وقالوا : لم نتأثر به .
وسبب هذا أن هناك ما يسمى بالحيز ، وعدم التداخل في الحيز ، فالقلب حيز لا يسع الشيء ونقيضه ، فلا تملأ قلبك ببغضك للدين ، ثم تقول : لقد سمعت القرآن ولم يؤثر فيَّ . هنا نقول لك : أخرج من قلبك ما يكون ضد القرآن ، واجعل القرآن أيضاً خارج قلبك ، ثم انظر في الاثنين لترى ما الذي يستريح له قلبك ، لكن أن تكون مشحوناً ضد القرآن ثم تقول : إن القرآن لم يؤثر فيك ، فهذا يعني أنك لم تنتبه إلى الفرق بين الفاعل والقابل ، ولم تنتبه إلى ما يسمى بالحيز ، ومدى قدرته على الاستيعاب .

فالزجاجة ذات الفوهة الضيقة لا تستقبل بداخلها الماء إن أغرقتها فيه؛ لأن ضيق الفوهة لا يساعد الهواء الذي بداخلها على الخروج ، ولا يساعد الماء على الدخول؛ لأن الماء لن يدخل إلا إذا خرج الهواء؛ لذلك لا بد أن تكون فوهة الزجاجة واسعة تسمح بخروج الهواء ودخول الماء ، وعند ذلك سترى فقاقيع الهواء وهي تعلو الفوهة . وإذا كان الأمر كذلك في الحسيات ، فما بالك في الأمور المعنوية وهي مثل الأمور الحسية .

إذن : فأخْرج ما يناقض الحق من قَلْبك ، واجعل الباطل والحق خارجاً ، ثم استقبل الاثنين . لا يمكن لك في مثل هذه الحالة إلا أن تستقبل الحق . ويصف سبحانه المصرين على الكفر : { وَطَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ . . . } [التوبة : 93]

أي : أن ما هو خارج هذه القلوب لا يدخل إليها ، وما في داخلها لا يخرج منها .

إذن : ما دام الحق قد ختم على قلوبهم؛ فلن تفتح هذه القلوب للإيمان ، وستظل محتفظة بالكفر . فإذا كان من هؤلاء الكافرين أو المنافقين من يسمع القرآن ، ولا يأسره بيانه؛ فذلك بسبب عجزهم عن النظر إلى ما فيه من معان وقيم؛ لأن الإنسان حينما يسمع القرآن ، وتكون نفسه صافية ليس فيها ما يشوش على ما في القرآن من جاذبية وبيان يؤثر فيه وتطمئن إليه نفسه .

ولذلك حين قرأ عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – القرآن ، وكان من قبل ذلك شديداً على الإسلام ، ثم ذهب إلى أخته؛ ليتحقق من أمر إسلامها ، وحين سال منها الدم رقت عاطفته لها ، ثم قرأ القرآن فاستقر في قلبه .

إذن : لا بد أن تخرج ما في ذهنك أولاً؛ لتستقبل القرآن . فإذا ما أنزلت سورة يستقبلها المؤمن بصفاء . أما الكافرون والمنافقون ، فمنهم من يقول : { أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً } وتعطينا الآية معنى أننا أمام فريقين : واحد يقرأ ، والثاني يسمع . ونفهم من سياق الآية أن الذي يتساءل مثل هذا السؤال إنما يوجه لفريقين : أحدهما من ضعاف الإيمان ، أو حديثي الإسلام ، أو المنافقين ، وهؤلاء هم الذين لم يُخْرجوا الكفر أو بعضه من قلوبهم ، وقابلية بعضهم لاستقبال الإيمان لم تتأكد بعد ، ومنهم من قال فيهم الحق : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً . . . } [محمد : 16]

ويقول : { والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . . } [فصلت : 44]

إذن : الفاعل شيء ، والقابل شيء آخر . هم سمعوا القرآن بدليل أن الحق يقول : { وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ } وسياق الآية يوحي لنا أن هناك همساً من بعضهم : { أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً } وهذا الهمس يأتي بلهجة المستهزئ ، وقائل الهمس يعني أن سماعه للقرآن لم يزد شيئاً عنده ، ولم ينقص ، وهو يهمس لمنافق مثله ، أو لضعيف الإيمان { أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً } فيرد الله على القضية النفسية ، ويعلمنا أنه سبحانه قد قسم الناس قسمين : قسم كافر أو منافق ، وهذا القسم يزيده القرآن كفراً ، أما القسم المؤمن؛ فاستقباله للقرآن يزيد من إيمانه .

إذن : الفاعل شيء والقابل مختلف . ووقف العلماء أمام هذه الآية موقفاً فيه اختلاف بينهم { وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً } فقال بعضهم : إن الإيمان ينقص ويزيد ، وقال بعضهم : إن الإيمان لا ينقص ولا يزيد ، وقامت معركة بين علماء الكلام ، ولا تتسرب معركة بين عقلاء إلا إذا كانت جهة الفهم في الأمر الذي يختلفون فيه منفكة ، فمنهم من

يذهب فكره إلى ناحية ، ومنهم من يتجه فكره إلى ناحية أخرى .

فالذين قالوا : إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، فلحظة أن يتألق الإيمان في القلب؛ يستقر فيه ، وهو الإيمان بالله ، وأن لا إله إلا الله ولا معبود سواه ، وأن محمداً رسوله المبلغ عنه؛ هذا الإيمان لا يزيد ولا ينقص . والمثال : هو قول الإمام على كرم الله وجهه : لو انكشف عني الحجاب ما ازدادت يقيناً .

أما العلماء الذين قالوا بأن الإيمان يزيد ولا ينقص ، فقد قصدوا بذلك تطبيق مستلزمات الإيمان من الآيات ، فكل آية تحتاج ممن يصدقها أن يكون مؤمناً بالله أولاً ، ثم ينفذ متطلبات الآية .

وكل المسلمين مؤمنون بالله ، ولكن في جزئيات التطبيق نجد من يطبق عشرين جزئية وآخر يطبق ثلاثين ، أما أصل الإيمان الذي استقبل به الإنسان التكليف وهو التوحيد ، فلا يزيد أو ينقص .

وهؤلاء المنافقون عندما قالوا : { أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً } هل تداولوا ذلك سرّاً أم قالوه علناً؟ لا بد أنهم قالوا ذلك سرّاً وفضحهم الحق سبحانه ، وكان يكفي أن يعلموا أن الله يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بكل ما يكتمونه ، ولكنهم احترفوا اللجاجة؛ لذلك قالوا : { أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً } .

ويرد الحق سبحانه :

{ فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } و « يستبشر » أي : يملأ السرور بشرته ، فترى البريق ، والفرحة ، والانبساط . وكلها من علامات الاستبشار ، ومن يستبشر بآية من آيات الحق فهو الذي يفهم من الآية شيئاً جديداً؛ يدخل على نفسه السرور؛ ولذلك فهو يرتاح لنزول تكليفات إيمانية جديدة ، ليعظم ويزداد ثوابه ، وهو غير ذلك الذي يكره أن ينزل حكم جديدة من الله

هذا هو معنى « يستبشر » .

أما الآخرون فيقول الحق سبحانه عنهم : { وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم . . . }

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125)

والرجس : هو الشيء المستقذر ، وتكون القذارة حسية ، ومرة تكون معنوية . فالميتة مثلاً قذارتها حسية؛ لأنها ماتت ودمها فيها ، والدم – كما نعلم – له مجريان؛ مجرى للدم قبل أن يكرر ، ومجرى آخر للدم بعد أن يكرر ، والدم قبل أن يكرر يمر على الرئة والكلى فتنفيه الرئة والكلى من الأشياء الضارة التي تصل إليه نتيجة تفاعلات أعضاء الجسم المختلفة . وبعد أن تتم تنقية عن طريق الرئتين والكلى يصير دماً صالحاً .

فإذا مات الحيوان بقي فيه دمه الصالح ودمه الفاسد؛ لذلك نحن نذبح الحيوان قبل أن نأكله ، ونضحي بدمه الصالح مع الفاسد؛ حتى لا يصيبنا الدم الفاسد بالأمراض؛ ولذلك تعتبر الميتة

رجساً . والخمر أيضاً نجاسة حسية ورجس . وهناك رجس معنوي ، ولذلك قال الحق : { إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه . . . } [المائدة : 90]
إذن : فهناك رجس حسي ، ورجس معنوي ، ويطلق الرجس على الكفر أيضاً ، ومرة يطلق الرجس على همسات الشيطان ووسوسته .
وفي ذلك يقول الحق : { إِذْ يُغَشِّيكُمُ النعاس أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السمآء مَآءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشيطان . . . } [الأنفال : 11]
وهنا يقول الحق : { وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ } ولأنهم يكفرون بالله وبآياته؛ فهذا يزيدهم رجساً على رجسهم ويصبح كفرهم مركَّباً ، وهكذا نجد البشارة للمؤمنين ، أما الكافرون فلهم النذارة؛ لأن كفرهم يزيد ، ويموتون على ذلك الكفر .
ويقول سبحانه بعد ذلك : { أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي . . . }

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126)

وقوله الحق : { أَوَلاَ يَرَوْنَ } أي : ألا يستشهد المنافقون تاريخهم مع الإسلام ، ويعلمون أنهم يفتنون في كل عام مرة بالمصائب ومرة بالفضيحة ، فتجد رسول الله حين يراهم يخرج بعضهم من بين الصفوف ويقول لهم : « اخرج يا فلان فإنك منافق » . ثم بعد شهور يتكرر الموقف ، وهنا يذكرهم الحق سبحانه بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفيهم كل عام مرة أو مرتين .
الأصل في الفتنة أنها امتحان واختبار ، وهي ليست مذمومة في ذاتها ، لكنها تذم بالنتيجة التي تأتي منها ، فالامتحان – أي امتحان – غير مذموم ، لكن المذموم هو أن يرسب الإنسان في الامتحان . إذن : الابتلاء أو الفتنة في ذاتها ليست مذمومة ، إنما المذموم أن تأتي النتيجة على غير ما تشتهي ، وهم يفتنون حين يرون انتصار المسلمين وغم نفاقهم وكيدهم للمسلمين ، وكان يجب أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا عرقلة سير الإسلام؛ لأنه منتصر بالله . وكان يجب أن يعتبروا ويتوبوا لينالوا خير الإسلام ، فخيره ممدود رغم أنوفهم ، والخسارة لن تكون على الإسلام ، وإنما الخسارة على من يكفر به .
ونحن نعلم أن الإسلام بدأ بين الضعفاء إلى أن سار الأقوياء إليه ، وتلك سنة الله في الكون ، بل إننا نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم في بدء الرسالة كان مطلوباً منه أن يؤمن بأنه رسول . وكما تقول أنت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، كان على النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً أن يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . وسبحانه جل شأنه ، الخالق الأكرم ، آمن بنفسه أولاً ، بدليل قوله سبحانه : { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ . . . } [آل عمران : 18]
فأول شاهد بالألوهية الحقة هو الله ، وقد شهد لنفسه ، ومعنى ذكر شهادته لنفسه لنا أن نؤمن

بأنه سبحانه يزاول قيوميته وطلاقة قدرته بكلمة « كن » وهو عالم أن مخلوقاته تستجيب قطعاً ، وكان لا بد أن يعلمنا أنه آمن أولاً بأنه الأول ، وأنه الإله الحق ، بحيث إذا أمر أي كائن أمراً تسخيرياً فلا بد أن يحدث هذا الأمر ، وسبحانه لا يتهيب أن يأمر؛ لذلك قال لنا : { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ } شهادة الذات للذات ، وشهدت الملائكة شهادة المشهد وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، وحين يشهد محمد صلى الله عليه وسلم أنه رسول الله فهو يؤمن بأنه رسول ، ولو لم يؤمن برسالته لتهيب أن يبلغنا بالرسالة ، وبعد أن آمن صلى الله عليه وسلم أنه رسول من الله جاءه التكليف من الحق : { وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين } [الشعراء : 214]

وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام ، ويبلغ آيات الحق إلى أن جاءت آيات الدفاع عن دين الله ، وقال الحق :

{ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ . . . } [التوبة : 123]

إذن : في البداية كان لا بد أن يؤمن أنه رسول ، وأن يبلغ الدعوة إلى قريش وسائر الجزيرة ، وتعبر دعوته بعد ذلك من الجزيرة إلى الشام ، وتتعدى الرسالة الشام بالإعلام في كل بقاع الأرض ، ولذلك كانت الرمزية في إرسال الكتب : كتاب لفلان وكتاب لفلان؛ ليفهم العالم أن دعوة النبي صلى الله بالإيمان والإسلام دعوة متعدية؛ لأنها خالفت دعوات الرسل عليهم السلام ، فقد كان رسول إنما يعلم أن حدود دعوته هي أمته .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد كانت لرسالته مراحل : آمن بذلك أولاً ، ثم دعا الأقربين ، ثم من بعد ذلك قريش ، ثم أبلغ العرب ، ثم الشام ، وتعدت الدعوة بالكتب إلى جميع الملوك في العالم ، وصارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم مؤتمنة على حمل الدعوة ونشرها في أي مكان ومعها حجتها وهي القرآن .

وشاء الله أن يختم رسول الله الرسالات ، وأرسله بالإسلام الذي يغلب الحضارات ، رغم أنه صلى الله عليه وسلم من أمة أمية لا تعرف شيئاً؛ حتى لا يقال عن الإسلام أنه مجرد وثبة حضارية ، وجاء لهم منهج غلب الحضارات المعاصرة له : فارس والروم في وقت واحد .

إذن : فالمسألة كانت مسألة قبيلة ، يحكمهم واحد منهم هكذا ، دون تمرس بالنظم الاجتماعية ، ولم يعرفوا شيئاً قبل الإسلام ، بل هم أمة متبدية لا شأن لها بالنظم السياسية أو الاقتصادية ، وطن الواحد منهم جمله وخيمته وبضعة أدوات تعينه على الحياة ، وتستقر كل جماعة في أي مكان يظهر به العشب ويوجد به الماء ، وبعد أن تأكل الأغنام والأنعام العشب ، ينتقل العربي مع جماعته إلى مكان آخر ، بعد أن ينظر الواحد منهم إلى السماء؛ ليعرف مسار الغمام وأين ستمطر السحب ، ثم ينساح هؤلاء بالدعوة بعد ذلك ، فلو كان لهم انتماء إلى وطن أو بيت أو مكان لصار الرحيل صعباً عليهم ، لكنهم كانوا متمرسين بالسياحة في الأرض .

والآية التي نحن بصددها تكشف ضعف إيمان البعض ، ونفاق البعض ، فيقول الحق : { أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ } أي : كان لا بد أن يتوبوا أو يتعظوا ويعلموا أن وقوفهم ضد الإسلام لم ولن يحجب الإسلام وأنهم سينسحقون ويضيعون ، فلماذا لا يتذكر كل منهم تفسه ، ويرى مصلحته في الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك : { وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إلى . . . }

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (127)

ومن قبل جاء قول الحق : { وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً . . . } [التوبة : 124]

أي : أن هؤلاء المنافقين يشعرون بالضيق والحصار ، ويخافون أن يتكلموا؛ لأنهم موجودون مع المسلمين ، ولكنهم لا يعدمون وسيلة للتعبير عن كفرهم ، فيغمز الواحد منهم بعينه ، أو يشير إشارة بيده ، فإذا ما كانوا قد تساءلوا من قبل ب { أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً } فقد كان هذا السؤال يتعلق بالتكاليف ، أما في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها فليس فيها تكاليف جديدة .

لقد كانوا يريدون أن يقولوا شيئاً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتكلموا بأفواههم ، فتكلموا بأعينهم ونظراتهم ، فكأن النظر نفسه كان فيه هذه الكلمة : { هَلْ يَرَاكُمْ مِّنْ أَحَدٍ } ، وهذا قد تراه من واحد يسمع خطبة الخطيب ، ولكنه يرى بها أشياء لا تعجبه ، فتجده يعبر بانفاعالات وجهه عن عدم رضاه .

إذن : فهناك نظر ، وهناك كلام ، وهم قد تساءلوا : هل يراكم من أحد؟ زمثلها مثل قولك : ما عندي من مال؟ أي أنك لا تملك بداية ما يقال عنه مال ، والقول الكريم أبلغ بالقطع من أن تقول : هل يراكم أحد .

إن قوله الحق : { هَلْ يَرَاكُمْ مِّنْ أَحَدٍ } دليل على أنهم في خوف من أن يضبطهم أحد ، ومن بعد ذلك تجدهم يتسللون خارج دائرة الاستماع للقرآن أو للرسول؛ لأنهم لا يطيقون الاستمرار في الاستماع؛ لأن منطق الحق يلجم الباطل ، والواحد منهم غير قادر على أن يؤمن بالحق وغير قادر على إعلان الكفر؛ فينسحبون ، وينصرف كل واحد منهم؛ لذلك نجد أن بعضهم قد قال من قبل : { لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ . . . } [فصلت : 26]

وقد قالوا ذلك لأن الكافر أو المنافق قد تأتيه لحظة غفلة عن الباطل ، فيتسلل الإيمان إلى قلبه ، كما أن المؤمن قد تأتيه لحظة غفلة عن الحق ، لكنه يستغفر الله عنها .

وإذا ما أتت للمنافق أو الكافر لحظة غفلة عن كفره أو نفاقه؛ فتأتيه هجمة الإيمان فيخافها ،

فيقول لمن هم مثله : من الأفضل أن نقول لمن معنا لا تسمعوا هذا القرآن . لماذا؟ حتى لا يصادف فترة غفلة عن النفاق ، فإذا صادف فترة غفلة عن النفاق فمن الممكن أن يدخل الإيمان القلب . ولذلك قالوا : { لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن } ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل طلبوا من الأتباع ان يلغوا فيه ، أي : أن يشوشوا عليه : { والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ . . . } [فصلت : 26]

إذن : لا غلبة لهم مطلقاً إلا بعدم الاستماع إلى القرآن ، أو أن يشوشوا عند سماع القرآن؛ حتى لا ينفذ القرآن إلى القلوب .

وهنا يقول الحق سبحانه عن هؤلاء المنافقين :

{ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِّنْ أَحَدٍ } كانوا يقولون ذلك؛ لأنهم كمنافقين سبق لهم إعلان الإسلام ، وكانوا يدعون أنهم متقدمون في تطبيق أحكام الإيمان ، وكانوا يصرون على الوقوف أثناء الصلاة في الصف الأول؛ حتى يدفعوا عن أنفسهم تهمة النفاق ، وكما يقول المثل : يكاد المريب أن يقول خذوني .

وينظر بعضهم إلى بعض متسائلين : { هَلْ يَرَاكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصرفوا } لأنهم لا يطيقون الجلوس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أو إلى المؤمنين . وينهي الحق الآية :

{ صَرَفَ الله قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ } وذلك نتيجة لانصرافهم نفسيّاً إلى النفاق؛ فيساعدهم سبحانه على ذلك ، فما داموا لا يعرفون قيمة الإيمان؛ فليذهبوا بعيداً عنه ، فالحق لهم يصرفهم إلا باختيارهم ، حتى لا يقول أحد : إن الله هو مصرف القلوب ، فما ذنبهم؟ لا ، لقد انصرفوا هم بما خلقه الله فيهم من اختيار ، فصرف الله قلوبهم ، لماذا؟ لأنهم { قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ } أي : لا يفهمون .

والفهم أول مرحلة من مراحل الذات الإنسانية ، وهناك فرق بين الفهم والعلم . فالفهم يعني أنك تملك القدرة على تَفَهُّم ذاتية الأشياء بملكة فيك ، لكن العلم يعني أنك قد لا تفهم أنت بذاتك ، وإنما يفهم غيرك ويعلمك . فأنت قد تعلم جزئية لا من عندك وإنما من معلم لك .

ولكن قد يقول قائل : ما داموا لا يفقهون فما ذنبهم؟ ونقول : الذي لا يفهم عليه أن يتقبل التعليم ، لكن هؤلاء لم يفهموا ولم يتعلَّموا ، وأصروا على عدم قبول العلم .

وبعد ذلك يتأتى ختام سورة التوبة .

والسورة بدأت بالقطيعة : { بَرَآءَةٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ إِلَى الذين عَاهَدْتُّمْ مِّنَ المشركين } [التوبة : 1]

ووردت لنا أحوال الكفار والمنافقين وتكاليف الجهاد الشاقة ، وأراد الحق أن يختم السورة بما يبرر هذه المشقات المتقدمة ، فبيّن لنا : إياكم أن تنفضُّوا عن الرسول أو تغضبوه؛ لأنه وإن جاء لكم

ببلاغ فيه أمور شاقة عليكم فخذوا هذه الأمور الشاقة على أنها من حبيب لكم ، لا من عدو لكم .

إنك مثلاً إن رأيت عدوّا ضرب ابنك وجرحه ، يكون وقع هذا الأمر شديداً عليك؛ لأنه عدو . لكنك إذا أخذت ابنك للطبيب وقرر الطبيب إجراء جراحة للابن ، فأنت تقبل ذلك؛ لتزيل عن ابنك خطراً . إذن : فهناك فارق بين جرح عدوك لابنك وجرح الطبيب له رغم أن الإيلام قد يكون واحداً .

إذن : لا ترفض الأمور الشاقة عليك لمجرد ورود المشاق عليك ، ولكن اعرف أولاً من الذي أجرى المشاق عليك ، فإن كان ربك ، فربك بك رحيم . وإن كان الرسول فخذ أوامر الرسول وطبيقها؛ لأنها من حبيب يريد لك الخير .

وهنا يقول الحق : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ . . . }

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128)

ونلحظ هنا أن الحق قد نسب المجيء هنا للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يقل : جئتكم برسول . وكلنا يعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت من عند نفسه ، ولم يدع هذا الأمر الجليل لنفسه ، ولكن الشحنة الإيمانية تفيد أنه خلق بما يؤهله للرسالة ، وبمجرد أن نزل عليه الوحي امتلك اندفاعاً ذاتيّاً لأداء الرسالة ، ولم يحتج لمن يدفعه لأداء الرسالة؛ لذلك أراد الحق سبحانه أن يثبت للرسول صلى الله عليه وسلم المجيء ذاتيّاً ، ولكن هذا المجيء الذاتي ليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم في البداية ، بل هو رسول من عند الله ، فأتى الحق سبحانه هنا بكلمة « جاء » .

وكلمة { رَسُولٌ } تدل على أنه ليس من عنده ، وكلمة « جاء » تدل على أن الشحنة الإيمانية جعلت لذاته عملاً ، فهو صلى الله عليه وسلم يعشق الجهاد من أجل الرسالة ، ويعشق الكفاح من أجل تحقيق هذه الرسالة .

إذن : لا تنظروا إلى ما جاءكم به الرسول صلى الله عليه وسلم نظرتكم إلى الأمور الشاقة التي تتعبكم ، ولكن انظروا ممن جاءت ، إن كانت من الأصل الأصيل في إرسال الرسل ، فالرب رحيم ، خلقكم من عدم وأمدكم من عدم ، ويوالي نعمة عليكم حتى وأنتم في معصيته . فأنت تعصاه ويحب الله سبحانه من يستر عليك ، فلا تشك ولا تتشكك . وعليك أن تأخذ التكاليف على أنها من حبيب فلا تقل : إنها مشقة . فأنت – ولله المثل الأعلى – تطلب من ابنك أن يستذكر دروسه ، وتراجعها معه قهراً عنه في بعض الأحيان ، وأنت قد تمسك بيدي ابنك ليعطيع الطبيب حقنة من الدواء الذي جعله الله سبباً للشفاء .

إذن : فلا تأخذ الأحوال بوارداتها عليك ، ولكن خذها بوارداتها ممن قدرها وقضاها؛ وهو الحق

سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق سبحانه : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ } أي : أن الحق سبحانه لم يأت بإنسان غريب عنكم ، بل جاء بواحد منكم قادر على التفاهم معكم . ولقوله الحق : { مِّنْ أَنفُسِكُمْ } معان متعددة ، فمرة يكون معناها ب « من جنسكم » ، مثلما قال الحق عن حواء : { وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . . } [النساء : 1]

أي : خلق حواء من نفس جنس آدم البشري ، فلا يقولن أحد : كيف بعث الله لنا بشراً رسولاً؟ لأن الحق أراد الرسول من البشر رحمة بالناس؛ ولذلك يؤكد صلى الله عليه وسلم على بشريته أكثر من مرة وفي مواقع كثيرة . والقرآن يقول : { وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً } [الإسراء : 94]

إذن : فبشرية رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تؤخذ على الله ، ولكن تؤخذ لله؛ لأنه أرسل واحداً من نفس الجنس؛ ليكون قادراً على أن يتفاهم مع البشر ، وتكون الأسوة به سهلة .

ولذلك قال سبحانه : { قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً } [الإسراء : 95]

وقوله الحق : { مِّنْ أَنفُسِكُمْ } أي : من جنس العرب ، ولم يأت به من الروم أو من فارس ، لكن اختار لكم من هو أعلم بطبائعكم . أو أن معنى { مِّنْ أَنفُسِكُمْ } أي : من نفس القبيلة التي تنتمون إليها معشر قريش .

أو أن { مِّنْ أَنفُسِكُمْ } تعني : أنكم تعلمون تاريخه ، وتعرفون أنه أهل لتحمل أمانة السماء للأرض ، كما تحمل أماناتكم من الأرض للأرض؛ ولأن هذا هو سلوكه ، فهو قادر على أن يتحمل أمانة السماء للأرض . ولقد سميتموه الصادق الأمين ، والوفي ، وكلها مقدمات كانت توحي بضرورة الإيمان به كرسول من عند الله . وإن كانت سلسلة أعماله معكم تثير فخركم ، فمجيئة كرسول إنما يرفع من ذكركم ، ويعلي من شأنكم . فأنتم أهل قريش ومكة ولكم السيادة في البيت الحرام ، وقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ليزيد من رقعة السيادة لكم ، فإذا كنتم قبل بعثته صلى الله عليه وسلم سادة البيت ، فأنتم بعد بعثته سوف تصيرون سادة العالم .

ويقول الحق سبحانه : { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ } [الزخرف : 44]

فهو نبي الله للعالم أجمع ومن العرب ومن قريش ، وكان يجب أن يفرحوا برسالته وأن يؤيدوها ، لكن الله لم يشأ ذلك؛ لأن قريشاً قبيلة قد ألفت السيادة على العرب ، وهذا جعل العرب يعملون لها حساباً ، وخافت منها كل قبائل العرب في أنحاء الجزيرة العربية ، وكانت لها مهابة هائلة؛ لأن كل العرب مضطرون للحج إلى الكعبة ، وأثناء الحج تكون القبائل كلها في أرض قريش؛ لذلك كانت كل القبائل ترعى قوافل قريش ، ولا تتعرض أي قبيلة لقريش أبداً ، فقوافلها

تروح وتغدو ، جنوباً وشمالاً ، ولا تقدر قبيلة أن تقف في مواجهة قريش ، أو أن تتعرض لها . وكل هذه المكانة وتلك المهابة أخذتها قريش من خدمتها لبيت الله الحرام؛ ولذلك شاء الحق ألا يمكن أبرهة من هدم البيت لتظل السيادة لقريش ، فلو انهدم البيت الحرام وانصرف الحج إلى اليمن كما كان يريد أبرهة ، فمن أين تأتي السيادة لقريش؟ لذلك قال الحق عن أبرهة وقومه : { فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ } [الفيل : 5]

وأتبعها بقوله : { لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتآء والصيف } [قريش : 1-2]

وما دام الحق سبحانه قد شاء هذا فيأتي أمره في الآية التالية : { فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } [قريش : 3-4]

وشاء الحق سبحانه أن يبعث بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً يدعو أولاً الصناديد ، والقبيلة ذات المهابة والمكانة ، وأن تكون الصيحة الإيمانية في آذان سادة الجزيرة الذي تهابهم كل القبائل ، حتى لا يقال : إن محمداً قد استضعف قلة من الناس وأعلن دعوته بينهم ، لا ، بل جاءت دعوته في آذان الصناديد ، والسادة ، وسفه أحلامهم ، وحين رفضوا دعوته هاجر ، ثم جاءه الإذن بقتالهم ، ولم تأت نصرة الإسلام من السادة ، بل آمن به الضعاف أولاً ، ثم هاجر إلى المدينة؛ لتأتي منها النصرة .

فلو أن النصرة جاءت من السادة لقالوا : جاءت نصرة الإسلام من قوم ألفوا السيادة ، ولما ظهر واحد منهم يقول : إنه رسول؛ أرادوا أن يسودوا به ، لا الجزيرة العربية ، بل الدنيا كلها ، فتكون العصبية لمحمد هي التي خلقت الإيمان بمحمد ، والله يريد أن تكون النصرة من الضعيف؛ حتى يفهم الجميع أن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم هو السبب في العصبية لمحمد .

هكذا نفهم معنى : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ } أي : مرسل من الله و { مِّنْ أَنفُسِكُمْ } بكل ما تعنيه مراحل النفس ، وهو مبلغ عن الله ، فلم يأت بشيء من عنده ، بل كل البلاغ الذي جاء به من ربه ، والرب بإقراركم هو الذي خلق لكم ما تنتفعون به من السموات والأرض . وسبحانه يقول : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله . . . } [الزخرف : 87]

ويقول : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله . . . } [لقمان : 25]

إذن : فالمخلوق هو الخليفة الإنسان ، وما خلقه الله في الكون ، إنما خلقه لخدمتكم كلكم ، وأنتم تقرون ذلك ، فإذا كان الرب قد سبق لكم بهذه النعم ، وجاء الرسول الذي جاء لكم من عنده بما يسعدكم ، وقد استقبلتم خيره قبل أن يأتي لكم بالتكاليف ، واستقبلتم نعمته قبل أن تكونوا مخاطبين له ، إذن : فالله الذي أرسل رسوله بالتكاليف والمنهج لكم ، لا بد أن يكون قد كلف من هو مؤتمن عليكم ، وهو صلى الله عليه وسلم لم يأت من جنس الملائكة ، بل هو بشر مثلكم ، فإذا قال لكم : افعلوا كذا وكذا وأنا أسوة لكم في الفعل ، فلا تتعجبوا ، لكن غبار

الكافرين بالله جعلهم يريدون أن يكون الرسول ملكاً ، فقال الحق : { وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً * قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً } [الإسراء : 94-95]

أي : إن كنتم تريدون مَلَكاً ، فالملك له صورة لا ترونها ، ولا بد أن نجعله ملكاً في صورة بشر؛ ليخاطبكم ، إذنك فهل المشكلة مشكلة هيئة وشكل؟ ثم إن الملائكة بحكم الخلق : { لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم : 6]

فإذا قال لكم الرسول الملك : أنا أسوة لكم في العمل الصالح ، أكانت تصح الأسوة؟ من المؤكد أن بعضنا سيقول : لا ، لن تنتفع الأسوة؛ لأنك مَلَك مطبوع على الخير ، وليس لك شهوة بطن ، ولا شهوة فرج ، إذن : فأسوتنا بك لا تصلح .

إذن : فمن رحمته سبحانه بكم أن جعل لكم رسولاً من أنفسكم ، ومن قبيلتكم ، ومن العرب ، لا من فارس والروم ، وهو يخاطبكم بلغتكم؛ لأنكم أنتم أول آذان تستقبل الدعوة؛ فلا بد أن يأتي الرسول بلسانكم ، وجاءكم محمد صلى الله عليه وسلم بالأنس والألفة؛ لأن من قريش التي لها بطون في كل الجزيرة ولها قرابات ، وأنس وألفة بكل العرب ، وأنس ثالث أنه من البشر ، وجاء به الحق سبحانه فرداً من الأفراد ، محكوم له بالصدق والأمانة قبل أن يبلغكم رسالته من الله .

إذن : فإذا جاءكم الرسول بتكليف قد يشق عليكم ، فاستصحبوا كل هذه الأشياء؛ لتردوا على أنفسكم : هو بشر وليس مَلَكاً . هو من العرب وليس من العجم . هو من قبيلتكم التي نشأ بينكم فيها . هو من تعرفون سلوكه قبل أن يبلغ عن الله ، فما كذب على البشر في حق البشر . أفيكذب على البشر بحق الله؟

وقرأ عبد الله بن قسيط المكي هذه الآية : { مِّنْ أَنفُسِكُمْ } أي : أنه صلى الله عليه وسلم بالمقياس البشري هو من أقدركم وأحسنكم . ولذلك حينما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة عن الله ، هل انتظرت سيدتنا خديجة رضي الله عنها أن يأتي لها بمعجزة؟ هل انتظر أبو بكر أن يأتي له بمعجزة؟ لا ، لم ينتظر أحدهما لأن كلاّ منهما أخذ المعجزة من ناحية تاريخه الماضي .

وحينما قال لخديجة : « يأتيني ويأتيني ويأتيني » وكانت ناضجة التكوين والفكر والعقل ، وعلمنا مما قالت لماذا اختار الله له أن يتزوجها وعمره خمسة وعشرون عاماً ، وعمرها أربعون سنة ، مع أن المألوف أن يحب الإنسان الزواج ممن هي دونه في العمر .

لكن المسألة لم تكن زواجاً بالمعنى المعروف ، لكنه زواج لمهمة أسمى مما نعرف ، ففي فترة هذا الزواج ستكون الفترة الانتقالية بين البشرية العادية إلى البشرية التي تتلقى من السماء ، وهذه

فترة تحتاج إلى قلب أم ، ووعاء أم تحتضنه وتُربّت عليه .
فلو كانت فتاة صغيرة وقال لها مثلما قال صلى الله عليه وسلم لخديجة لشكت في قواه العقلية ، لكن خديجة العاقلة استعرضت القضية استعراضاً عقليّاً بحتاً . فحين قال لها : أنا أخاف أن يكون الذي يأتيني رئي من الجن . قالت له : « إنك لتصل الرحم ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق ، والله لا يخزيك الله أبداً » .
إذن : فقد أخذت من مقدمات حياته قبل البعثة ما يدل على صدقه بعد البعثة .
وكذلك أبو بكر رضي الله عنه ، حينما قالوا له : إن صاحبك يدعي أنه رسول . قال : أهو قالها؟ قالوا : نعم . قال : إنه رسول من الله لأنه لم يكذب طوال عمره .
وبعد ذلك يقول الحق : { عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ } . وكلمة { عَزِيزٌ } أي : لا يُنال ولا يقدر عليه أحد ، والشيء العزيز أي نادر الوجود . وقد تقول لإنسان : « قد تكن وزيراً »؛ فيصمت رجاء ، لكن إن قلت له : « ستصبح رئيس وزراء » فيقول : هذه مسألة مستعصية وكبيرة عليَّ بعض الشيء .

إذن : فالعزة تأتي لامتناع شيء إما لقدرته ، أو عزيز بمعنى نادر ، أو يستحيل . والعزيز – هو الأمر الذي يعز على الناس أن يتداولوه ، فيقال : « عز عليّ أن أصل إلى قمة الجبل » . { عَزِيزٌ عَلَيْهِ } أي : شاق عليه أن يعنتكم بحكم؛ فقلبه رحيم بكم ، وهو لا يأتي لكم بالأحكام لكي تشق عليكم ، بل تنزل الأحكام من الله لمصلحتكم ، فهو نفسه يعز عليه أن يشق عليكم . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « مثلي كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها . وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها . قال : فذلكم مثلي ومثلكم . أنا آخذ بحجزكم عن النار . هلم عن النار . هلم عن النار . فتغلبوني تقحمون فيها . »
فإذا كان الرسول صفته أنه من أنفسكم أو من أنفسَكم أو يحبكم حبّاً يعز عليه أن تكونوا في مشقة . إذن : فخذوا توجيهاته بحسن الظن وبحسن الرأي فيها ، وذلك هو القانون التربوي الذي يجب أن يسود الدنيا كلها . فقد يقسو والد على ولده بأوامر ونواه : « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » لا تذهب إلى المكان الفلاني ، ولا تجلس إلى فلان ، ولا تسهر خارج المنزل بعد الساعة كذا .
كل هذه أوامر قد تشق على الولد فنقول له : مشقة التكليف ممن صدرت؟ لقد صدرت من أبيك الذي تعرف حبه لك ، والذي يشقى ليوفر لك بناء المستقبل ، ويتعب؛ لترتاح أنت ، فكيف تسمح لنفسك أن تصادق صعاليك يخرجونك عن طاعة أبيك إلى اللهو وإلى الشر .
وانظر إلى والدك الذي تحمل المشقة حتى لا تتحمل أنت المشقة ، ويشق عليه أن تتعب فهو أولى

بأن تسمع كلامه .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم عزيز عليه مشقتكم ، والمشقات أنواع : مشقات في الدنيا تتمثل في التكاليف التي يتطلبها الإيمان ، ولكنها تمنع مشقات أخلد في الآخرة؛ لذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم يحزن أن ينالكم في الآخرة تعب ، وتعب الدنيا موقوت وينتهي ، لكن تعب الآخرة هو الذي يرهق حقّاً ويتعب .

ولذلك يقول الحق في تصوير هذه المسألة بقوله : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً } [الكهف : 6]

لماذا؟ لأنك تعرف يا محمد أنهم إن لم ينتهوا فسوف يجدون العنت كله في الآخرة .

أو أن مشقة الآخرة هي التي يجب أن نتلافاها ، وأن نتحمل المشقات الزائلة العرضية التي تورد ثماراً .

فنحن قد نجد الرجل يقول لابنه مثلاً : اخرج إلى الحقل ، واحمل السباخ فوق الحمار واحرث وارْو ، كل هذه مشقات ستجد لذتها يوم الحصاد ، وتعطيك الأرض من خير الله كذا إردب قمحاً أو غير ذلك . ولو ترك الأب ابنه لكسله فهذه هي المشكلة الأكبر ، وحث الأب لابنه على العمل هو دفع لمغبة الضياع .

وقد يأخذ الأب ابنه للطبيب ، ويجد الطبيب مشغولاً ، ويرجوه الأب أن يجري للابن جراحة تنجيه وتنقذه من خطر رغم أن الأب يعلم أن الطبيب سيستخدم مع ابنه أدوات جراحية كالمشارط وغيرها ، ولكن ليعلم الابن أن هذا المشرط سيمسُّ أباك قبل أن يمسَّك ، وعلى ذلك إذا أُمرت بتكليف شاق فانظر مَنْ أمرك؟ أهو ممن تعز عليه ومن تحبه وممن يريد لك الخير؟ إن كان الأمر كذلك؛ فعليك أن تقبل ولا تسيء الظن ، ولا تُرهق مَنْ يحبك .

واعلم أن والدك حين يصرفك عن أصدقاء السوء – مثلاً – فهو يرد عنك مصارف الشر؛ لأنك إن اجتهدت في عملك؛ فسوف تحصد النتيجة الطيبة ، أما إن اتجهت إلى مصارف الشر فسوف تُشَرّد وتجوع ، وسوف تدق باب بيت أبيك . وعندئذ ستسمع مثلاً عاميّاً يلخص الحكمة التي تقول « من يأكل لقمتي فليسمع كلمتي » .

وهنا يقول الحق : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ } ومعنى الحرص : أن يحوطكم بالرعاية؛ حتى لا تقعوا في المشقة الأكبر . ولذلك قلنا : إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد صوَّر هذه المسألة بقوله صلى الله عليه وسلم : « مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار – أي أمسككم من خلفكم حتى لا تذهبوا إلى النار – وأنتم تفلتون من يدي »

والحق يُسَرّي عن رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ } [

الكهف : 6]

ويقول الحق أيضاً لرسوله : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : 3]

فالرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى إتقان العمل في الدنيا؛ ليصلوا إلى الجنة في الآخرة؛ لأن كل مؤمن عزيز عليه صلى الله عليه وسلم ويخشى أن يُرهَق إنسان واحد في الآخرة ، ولذلك قال الحق : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 3-4]

أي : إياك أن تحزن أنك حريص على أن يؤمنوا؛ لأن الحق سبحانه يقدر أن ينزل عليهم آية تجعل رقابهم خاضعة ، ولكن الرب لا يريد رقاباً تخضع؛ وإنما يريد قلوباً تخشع .

{ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ }

والرأفة والرحمة قد تلتقيان في المعنى العام ، ولكن هناك أموراً تسلب مضرّة ، وأموراً تجلب منافع . وسلب المضرّات – دائماً – مُقدّم على جلب المنافع ، فحين نواجه عملاً يضر وعملاً ينفع؛ نُقدم على العمل لدرء ما يضر ، ثم ننجز العمل النافع .

وساعة يطرأ عليك أمر يضر ، وأمر ينفع ، وأنت في حال متساوية ولا بد أن تدرأ عن نفسك الأمر الضار الذي يخرجك عن الاستواء ، ثم تقبل على الأمر الذي يزيد من الارتقاء .

وحتى نقرب هذه المسألة إلى الذهن ، سأضرب هذا المثل الحسّي : هَبْ أن واحداً معه حجر يريد أن يضربك به ، وآخر يريد أن يقذفك بتفاحة ، فهل تنشغل بالتقاط التفاحة أو تنشغل برد الحجر؟ إنك تنشغل أولاً بدرء الضرر ، ثم تقبل على جلب المنفعة .

ومثال آخر : هب أنك ترى إنساناً يغرق أمامك في البحر ، فهل توبخه؛ لأنه نزل البحر دون أن يتعلم العوم؟ أم تنقذه أولاً وتدفع الأذى عنه ، ثم توبّخه وتعاقبه بعد ذلك جزاء إهماله؟

إنك تنقذه أولاً ، وبذلك تكون قد قدمت الإحسان بدفع المضرة أولاً ، وحتى إن عاقبته فهو يتقبل منك العقاب أو النهر؛ لأن صنيعك أنقذه من الموت .

والحق يقول : { فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ . . . } [آل عمران : 185]

إذن : فمراحل الفوز أن يُزْحزح الإنسان أولاً عن النار ، ففي هذا سلب للمضرَّة ، وجلب للمنفعة ، وإن ظل الإنسان في موقعه لا هو في الجنة ولا هو في النار؛ فهذا هين أيضاً . وإن أدخل الجنة فهذا هو الخير كله .

وإذا كانت هذه هي بعض من خصال الرسول صلى الله عليه وسلم : { رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ } ، و { عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ } ، و { حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ } ، و { بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } ، فهذه خصال إن استوعبها الإنسان فهو يندفع إلى اتباع هذا الرسول .

وقوله الحق : { بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } نرى فيه الوصف ب « الرءوف » والرأفة هي سلب ما

يضر من الابتلاء والمشقة ، و « رحيم » هو الذي يجلب ما ينفع من النعيم والارتقاء .
وحسبكم من هاتين الصفتين أن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله بهذين الوصفين { رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } وقد ثبت أنه سبحانه قد وصف نفسه بقوله سبحانه : { إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 7]
إذن : فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يسلك بما عنده ، بل يسلك برأفة مستمدة من رأفة العل الأعلى ، وكذلك رحمته صلى الله عليه وسلم مستمدة من رحمة العلي الأعلى . وكأن الحق سبحانه يبيّن لنا أنه أعطى محمداً صلى الله عليه وسلم بعضاً من الصفات التي عنده ، فكما يبلغكم المشقات في التكاليف ، فهو يبلغكم السلامة من المشقات في الرأفة ، وترقية المنعمات بالرحمة؛ ولذلك يقول الحق سبحانه : { وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } [الإسراء : 82]
ونعلم أن الشفاء إنما يكون من المرض ، أي : أن القرآن يسلب المضرة أولاً ، ثم يأتي لنا بالمنفعة بعد ذلك وهي الرحمة .
وقوله الحق : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } هذا القول خلاصته : إن استقبلتم مشقات التكليف من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فاعلموا ممن جاءت هذه المشقات ، واعلموا أن مجيئه بها إنما هو ليرفع عنكم مشقات أكبر وأخلد؛ لأن مشقات التكليف تنتهي بانتهاء زمن التكليف وهو الدنيا ، ثم يذهب المؤمن إلى الجنة ليحيا بلا تكليف ، وما يخطر على باله من أشياء ، يجده فوراً؛ بدءاً من الطعام والشراب وجميع ما خلقه الله لأهل الجنة من نعيم .

وإن نظرنا إلى متع الدنيا نجد أن من اجتهدوا في حياتهم ، يستأجرون من يقوم لهم بالأعمال التي كانوا يقومون بها لأنفسهم؛ فالثري الذي كان يطهو طعامه قبل الثراء ، يستأجر طاهياً؛ ليعد له طعامه ، والفلاح الذي كان يبني بيته لنفسه ، ثم رزقه الله بالرزق الوفير فاستأجر من يبني له ، وكل الأعمال التي تسعد الإنسان وكان يقوم بها بنفسه ولنفسه ، صار يستأجر من يقوم له بها ، فما بالنا بالآخرة حيث تعيش في رضا الله وبأسرار كلمة { كُن } .
وهكذا نجد الحق سبحانه وتعالى قد جاء في هذه السورة بمشقات التكليف ، والثواب عليها وطمأن المؤمنين بان الرسول صلى الله عليه وسلم يتميز بكل المواصفات الموحية : من أنه بشر ، وأنه حريص عليهم ، وأنه لا يكلفهم إلا بالمشقات التي تنجيهم من المشقات الأبدية ، وأنه رءوف بهم ورحيم .
فإن استعموا إلى هذه الحيثيات وآمنوا ، فأهلاً بهم في معسكر الإيمان ، وإن تولوا ولم يسمعوا لهذه الحيثيات ولم يدخل القرآن قلوبهم ، فإياك أن تظن – يا رسول الله – أنك منصور بهم؛ لأنك

منصور بالله ، فإن تولوا عنك وأعرضوا عن الإيمان بالله ، وأعرضوا عن الاستماع لك ، فاعلم أن ركنك الشديد هو الله ، لذلك يختم الحق السورة بقوله : { فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ . . . }

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129)

ولم يقل الحق لرسوله : « إن تولوا وأعرضوا فاعتقد أن حسبك الله » لا ، بل أعلنها للناس كافة؛ حتى يسمعوها ، ولعل في إعلانك لها ما يلفتهم إلى الحقيقة؛ لأنك إن قلتها؛ فلن تقولها إلا وعندك رصيد إيماني بها ، وإن فعل أحدهم شيئاً ضدك؛ فسوف يعاقبه الله .

وحين تعلن : { حَسْبِيَ الله } بعد أن كذبوك ، فالأحداث التي سوف تأتي بعد إعلانك { حَسْبِيَ الله } ستؤكد أن حسبك في مكانه الصحيح ، ولله المثل الأعلى – أنت تقول : « حسبي نصرة فلان »؛ لأنك تثق في قدرة فلان هذا ، ولكن القوة في الحياة أغيار ، وحين تقول : { حَسْبِيَ الله } فلا إله غيره سبحانه ، ولا إله آخر يعارضه في هذا أو في غيره .

وقل { حَسْبِيَ الله } برصيد { لا إله إِلاَّ هُوَ } و { لا إله } نفي ، و { إِلاَّ هُوَ } إثبات ، إذن : ففي هذا القول : { لا إله إِلاَّ هُوَ } نفي منطقي مع سلب ، وإثبات منطقي مع الإيجاب ، وهنا نفي أيّ ألوهية لغير الله ، والاستثناء من ذلك هو الله ، ورحم الله شيخنا عبد الرحمن عزام حين ترجم عن محمد إقبال شاعر باكستان الكبير ، فقال :

إنَّما التوحيد إيجابٌ وسلبٌ ... فيهما للنفسِ عزمٌ ومضاءُ

إيجاب في { إِلاَّ هُوَ } ، وسلب في { لا إله } ، فيهما للنفس عزم ومضاء ، أي : هما للنفس قطبا الكهرباء ، فاسلب الألوهية من غير الله وأثبتها لله .

والناس – كما نعلم – ثلاثة أقسام : قسم ينكر وجود إله للكون مطلقاً ، وهم الملاحدة ، وقسم ثان يقول : إن هناك الله الذي يوحده المسلمون؛ لكن له شركاء ينفعوننا عند الله . وقسم ثالث يقول بوحدانية الله .

وساعة نقول { لا إله إِلاَّ هُوَ } نكون قد أثبتنا الألوهية لله ، وأثبتنا أن لا شريك له ، وأثبتنا ألا إله غيره ، وسبحانه يقول :

{ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ الله لا إله إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ } وهذا أمر طبيعي ، ويمكن أن نعرفه بالحساب؛ ولذلك جاء ب { حَسْبِيَ } من الحساب . واحسبها فلن تجد إلا الله . وما دام حسبك الله ولا إله إلا هو ، فسبحانه يبسط عليك حمايته ونصرته لك ، فمن العقل أن تضع نفسك بين يدي رسولك ، الذي أبلغك البلاغ الكامل عن الله ، وأن تتوكل عليه سبحانه .

وما دام سبحانه هو حسبك ولا إله إلا هو ، والواجب يفرض عليك أن تظل في مَعيَّته سبحانه ، ومعيّة الله مرحلتان : الأولى بأخذ الأسباب التي أمدّ بها خلقه ، ومعية إيمانك المطلق بأن الأسباب إن عجزت معك ، فأنت تلجأ إلى مسبِّب الأسباب الموجود وهو رب الوجود .

وترى – مثلاً – الناس وهي تحتاج إلى المياه؛ لأنها ضرورة للحياة؛ فيذهبون إلى البئر فلا يجدون الماء رغم وجود البئر؛ لأن المياه التي تأتي من جوف الأرض لم تعد تتسرب إليه ، ولماذا؟ لأن المخزون من ماء المطر الذي كان يأتي من أعالي الجبال ويتسرب تحت الأرض قد نفد ، ولهذا نحتاج إلى مدد من أمطار السماء؛ لتجري إلى المسارب تحت الأرض وتعود المياه إلى البئر .

وإذا جفَّت الآبار المحيطة بنا ، هل نيأس؟ لا؛ لأن ربنا بيَّن لنا : ارفعوا أيديكم لربكم . إذن : فنحن إذا استنفدنا الأسباب نطلب من المسبب ، ولذلك أتحدى أن يستنفد واحد أسباب الله الممدودة إليه ، ويلجأ إلى الله فيرده .

إن يد الله ممدودة لنا بالأسباب ولا يصح أن يهمل إنسان ولا يأخذ بالأسباب ، ويقول : أنا متوكل على الله ، إن على الإنسان أن يأخذ أولاً بالأسباب وأن يستنفدها ، وبعد ذلك يقول : ليس لي ملجأ إلا أنت سبحانك ، واقرأ إن شئت قول الله سبحانه : { أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ } [النمل : 62]

والمضطّر : هو من استنفد أسبابه ، وليس له إلا الله . لكن أن يقول إنسان : أنا أدعو الله ليل نهار وأسبِّحُه سبحانه وأقرأ سورة يس مثلاً ، ولا يستجيب الله لدعائي . ونقول لمثل هذا القائل : أنت لا تدعو عن اضطرار ولم تأخذ بالأسباب ، خذ بالأسباب التي خلقها الله ، أولاً ، ثم ادْعُ بعد ذلك . ولا تدْعُ إلا إذا استنفدت الأسباب؛ فيجيبك المسبِّب ، وبذلك لا تفتن بالأسباب ، فحين تمتنع الأسباب؛ تلجأ إلى الله . ولو كانت الأسباب تعطي كلها لفُتِنَ الإنسان بالأسباب ، والحق سبحانه يقول : { كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى } [العلق : 6-7]

لذلك نجد الحق يبيّن دائماً أن كل الأسباب بيده ، فنرى من يحرث ويبذر ويروي ويرعى ، ثم يقترب الزرع من النضج ، وبعد ذلك تأتي موجة حارة تميته ، أو ينزل سيل يجرفه . إذن : خذ بالأسباب واجعل المسبب دائماً في بالك ، وهنا يصح توكلك على الله .

وكثير من الناس يخطئ في فهم كلمة « التوكُّل » ، وأقول : إن التوكل يعني أن تأخذ ، أولاً ، أسباب الله التي خلقها سبحانه في كونه ، فإن عَزّت الأسباب ولم تصل إلى نتيجة؛ فاتجه إلى الله ، مصداقاً لقوله : { أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ } .

ونحن ندعو أحياناً عن غير اضطرار ونهمل الأسباب ، والمثال تجده في حياتنا حين يقول الابن لأمه : « ادعي لي حتى أنجح » وتجيب الأم الأمية قائلة كلمة بسيطة هي : « ساعد الدعاء بقليل من المذاكرة » ، وهي بذلك تدل ابنها على ضرورة الخذ بالأسباب .

إذن : فمعنى التوكل ، أن تستنفد الأسباب التي مدَّها يد الله إليك . فإذا استنفدتها؛ إياك أن تيأس؛ لأن لك ربّاً ، وهو سبحانه ركن شديد ترجع إليه .

ومثال آخر : إذا كنت سائراً في الشارع ومعك جنيه واحد مثلاً ثم وقع منك أو سُرق ، ولا تملك

في البيت أو في البنك مليماً واحداً ، هنا تغضب وتحزن ، أما إن كان في البيت عشرة جنيهات؛ فنسبة الغضب والحزن ستكون قليلة ، وإذا كان في البيت عشرة جنيهات وفي البنك مائة جنيه؛ فلن تحزن أو تغضب لضياع الجنيه الواحد .

وهكذا تثق بالمثل عوضاً عن المثل ، أفلا تثق بواهب هذا المثل عن عوض المثل؟

إذن : فالتوكل هو أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب . والكسالى هم من يريدون أن يكون التوكل للجوارح وليس القلوب .

وكان من الممكن أن يغيّر الحق الأسلوب في الآية فيقول : توكلت عليه . بدلاً من { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ } ولكن إن وفقت الفهم عن قوله الحق ، ستجد أن الإنسان إن قال : « أنا اعتمدت عليك » فقد تعطف قائلاً : « وعلى فلان وعلى فلان » . لكن قولك : عليك توكلت لا يمكن أن تعطف من بعدها ، وفيها تنزيه لله ولا أحد غيره يتوكل عليه الخلق ، مثلما تقول في الفاتحة : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } أي : لا نعبد غيرك ، فتكون قد قصرت العبادة عليه سبحانه .

وتوكلك على الله له رصيد؛ لأن ربك ورب الكون الذي استقبلك ، ولا تصل قدرتك إليه ، فأنت في الأرض تحرثها ، وتبذرها ، وترويها ، ثم تأخذ من عطاء الله لك؛ فهو ربك ، ورب الكون الذي استقبلك ، وأَصبح هذا الكون مسخراً لك ، وأنت لم تكن قادراً على تسخير الكون .

صحيح أنك قد تُسخِّر الدابة وتربطها وتمتطيها وتحمل عليها السماد مثلاً وكل ذلك مسخر لك وفي قدرتك ، وهذا من فضل الله عليك . ويزيد فضله سبحانه ، وترى مخلوقات مُسخَّرة لك؛ تشرق كل يوم بالدفء وبالحرارة ، وكذلك القمر ، والغمام ، وكل هذه مخلوقات ليس في قدرتك السيطرة عليها ، بل سخرها الله لخدمتك .

وربك رب الكون الذي استقبلك سخر لك ما ليس في يدك ، وهو سبحانه رب الملكوت الذي يدير كل ذلك وأنت لا تراه ، وهو الذي يدير كل هذه الأشياء . فلا تنظر إلى ظواهر العطاء فقط ، بل انظر إلى مسبِّبات العطاء في ظواهر العطاء ، ولا تلتفت إلى ظاهرة إلا لتعرف ما وراء هذه الظاهرة . وما وراء أي ظاهرة كثير .

ويقول الحق سبحانه : { وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم } نعم ، هو رب الكون الذي استقبلك وسخر لك ما في يدك وما ليس في يدك ، وما وراء المرئيات من عالم الملكوت؛ ليدير بكمال قدرته كل شيء ، وكل ما في الكون ملك لله .

وله سبحانه العرش العظيم ، فما هو العرش؟ نعرف لأول وهلة أن العرش هو السقف ، فحين تبني دوراً واحداً تصنع له السقف؛ ليحميك من وهج الشمس والمطر ، وإن كانت الأرض رخوة فالمباني تهبط ، وبنينا السقوف حتى تحمي الجدران من عوامل التعرية .

وقول الله سبحانه : { العرش العظيم } معناها : استواء الأمر استواءً يدخل فيه كل مقدور؛

ولذلك عبر سبحانه عن الملك مثلاً في ملكة سبأ على لسان الهدهد فقال : { إِنِّي وَجَدتُّ امرأة تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } [النمل : 23]

العرش ، إذن ، رمز السيطرة ، وفي حياتنا – ولله المثل الأعلى – نجد أن الذي يأخذ الملك من واحد قبله يبدأ في تطهير الجيوب المحيطة به ويبحث عن الأنصار؛ ليعيد ترتيب الملك بما يراه مناسباً له؛ حتى تستقر له الأمور ، ثم يجلس بعد ذلك على العرش .

إذن : فالجلوس على العرش معناه استتباب الأمر استتباباً نهائياً للمالك الأعلى .

وسبحانه يقول : { الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ . . . } [غافر : 7]

وساعة تسمع كلمة « العرش » خذها على أنها رمز للاستتباب الأمر لله ، وأن كل شيء دخل في حيِّز قدرته ، وفي حيِّز { كن } ، كما يستقر للملك المحَسِّ ، فلا يجلس على العرش ، ولا يهدأ ، إلا إذا استقرت الأمور . هذا ما نراه في الأمور الدنيوية ، فما بالنا باستقرار كل الكون من الأزل لله سبحانه وتعالى؟

يقول الحق سبحانه : { إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش . . . } [الأعراف : 54]

أي : أن الأمور قد استتبت له . وهكذا نجد أن كلمة « الْعَرْشِ » وردت في عروش الدنيا ، وفي عرش الله سبحانه ، فعروش الدنيا ترمز إلى استتباب الأمر لمن يجلس عليها ، والعرش بالنسبة لله رمز للاستتباب أمر الكون كله له سبحانه لا ينغص عليه شيء ولا يخرج من ملكه شيء .

والكون كله ، بكل ما فيه مستتب لكلمة « كن » ومخلوق بها وخاضع لسلطان الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق : { وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم } ولا يوصف العرش بأنه عظيم إلا وفي أذهان الناس عروش الملوك التي نراها في حياتنا ، مثلما قال الهدهد عن ملكة سبأ : { وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } [النمل : 23]

أي : بمقاييس البشر .

أما قوله تعالى هنا : { وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم } [التوبة : 129]

فهو بمقاييس رب البشر ، إنه عرش الخالق العظيم سبحانه وهو فوق التصور البشري؛ لذلك نفهمه في إطار { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . } [الشورى : 11]

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1)

و { الر } ثلاثة حروف ، وقد سبقتها سورة البقرة ب { الم } و { الم } في أول سورة آل عمران ، وفي أول سورة الأعراف { المص } وهنا { الر } في أول سورة يونس . ونلاحظ أن { الم } و

{ المص } و { الر } كلها أسماء حروف .

وكل شيء له اسم وله مسمى ، أنا اسمي الشعراوي صحيح ، والمسمَّى هو صورتي . فإذا أُطلق الاسم جاءت صورة المسمَّى في الذهن .

فساعة نقول : « السماء » يأتي الذهن « ما علاك » . وساعة تقول : « المسجد » يأتي إلى الذهن المكان المحيّز للصلاة .

إذن : فهناك فرق بين الاسم والمسمّى . وكل إنسان أمّي ، أو متعلم ، له قدرة على الكلام ، لكن لا ينطبق بأسماء الحروف إلا من تعلَّم . وفي الإنجليزية نطلب ممن يتعلمها أن يتهجَّى أسماء الحروف .

إذن : فالكُلّ – كل متكلم – يعرف النطق بمسمَّيات الحروف ولكن الذي يعرف المسميات ويعرف الأسماء هو من جلس إلى معلِّم . وعرف أنك حين تقول : « أكلت » ، فهذه الكلمة مكونة من (همزة ، وكاف ، ولام ، وتاء) .

فإن كانت بعض سور القرآن قد بَدأت ب { الم } وهذه أسماء حروف ، لا مسمَّيات حروف ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أمّيّ لم يتعلم ، فمن الذي علَّمه أسماء الحروف؟

هي ، إذن ، رمزية على أنه – بإقرار الجميع – أمي ولم يجلس إلى معلم ، ولم يقل له أحد شيئاً ، ثم نطق بعد ذلك بأسماء الحروف « ألف لام ميم » ولو نظرت إلى المنطوق بالأسماء تجدها أربعة عشر حرفاً تكررت ، وهي نصف حروف الهجاء .

ومن العجيب أن توصيف حروف الهجاء جاء بعد أن نزل القرآن . وقسمناها نحن إلى حروف مهجورة وحروف مهموسة وحروف رقيقة وحروف رخوة . وقد حدث هذا التقسيم بعد أن نزل القرآن . وبالاستقراء تجد الأربعة عشر حرفاً التي تأتي في فواتح السور تمثل كل أنواع الحروف . من : رقيق ، ومفخم ، ومجهور ، ومهموس ، ومستعلٍ ، وبدأ الله بها على أشكال مختلفة ، فمرة يبدأ بحرف واحد : { ص والقرآن ذِي الذكر } [ص : 1]

ويقول سبحانه : { ق والقرآن المجيد } [ق : 1]

ويقول سبحانه : { ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ } [القلم : 1]

إذن : فثلاث سور ابتدأت بحرف واحد .

وهناك سور ابتدأت بحرفين اثنين مثل : { طه } . { يس } . { طس } ، { حم} .

وهناك سور بدئت بثلاثة حروف : { الم } مثلما بدأت سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة العنكبوت ، وسورة الروم ، وسورة السجدة .

وهناك سور قد بدئت ب { الر } .

وثلاث سور تتفق في الألف واللام . وتختلف في « الميم والراء » و { الر } في أول سورة يونس و { الر } في أول سورة يوسف . و { الر } في أول سورة إبراهيم ، و { الر } في أول سورة

الحجر .
وهناك سورة قد بدئت بأربعة حروف مثل : { المص } في أول سورة الأعراف ، وكذلك سورة الرعد بدأت ب { المر } .

وهناك سور قد بدأت بخمسة حروف مثل سورة مريم { كهيعص } . وكذلك سورة الشورى بدأت ب { حم* عسق } .
ومرة يطلق الحرف أو الحرفان في أول السورة ولا تعتبر آية وحدها؛ بل جزءاً من آية ، وهناك سورتان تبدآن بأحرف وتعتبر آية مثل { طه } ، و { يس } . أما في سورة النمل فهي تبدأ ب { طس } ولا تعتبر آية وحدها .
إذن : فمرة تنطق الحروف وحدها كآية مكتملة ، ومرة تكون الحروف بعضاً من آية ، ومرة تأتي خمسة حروف مثل { كهيعص } ، وكل هذا يدلك على أن القرآن توقيفي . ولم تأت آياته على نسق واحد؛ لننتبه إلى أن الحق سبحانه أنزل هذه الحروف هكذا ، وكذلك نجد كلمة « اسم » في القرآن في { بسم الله } وتكتب من غير ألف ، وهي ألف وصل ، أي : تنطقها حين تقرأها لكن الحرف يسقط عند الكتابة ، ولكنها لا تسقط عندما نكتب الآية الأولى من سورة العلق : { اقرأ باسم رَبِّكَ الذي خَلَقَ } [العلق : 1] ومثال آخر لو استعرضت في القرآن الكريم كلمة « تبارك » ، ستجد فيها ألفاً بعد الباء ، وتأتي مرة من غير ألف ، وكلمة « البنات » نجدها مرة بألف ومرة من غير ألف ، كل ذلك؛ لنفهم أن المسألة ليس لها رتابة كتابة؛ لأنها لو كانت رتابة كتابة؛ لجاءت على نظام واحد .
وقد شاء الحق هذا الأمر؛ لتكون كتابة القرآن معجزة ، كما كانت ألفاظه وتراكيبه معجزة . وقد قال البعض : إن العرب المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا أهل إتقان للكتابة ، ونقول : لو كانوا على غير دراية بالكتابة لما كتبوا « بسم » من غير ألف في موقعها ، لقد علموا أن القرآن يجب أن يكتب كما نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابة توقيفية ، أي : كما أمر الحق سبحانه .
وعجيبة أخرى أن كل آيات القرآن مبنية على الوصل ، فأنت لا تقرأ ختام السورة بالسكون ، بل تلتفت لتجد الكلمة التي في ختام أي سورة مشكلة بغير السكون .
والمثال هو : { وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم } وجاء الحرف الأخير بالكسر لا بالسكون؛ لتقرأ موصولة بما بعدها ، فتقرأ كالآتي : { وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ } .
وهذه الحركة دلت على أن جميع آيات القرآن موصولة ببعضها ، وإياك أن تجعل القرآن { عِضِينَ } فلا تأخذ بعضاً من آياته مفصولاً عن غيرها ، بل القرآن كله موصولة ، فليس في القرآن من وقف واجب ، بل الآيات كلها مبنية على الوصل ، وإن كانت الكلمة الأخيرة تنتهي بالفتحة

فأنت تقرأها منصوبة ومن بعدها { بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ } فنحن لا نسكِّن الحرف الأخير في أي سورة؛ لأنها موصولة بما بعدها .
وحتى في الحكم التجويدي إن وجد إقلاب ننطقه إقلاباً ، وإن وجد إظهاء ننطقه إظهاراً؛ لأن آيات القرآن مبنية على الوصل .

ولقائل أن يقول : إذا كان القرآن قد بني على الوصل ، فكان المفروض أن آيات القرآن التي بدئت بحروف المعجم تنبني على طريق المعجم . فلا نقول (ألف لام ميم) بل نقول « ألم » .
ونقول لمثل هذا القائل : لا ، إن حروف القرآن التي بدئت بها السور يجب أن ننطقها كما هي ، فننطق « ألف » ثم نقف ، ونقرأ « ميم » ثم نقف ، ونقرأ « لام » ثم نقف ، ونقرأ « ميم » ثم نقف؛ لأن هذه الحروف جاءت هكذا ، وعلّمها جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا ، حتى لا نقول رتابة كلام ، بل إن لذلك حكمة عند الله سواء فهمتها أنت الآن أم لم تفهمها .
وقد نزل القرآن على أمة عربية وظل أناس على كفرهم ، وكانوا يعاندون رسول الله ، ويترصدون لأي هفوة؛ ليدخلوا منها للتشييك في القرآن ، ولكن أسمعتم رغم وجود الكافرين الصناديد أن واحداً قال : ما معنى { الم } ؟
لم يقل أحد من الكافرين ذلك ، رغم حرصهم على أن يأتوا بمطاعن في القرآن ، بل اعترفوا بمطلق بلاغة القرآن الكريم ، مما يدل على أنهم فهموا شيئاً من { الم } بملكتهم العربية ، ولو لم يفهموا منها شيئاً؛ لطعنوا في القرآن . لكنهم لم يفعلوا .
وأيضاً صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أهل حرص على الفهم ، هل سمعت أن أحداً سأل رسول الله عن معنى { الم } ؟ لم يحدث ، مما يدل على أنهم انفعلوا لقائلها بسرِّ الله فيها ، لا بفهم عقولهم لها؛ لأن الوارد من عند الله لا يوجد له معارض من النفس ، وإن لم العقل فهو يرفضه مع استراحة النفس له .
وضربنا من قبل مثلاً ، فقلنا : إن آل فرعون حين استحيوا نساء بني إسرائيل وذبحوا الذكور ، فماذا فعلت أم موسى؟ لقد أوحى لها الله ما جاء خبره في القرآن : { وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم . . . } [القصص : 7]
هاتِ أيَّ أمٍّ وقُلْ لها : حين تخافين على وليدك فارميه في البحر ، طبعاً لن تنفذ أي أم هذا الاقتراح .
كان من الممكن أن تحاول أم موسى إخفاء موسى بأي وسيلة .
أما أن تلقيه في البحر مظنّة أن تنجيه من الذبح ، فهذا أمر غير متخيَّل ، ولكن هذا أمر وارد من الرحمن بالإلهام والوحي ، فلا يأتي الشيطان؛ ليعارضه أبداً؛ ولذلك طمأنها الحق سبحانه؛ لأن

الآيات وردت : { فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم . . . } [القصص : 7]
وكأن هناك تمهيداً يعلِّمها الاستعداد للأمر قبل أن يقع ، وحين جاء الأمر : { إِذْ أَوْحَيْنَآ إلى أُمِّكَ مَا يوحى * أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم . . . } [طه : 38-39]
والكلام هنا كلام عَجَلَة؛ لأن هذا وقت التنفيذ ، وطمأنها سبحانه بأن أصدر أوامره للبحر أن يقذفه إلى الشاطئ :

{ فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل . . . } [طه : 39]
وأصدر الحق أوامرع إلى العدوِّ أن يأخذه؛ ليربيه : { فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ . . . } [طه : 39]
إذن : وارد الرحمن لا يأتي له رد أبداً .
وكذلك يستقبل المؤمن { الم } بسر الله فيها ، لا بفهم عقله .
وأنا أنصح من يريد أن يقرأ القرآن تعبداً ألا يشغل نفسه بالمعنى ، على خلاف من يقول : « اقرأ لتستنبط »؛ لأن من يريد أن يستنبط هو الذي يقف عند اللفظ ، ويطلب معناه . فإذا قرأت القرآن للتعبد؛ فلتقرأه بسر الله فيه؛ حتى لا تحدد القرآن بمعلوماتك؛ فتأخذه أخذاً ناقصاً بنقصك البشرى؛ لذلك في قراءة التعبد نأخذ اللفظ بسر الله في اللفظ؛ فليس كل قارئ للقرآن متخصصاً في اللغة؛ ليعرف أصل كل كلمة ، والكثير منا أمي ، يريد التعبد بالقرآن ، إذن – فليأخذ القرآن بسر من لقنه إياها .
وقد فهم العربي القديم عن الحروف التوقيفية في أوائل بعض السور أشياء ، وللغته فيها نظائر؛ لأنه مثلاً حين يقرأ الشعر ، ويلتفت إلى شاعر يقول :
ألا هُبِّي بِصحْنكِ فَاصبِحينا ... ويقول :
ألا لايَجْهَلنْ أحدٌ علينْا ... فَنجهَل فوْقَ جَهل الجَاهِلينَا
ما معنى ألا هنا ، ولماذا جاءت؟ فالمعنى واضح بدونها ، لكن العربي القديم قد نطق هذا البيت ، وعرف أن الكلام وسيلة إفهام وفهم بين المتكلم والسامع . والمتكلم هو مالك الزمام في أن يتكلم ، أو لا يتكلم ، والسامع مفاجأ بالكلام ، فإذا ما ألقيت الكلام إلى السامع؛ قد يكون في ذهنه مشغولاً ، وإلى أن ينتبه لكلماتك ، قد تفوته جزئية من جزئيات الكلام؛ فتنبه أنت إلى ما قلت؛ فيتنبه؛ ليستوعب كل ما قلت .
إذن : فما المانع أن يكون الحق سبحانه وتعالى يريد أن يهيئ الأذهان ب { الم } ؛ حتى نسمع ، ثم تأتي الآيات الحاملة للمنهج من بعد ذلك؟
وما المانع في أن نفهم أن النبي الأمي لا يعرف كيف ينطق بأسماء الحروف ، فهو إن نطق فإنما يصدر ذلك بعد تعليم الله له؟

ولماذا لا نفهم منها أيضاً أن وسائل الفهم لا تنتهي إلى أن تقوم الساعة؟ وإلا لو انتهت عند البشر؛ لكان كلام الله قد حددت صفته بفهم البشر ، وسبحانه قد شاء أن نغترف من معاني كلماته الكثير على مدى الأزمان ، والقرآن كلام الله ، وكلام الله صفته ، وصفته لا تتناهى في الكمال ، فإن عرفت كل مدلولاتها ، تكون قد حددت الكمال بعلم ، لكن القرآن لا نهاية له .
ولماذا لا نفهم أن القرآن الذي بيّن الحق سبحانه وتعالى أنه معجزو محمد صلى الله عليه وسلم هو من جنس ما نبغ فيه قومه؛ فتحداهم من جنس ما برعوا فيه . ويقول لهم : هاتوا مثيلاً له ، ولن تستطيعوا ، ولو أنه جاء بالقرآن على غير لغتهم في الكلام لقالوا : لا نستطيع؛ لأن حروف هذه اللغة جديدة علينا .

وقد شاء الحق أن يكون القرآن من نفس الحروف التي يتحدثون بها ، وبالكلمات التي يعرفونها في لغتهم ، وشاء سبحانه أن يجعل حروف وكلمات وآيات وأساليب القرآن غير قابلة للتقليد؛ لأن المتكلم مختلف ، وبهذا جاءت عظمة القرآن لا من ناحية المادة الخام التي تبني منها الكلمات وهي الحروف؛ بل المعاني والنسق الذي جاءت به الحروف ، فالمادة الخام – وهي الحروف – واحدة . وصار القرآن معجزة؛ لأن المتكلم هو الله .
وضربنا من قبل المثل لنقرب ذلك إلى الأذهان : هب أننا نريد أن نقيس مهارة من ينسجون الأقمشة ، ونضع أمام كل منهم مجموعة من غزل الصوف وغزل القطن ، وغزل الحرير ، وهذه مواد خام يختلف كل منها عن الآخر ، ونقول لهم : كل واحد منكم عليه أن ينسج قطعة من كل صنف لنعرف الأفضل في النسج .
وسنسمع من يقول : إن نتيجة نسج الصوف نسيج خشن ، وناسج القطن سينسج قطعة تأخذ صفات القطن ، وناسج الحرير سينسج لنا نسيجاً ناعماً ، أما إن أعطينا كلاّ منهم نوعاً واحداً من الغزل؛ صوفاً أو قطناً أو حريراً ، هنا سنعرف من الأقدر على النسج .
إذن : لو أن القرآن جاء بغير حروف العرب ، وبغير كلمات العرب؛ لقالوا : لو كانت عندنا هذه الحروف وهذه الكلمات؛ لأتينا بأحسن منها .
لذلك شاء الحق أن يأتي القرآن من جنس الحروف والكلمات . ولذلك تحوم العقول حول مقدمات آيات السور؛ لتعرف شيئاً من الإيناسات بعد أن تواصلت الثقافات ، ولم تعد اللغة العربية متوافرة مثلما كان الحال أيام نزول القرآن ، ومن كانوا يملكون هذه الملكة الصافية أيام الرسول صلى الله عليه وسلم سمعوا الحروف التي في أوائل بعض السور وقبلوها ، والحق سبحانه يقول : { الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم } [يونس : 1]
و { تِلْكَ } : إشارة ، ولا بد أن نفرق بين الإشارة والخطاب؛ لأن البعض يخلط بينهما ، فالإشارة هي التي تشير إلى شيء مثل قولنا : هذا وذا ، أو تلك ، وهذا : إشارة لمذكر ، والمثال

هو قولنا : هذا القلم جميل ، أما قولنا : تلك الدواة جميلة ، فهذه إشارة لمذكر ، والمثال هو قولنا : هذا القلم جميل ، أما قولنا : تلك الدواة جميلة ، فهذه إشارة لمؤنثة . أما « الكاف » : فهي حرف للخطاب ، فالتاء : إشارة للآيات وهي مؤنثة ، و « الكاف » في { تِلْكَ } : للمخاطب ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم . فالله يقول لرسوله : تلك الآيات يا محمد .

وعلى ضوء الفوارق بين الإشارة والخطاب تختلف أساليب القرآن ، مثل قوله الحق : { فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ . . . } [القصص : 32]

و { فَذَانِكَ } : إشارة لشيئين اثنين : للعصا .

و { وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ . . . } [النمل : 12]

ويقول الحق أيضاً : { ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِي ربي . . . } [يوسف : 37]

وهذا ما قاله سيدنا يوسف عليه السلام للسجينين اللذين كانا معه . وتُظهر لنا العبارة أنه كان يخاطب اثنين ، ولكنه يشير إلى التأويل ب « ذا » .

وحين دعت امرأة العزيز النسوة؛ ليشاهدن جمال سيدنا يوسف ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً؛ وقالت : اخرج عليهن ، ولأنه مفرد مذكر ، وهن جماعة إناث ، فالعبارة تأتي بخطاب لجماعة الإناث ، وإشارة إلى المفرد المذكر فقالت : { فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي . . . } [يوسف : 32]

و « ذا » إشارة إلى سيدنا يوسف ، و « كن » خطاب للنسوة . والقرآن حين يخاطب جماعة يقول : { وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ . . . } [فصلت : 23]

إذن فهناك فرق بين الإشارة والآيات ، فال « ت » إشارة للآيات ، والآيات مؤنثة ، والمخاطب الأول بالتكليف هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والآيات – كما عرفنا من قبل – جمع آية ، والآية هي الأمر العجيب ، وكل منا يسمع من يقول : إنها آية في الحسن أو آية في الجمال ، أو آية في الفن ، أو آية في الروعة .

فالآية إذن هي الشيء العجيب ، أو الشيء الذي بلغ من الحسن ومن الجمال درجة هائلة .

وتطلق الآيات إطلاقات متعددة : فهي إما أن تكون المعجزات التي أمدَّ الله بها رسله؛ ليثبت صدقهم . { مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ } [الأعراف : 132]

وإما أن تطلق الآيات على الأشياء العجيبة في الكون مثل قوله الحق : { وَآيَةٌ لَّهُمُ اليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار . . . } [يس : 37]

وقوله سبحانه : { وَجَعَلْنَا اليل والنهار آيَتَيْنِ . . . } [الإسراء : 12]

وقوله الحق : { وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً . . . } [المؤمنون : 50]

إذن : فالآية إما أن تكون شيئاً في الكون ، وإما أن تطلق على المعجزة التي جاء بها الرسل؛

لتثبت صدقهم في البلاغ عن الله ، وقد يكون المقصود بها آيات القرآن .
إذن : فالآيات تطلق على ثلاثة أمور : الآيات الكونية للنظر والاعتبار ، وآيات إعجازية لصدق الرسول صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن الله ، وآيات قرآنية تحمل الأحكام والتحدي للمشركين أن يأتوا بمثلها .
وهنا في قوله الحق : { الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم } المراد بها : الآيات القرآنية ، وما دام الله هو خالق الآيات الكونية الحسية ، وخالق المعجزات؛ وهو منزِّل القرآن؛ فلا تعارض بين الآيات؛ لأن مصدرها واحد .
وقوله : { الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم } [يونس : 1]
وكلمة { الحكيم } معناها : الذي يضع الشيء في موضعه الدقيق بحكمة ، فلا ينظر إلى ظاهر معطيات الشيء الآن ويغفل ما قد يأتي به من مضرّة .
ولله المثل الأعلى أقول : إنك قد تصل إلى الشيء ، وتظن أنه يخلصك من متاعب أخرى ، لكنه قد يؤدي إلى شيء أضر ، وهذا هو السبب في اختلاف ألوان ووظائف العقاقير المختلفة ، ولذلك نجد الطبيب الحاذق يكتب عدداً من الأدوية؛ ليستخلص المريض منها ما يشفيه ، ويحاول بقدر الإمكان أن يُجنبه الآثار الجانبية لتلك الأدوية .
إذن : فهذه حكمة؛ لأن الطبيب لا يكتب الدواء الواحد الذي قد يأتي منه أثر ضار ، بل يكتب معه دواء يخفّف من ضرره ، وهذه حكمة منه لأنه يعمل احتياطات لما قد ينشأ من ضرر أو أثر جانبي .

وفي أوائل الخمسينات ، حاول العلماء أن يقللوا من أثر تهديد الحشرات للزروع ، واخترعوا مادة اسمها « د . د . ت » لمقاومة الحشرات ، وافتخروا بهذا كل الفخر حتى علا كل صوت ، وهذا لأن البشرية وصلت إلى مادة تقضي على الحشرات ، ولكنهم اكتشفوا أن هذه المادة تضر الكائنات الحية الأخرى ، والآن تُوقع العقوبة على من يستخدم تلك المادة؛ لأن ذلك عمل قد تم بغير حكمة . قد نأخذ منه ظاهر النفع ، لكن له جوانب متعددة من الضرر ، فقد سمّم الحيوانات وسمّم الزروع .
إذن : فالحكمة تعني : أن تضع الشيء في موضعه؛ ليعطيك فائدة لا تحدث ضرراً فيما بعد .
وقد أنزل الله المنهج في الكتاب ليقود حياتنا إلى كل صلاح . فإن طبقناه؛ فلسوف يأتي منه كل نفع ، ولن يأتي لنا أي ضرر ، وضربنا المثل في المعطيات التي أعطاها الحق لنا في الكون ، فسبحانه خلق لنا الحيوانات؛ لنأخذ من لبنها ، ونأخذ من أصوافها ، ونأخذ من أصوافها ، ونأخذ من جلودها ، ونأكل من لحومها . وهو القائل : { وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأنفس . . . } [النحل : 7]

أي : أنها ستعطينا درجة من الراحة ، وإذا كان الإنسان قد اخترع أدوات أخرى تحمل عنا هذه المشقات ، وتبلغنا غاياتنا بدون تعب؛ فهذه اختراعات تحقق مصلحة البشرية – وقد كانت البشرية تحمل أمتعتها فوق الحمار أو البغل – وقد صنع الإنسان هذه الاختراعات؛ فصارت عندنا السيارات الكبيرة التي تحمل أطناناً من المواد والمتاع ، ولكن لم نلتفت إلى ما تحدثه من عوادم تسبب فساد الهواء ، وتلوثه على عكس فضلات الحمار أو البغل ، التي تفيد في خصوبة الأرض .

إذن : فصناعة السيارات إن لم تتخلص من عيوب عوادمها بأسلوب ما ، فهي اختراع بلا حكمة ، ويجب البحث عن وسائل لإزالة أضرار احتراق الوقود ، وبذلك نستفيد من سرعة السيارات ، وقدرتها على حمل البضائع ، ونتخلص مما تسببه من ضرر . وهكذا نعرف أن الحكمة هي : وضع الشيء في موضعه المفيد فائدة دائمة لا يأتي من بعدها ضرر .

ولقائل أن يقول : وما معنى قول الحق : { الكتاب الحكيم } هل الكتاب بمفرده له حكمة؟ أم أن الحكيم هو من أنزل الكتاب؟ ونقول : إن معنى { الكتاب الحكيم } أنه الكتاب الذي يمتلئ بالحكمة الصادرة من الله ، أو الكتاب الذي أنزله الرب الحكيم . وكلمة « حكيم » على وزن « فعيل » ، ومثلها مثل « كريم » و « رحيم » وتأتي مرة بصيغة فاعل ، ومرة بصيغة فعيل ، وموضعها هو الذي يبين لنا ذلك .

ومعنى كلمة « الحكيم » يتضح لنا من سياقها : فإن نسبت الأمر إلى الحكم فهو كتاب صادر من الحق سبحانه ، وإن أردت الوصف بمعنى فاعل فهو من حاكم؛ والحاكم هو الذي يحكم في قضايا؛ ليبين وجه الحق فيها ، والقرآن يحكم في كل قضايا الإيمان .

وقمة العقيدة التي يحكم فيها القرآن هي لا إله إلا الله . ومن يفعل عكس ذلك هو الظالم ، وسبحانه القائل : { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13]

والقرآن يحسم هذه القضايا ، وهو كحاكم فاصل فيها .

فإن قلت : « محكم » تكون قد نسبته لله ، وإن قلت : « حاكم » فهو الفاعل وهو يحكم في قمة العقيدة « لا إله إلا الله » ، وهي شهادة ذات لذات ، وشهادة مشهد من الملائكة ، وشهادة أدلة من الخلق : { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم . . . } [آل عمران : 18]

وساعة يفصل القرآن في هذه القضية ، فهو يحكم حكماً عدلاً يبين وجه الحق في قمة العقائد . وهو حاكم في الأفعال؛ فيبين الحلال من الحرام ويضع حدّاً فاصلاً في الأحكام بين الحلال والحرام . وحاكم في الأخلاق .

إذن : « حاكم » تعني ما بين وجه الحق فيما تتعارض فيه الآراء والأفكار والمعسكرات المتضاربة

.

و « حكيم » : إما أن تكون بمعنى « فاعل » وإما أن تكون بمعنى (مفعول) ووقعت الحكمة من قائله عليه ، فصار « محكماً » ، وإن كانت كلمة الحكيم بمعنى فاعل تكون بمعنى « حاكم » وكلمة حاكم تدل على أن هناك فريقين : فريق يقول قضية ، وفريق آخر يناقضه ، فيأتي الحاكم؛ ليفصل بين الأمرين ، وليعدل وينصف .

وقد جاء القرآن هكذا : حاكماً في أمر القمة التي اختلف الخلق فيها؛ فمنهم من أنكر وجود إله وهم الملاحدة . ومنهم من قال : إن الإله هو غير الله ، ومنهم من قال : الإله شريك لغيره ، فجاء القرآن؛ ليفصل في هذه المسألة ، وحكم فيها حكماً واضحاً ، وبيّن : يا من تقولون : لا إله؛ أنتم كذابون ، ويا من تقولون : إن الإله غير الله؛ أنتم كذابون ، ويا من تقولون : إن الإله غير الله؛ أنتم كذابون ، وبا من تقولون : إن الإله له شركاء مع الله؛ أنتم كذابون ، بل هو إله واحد ، وهذا أول حكم في قضية القمة .

وما دام الحكم في قضية القمة قد صح؛ إذن : فالاستقبال للمنهج سيكون واحداً ، فلا آلهة متعددة يضارب هذا ذاك ، أو يناقضه ، بل هو إله واحد ، يصدر عنه حكم واحد يحقق الوحدة في التكاليف للناس جميعاً ، ويُخرج جميع الناس من أهوائهم إلى مراده هو سبحانه ، ويكون القرآن حاكماً أيضاً في الأفعال ، فقد يختلف الناس في تقييمهم لفعل واحد . فهذا يقول فعل حسن ، وآخر يقول : فعل قبيح ، ويحسم القرآن الأمر ويحدد الفعل الحسن؛ فيأمر به؛ ويحدد الفعل القبيح؛ فينهي عنه ، ويبين القرآن لنا الحلال من الحرام .

إذن : فالقرآن حكم في العقائد وفي الأفعال وفي ذوات الأشياء حلاّ وحُرْمة ، وهو يحكم أيضاً في قضية هامة تلي قضية الحكم في قمة العقيدة ، وهي صدق البلاغ عن الله ، فهذا الرسول الذي يحمل البلاغ عن الله لا بد أن يكون صادقاً ، وقد جاء القرآن بالحكم في هذه القضية بمعنى أنه قد جاء معجزاً ، فإن لم تكونوا قد صدقتم بأن هذا رسول؛ فأتوا بمثل ما جاء به هذا الرسول .

فإن عجزتم؛ فالرسول بنفسه يخبركم أن القرآن ليس من عنده ، بل من عند خالقه وخالقكم .

وسواء أكانت « حكيم » بمعنى « فاعل » أم بمعنى « مفعول » فقد دلتنا على أنها تعني وضع الأشياء في نصابها وضعاً يحقق النفع منها دائماً ، ولا ينتج عنها ضاراً أبداً .

ثم يقول الحق بعد ذلك : { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ . . . }

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (2)

ما هو العجيب – إذن – في أن الله أوحى إلى رجل منكم أن يبلغكم إنذار الله وبشارته؟ ما الذي تعجبتم منه؟ وما موضع العجب فيه؟ وجاء تحديد العجب فيه ما ذكرته الحيثية في آخر السورة السابقة من أنه : { رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . } [التوبة : 128]

أي : من البشر ، ومن العرب ، ومن قبائلكم ، ومن أنفسكم ممن تعرفون كل خُلُقه ، فما العجيب في أن يرسله الله رسولاً إليكم؟ إنكم قد ائتمنتموه على أموركم من قبل أن ينزل عليه الوحي من الله ، فكأنكم احترمتم طبعه الكريم ، وأنكم في كثير من الأشياء قبلتم منه ما يصل إليه من أحكام .

ودليل هذا أنكم حين اختلفتم في بناء الكعبة ، وقالت كل قبيلة : نحن أولى بأن نضع بأيدينا أقدس شيء في الكعبة ، وهو الحجر ، حين ذلك اختلفت القبائل؛ فما كان إلا أن حَكَّموا أول داخل؛ فشاء الله أن يكون أول داخل هو محمد بن عبد الله ، فكيف يحل محمد بن عبد الله هذه المشكلة ، ولم يكن قد نزل عليه وحي بعد؟ إنها الفطرة التي جعلته أهلاً لاستقبال وحي الله فيما بعد ، فماذا صنع؛ لينهي هذا الخلاف؟

جاء برداء ، ووضع الحجر على الرداء ، ثم قال لكل قبيلة : أمسكوا بطرف من الرداء ، واحملوا الحجر إلى مكانه . وتلك هي الفطرة السليمة . ورأينا أيضاً سيدنا أبا بكر عندما قالوا له وهو راجع من الرحلة التي كان يقوم بها : لقد ادعى صاحبك النبوة ، قال : « إن كان قد قالها فقد صدق » .

من أي أحداث جاء حكم أبي بكر . أهو سمع من رسول الله كلاماً معجزاً؟ أسمع منه قرآناً؟ لا ، بل صدَّقه بمجرد أن أعلن أنه رسول . فقد جربه في كل شيء ووجده صادقاً ، وجربه في كل شيء ووجد أنه أمين ، فما كان محمد لِيصْدُقَ فيما بين البشر ، ليكذب على الله .

وكذلك خديجة بنت خويلد حينما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : يأتيني كذا وأخاف أن يكون كذا ، فبينت له أن المقدمات التي في حياته لا توحي بأن الله يخذله ويفضحه ويسلط عليه الجن : « إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ وتنصف المظلوم ، ولن يخزيك الله أبداً » وبذلك كانت السيدة خديجة أول فقيه مستنبط في الإسلام .

وقوله سبحانه : { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً } يعني : التعجب من أن يصدر منهم العجب ، والقرآن يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب؟ وما دام يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب؟ فمن المنطقي ألا يكونوا قد تعجبوا؛ لأنك حين تتعجب من شيء فإما أن تتعجب منه؛ لأنه بلغ من الحسن مبلغاً فوق مستوى ما تعرف من البشر ، مثلما ترى صنعة جميلة وتقول : ما أحسن هذه الصنعة ، ونتساءل : ما الذي جعل هذه الصنعة جميلة إلى هذا الحد غير المتصور؟

وأنت تقول ذلك؛ لأن الصنعة قد بلغت من الجمال مبلغاص لا تصدق به أن أحداً من الموجودين في إمكانه أن يصنعها .

والمثال على ذلك : نجد من يقول : ما أحسن السماء؛ وهو يتعجب من الشيء الذي يفوق تصوره . وقد يتعجب من شيء قبيح ، ما كان يجب أن يرد على الخاطر ، ولذلك يقول القرآن : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله . . . } [البقرة : 28]

أي : قولوا لنا : كيف قبلتم لأنفسكم الكفر؟

لأن الكفر مسألة عجيبة تتنافى مع الفطرة .

وهنا يقول الحق : { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ إلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ . . . } [يونس : 2]

وهنا نتساءل : كيف تتعجبون وقد جئناكم برسول من أنفسكم ، { عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [التوبة : 128]

أليس هذا هو المطلوب في الرائد ، فكيف تعجبون؟ .

إن عجبكم يدل على أن بصيرتكم غير قادرة على الحكم على الأشياء ، وما كان يصح أن يُستقبل الرسول بالعجب ، ونحن نتعجب من عجبكم هذا .

وحين تتعجب من العجب؛ فأنت تبطل التعجب .

{ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ . . . } [يونس : 2]

أي : أن إيحاءنا لرجل منكم كان عجيباً عندكم ، وما كان يصح أن يكون أمراً عجيباً؛ لأنه أمر منطقي وطبيعي .

ثم ما هو الوحي؟ لقد سبق أن أوضحنا أن الوحي هو الإعلام بخفاء . وهناك إعلام واضح مثل قولك لابنك : يا بني اسمع كذا ، وافعل كذا . هذا إعلام واضح . وهناك إعلام بخفاء ، كأن يدخل عندك ضيف؛ ثم يسهو خادمك – مثلاً – عن تحيته ، فتشير للخادم إشارة؛ تعني بها أن يُسرع بتقديم التحية للضيف؛ من مرطبات ، أو حلوى ، وهكذا تكون قد أعلمت خادمك بخفاء .

والحق سبحانه وتعالى يوحي إلى الجماد ، فسبحانه يقول : { إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا } [الزلزلة : 1-5]

أي : أنه سبحانه وتعالى قد أعلمها إعلاماً خفيّاً؛ وهي قد فهمت بطريقة لا نعرفها .

وسبحانه يوحي للحيوانات ، فهو القائل : { وأوحى رَبُّكَ إلى النحل . . . } [النحل : 68]

أي : أنها فهمت عن الله بما أودع فيها من الغرائز .

وسبحانه يوحي للملائكة وهو القائل : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة . . . } [الأنفال : 12]

ويوحي الحق سبحانه إلى غير الرسل؛ كما أوحى إلى أم موسى { وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم . . . } [القصص : 7]

وأوحى سبحانه إلى الرسل جميعاً .

إذن : فسبحانه يوحي للجماد ، ويوحي للحيوان ، ويوحي للملائكة ويوحي للصالحين من غير الأنبياء ، ويوحي للأنبياء وللرسل .

والوحي – كإعلام بخفاء – يقتضي مُعْلِماً ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، ومُعْلَماً؛ وهو إما : الأرض ، وإما النحل ، وإما الملائكة ، وإما إلى بعض الصالحين من غير الأنبياء ، وإما إلى الرسل والأنبياء .

وقد يأتي الوحي من غير الله ، فسحبحانه يقول :

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنس والجن يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً . . . } [الأنعام : 112]

إذن : فالشياطين يُعلمون بعضهم البعض إعلاماً خفياً .

ويقول الحق : { إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ . . . } [النساء : 163]

والموحى إليه هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو وحي خاص بالرسول ، فلا تقل : أنا لم أسمع ماذا أوحى إلى محمد ، ولا أعرف كيف نزل الوحي ، فقد جاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغه أن يعلن ما أوحي إليه ، ولو كنت أنت قادراً على سماع الوحي من جبريل ، فما ضرورة إرسال الرسول إذن؟

إن الطاقة والقدرة العالية المرسلة إلى الموحى إليه تحتاج إلى قوة تحمل ، وضربنا المثل من قبل بأن الإنسان حين ينقل طاقة من مصدر عال قوى إلى مصدر ضعيف فهو لا يُسرب الطاقة من القويّ إلى الضعيف دفعةً واحدة ، وإلا لما تحمَّل الضعيف تلك الطاقة من القادمة إليه من القوى ، ولذلك نحن نأتي بمحوّل يتحمل طاقة قوى ، ثم ينقل للضعيف ما يناسب قدرته ، ومثال ذلك هو شراؤنا لمحول كهربي حين ننقل الكهرباء من مصدر طاقة عالي الجهد إلى مصدر آخر ضعيف قليل الجهد؛ مثل المصباح الصغير الذي تضيئه في المنزل ليلاً لينير بالقدر المناسب كيلا نرتطم بالأشياء ، وهو ما نسميه بالعامية « ونّاسة » . إذن : فمهمة المحول أن يستقبل من مصدر الطاقة القوي؛ ليضيء لمصدر الطاقة الضعيف .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذي يوحي للرسول ، والرسول من البشر لا يمكنه التلقي المباشر عن الله؛ لذلك لا بد من واسطة تبلغ في الارتقاء بما يمسح لها بالتلقي عن الله ، وتستطيع أن تلتقي بالبشر؛ وهذه خاصية المَلَك .

ورغم أن أصاب الجهد والتعب سيدنا رسول صلى الله عليه وسلم في أول تلقيه للوحي ، وكان صلى الله عليه وسلم يعرف حتى يتفصد العرق من جبينه ، وإذا انصرف عنه الوحي قال : « زمّلوني . . زملوني » ويرتعد .

وكان الصحابة يقولون : كان إذا نزل الوحي على رسول على رسول الله ، وهو قاعد؛ وقد تكون

ركبته على فخذ أحد الصحابة ، فيجد الصحابي ثقلاً على رجله من شدة وطأة ركبة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا نزل الوحي ، والرسول يركب مطيه فهي تئط منه .

إذن : كان الوحي يُتعب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن يُسرِّي عنه التعب؛ تبقى له حلاوة ما أوحي إليه؛ فيتشوّق ثانية للوحي .

وقد شاء الحق أن يشوّق النبي صلى الله عليه وسلك ، للوحي ففتر الوحي لمدة من الزمن . وحين اشتاق النبي للوحي؛ كان ذلك يعني أنه قد شحن نفسه بطاقة متقبلة لاستقبال هذا الوحي؛ بما فيه من تعب .

ولله المثل الأعلى دائماً ، قسْ أنت الجهد المبذول في رحلة إلى من تحب ، أثناء المطر ، والأرض موحلة ومليئة بالشوك ، ورغم ذلك أنت تقطع الرحلة دون أن تلتفت لما فيها من إرهاق وتعب .

وشاء سبحانه أن يرغِّب رسوله شوقاً إلى الوحي ، رغم ما فيه من جهد؛ لأن التقاء مَلَك ببشر ، وهذا اللقاء يكون على صورتين : إما أن ينقلب المَلَك إلى مرتبة بشرية؛ وهذه الصورة ليس فيها إجهاد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن عملية التحويل جاءت في الأعلى بينما يظل رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو ، « مثلاً دخل جبريل على رسول الله ، وكان معه بعض من الصحابة ، وسأل النبي صلى الله عليه وسلم : ما الإيمان؟ وما الإسلام؟ وما الإحسان؟ ثم اختفى السائل ، فسأل الصحابة رسول الله عن هذا السائل؛ فقال : » هذا جبريل جاءكم يُعلِّمكم أمور دينكم . «

هذه هي الصورة الأولى في الوحي ، والتحول فيها كان من جهة الإرسال فلا مشقة فيها على النبي صلى الله عليه وسلم .

أما الصورة الثانية ، فقد كان فيها مشقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الملك يظل على طبيعته ، والتحول إنما يحدث لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكان التحول يقتضي عملية كيمياوية تصيبه بالجهد؛ فيقول بعد أن يُسرى عنه : » زمّلوني . «

وشاء الحق أن يتلطف برسوله ، ففتر الوحي فترة من الزمن . وقال الكافرون من العرب : إن رب محمد قد قلاه وهذا غباء منهم؛ لأنهم اعترفوا أن لمحمد ربّا . وما داموا قد اعترفوا ، فعدم إيمانهم صلف وغباء ، وارادوا بذلك أن ينسبوا النقص لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إن الله قد قلى محمداً .

وقد شاء الحق أن ينقطع الوحي عن محمد صلى الله عليه وسلم هذه المدة؛ ليكشفهم أمام أنفسهم وأمام غيرهم ، لتنكشف نواياهم ، وتثبت قلّة بصيرتهم ، وافتقادهم للمنطق السليم ، فهم حين اعترفوا أن لمحمد ربًا ، كان عليهم أن يحتكموا إلى عقولهم؛ ليعرفوا أنهم قد أقروا بالألوهية ، لكنهم أرادوا بهذا الاعتراف أن ينسبوا النقص لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولو قاضيناهم إلى عقولهم ، وإلى الكون الذي عاشوا فيه ، وإلى الظواهر المادية المحسوسة لهم ، لعرفوا أن الأحداث لا بد لها من زمان ومكان؛ لأن كل حديث يتطلب زماناً ومكاناً ، وإذا لم يوجد حدث؛ لا يوجد زمان أو مكان .

ولذلك أقول دائماً لمن يسأل : أين كان الله؟ أقول له : أنت جئت بالأينية من الزمان ، والمكانية من المكان ، وهذا لا يتأتى إلا بوجود حدث . وما دام الله غير حدث ، فلا زمان يحدده ، ولا مكان يُحيّزه؛ لأن الزمان كان به ، والمكان كان فيه . والأحداث هي عند البشر ، فهم من يستقون في المكان ، ويتوالى عليهم الزمان .

والزمان الذي يحدث فيه أي حدث اسمه » ظرف زمان « ، والمكان الذي يحدث فيه الحدث اسمه » ظرف مكان «؛ وظرف المكان ظرف قارّ ثابت ، بينما ظرف الزمان غير قارٍ ، بل هو حال ، وبعد قليل يصبح الحال زمناً ماضياً؛ ويأتي المستقبل ليكون حاضراً ، ثم يصبح ماضياً .

وهكذا نعلم أن زمناً يحدث فيه التناوب بين المستقبل والحال والماضي ، والليل والنهار هما أوضح صور ظرف الزمان وفيهما اختلاف ، فالليل يأتي والنهار خلفه؛ لأن النهار جعله الله ضياء؛ للحركة والكدح والعمل ، وجعل سبحانه الليل ظلاماً؛ للسكون والراحة ، فإن لم ترتحْ بالليل؛ لا تقوى علة العمل في الصباح ، وهكذا يكون الليل مكملاً للنهار لا مناقضاً له .

وكذلك شاء الحق أن يكون الوحي بهذا الشكل ، فحين جاء الوحي لأول مرة أجهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم فتر الوحي ليستريح صلى الله عليه وسلم ؛ وتتجدد قدرته على استقبال الوحي من بعد ذلك .

وحين قال الكافرون : إن ربَّ محمد قد قلاه ، ردّ عليهم الحق سبحانه وتعالى : { والضحى * والليل إِذَا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى } والضحى ضحوة النهار وهي – كما قلنا – للعمل والحركة ، فإذا جاء الليل فهو يبدو وكأنه ضد النهار ، لكنه غير ذلك ، بل هو مكمل له ويساعده .

إذن : ففتور الوحي لمدة من الزمن كان لمساعدة رسول الله صلى الله عليه وسلم لتجديد الحيوية . وقد أقسم الحق سبحانه بالضحى والليل ، وهو قسم بالظاهرة الكونية المشاهدة والتي يعترف بها كل إنسان ، مؤمنهم ، وكافرهم!

أقسم الحق بالضحى أنه ما قلى رسوله ، بل شاء بفتور الوحي أن يعطيه طاقة تزيد من حركته ، وتزيد من جهده ليشتاق صلى الله عليه وسلم لأمر الوحي . وبذلك أعانه الحق على مهمته ، وفي هذا أبلغ ردٍّ على من قالوا : إن رب محمد قد قلاه ، وإثبات أن الحق قد شاء لفترة فتور الوحي أن تكون كالليل سكوناً ، ليهدأ صلى الله عليه وسلم بعد الضحى المجهد الذي استقبل به الوحي .

وبعد أن تتجدد حيويته صلى الله عليه وسلم يأتي الوحي من جديد؛ لذلك قال الحق : { وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى } [الضحى : 4-5]

وبعد هذه السورة يقول الحق سبحانه في سورة الشرح : { والضحى * والليل إِذَا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى } [الشرح : 1-4]

وهكذا بيَّن لنا الحق أن مسألة فتور الوحي وعودته هي عملية متكاملة ، لكن الأغبياء فقط هم من يظنون أنها نتناقضة ويقولون : (ظلمة – وضوء) ، و (ليلٌ – ونهارٌ) والحق أنها متكاملة .

ومثل هذا الأمر تجده أيضاً فيمن يحاولون خَلْق عداوة بين الرجل والمرأة ، ولم يتفهَّموا أن الذكر متمّم للأنثى ، وأن الأنثى متمّمة للذكر .

وهنا يقول الحق { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ إلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ الناس وَبَشِّرِ الذين آمنوا . . . } [يونس : 2]

والإنذار – كما نعلم – هو الإخبار بشيء يمكن أن تتلافاه .

أما البشارة فهي الإخبار بخير يحثُّك من يبشرك على أن تقتنيه . وأنت تنذر من يهمل في دراسته بأنه قد يرسب ، وأنت حين تنذره إنما تطالبه بأن يجتهد ، وفي المقابل فأنت تبشر المجتهد بالنجاح وبالمستقبل الطيب .

إذن : فالإنذار يعني أن تحث الإنسان على ألا يقبل أو يُقْدِمَ على ما يضره . والتبشير يعني أن تحث الإنسان على أن يجتهد؛ لينال ما يحبه . والأمور في الأحداث كلها تدور بين سَلْب وإيجاب .

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء سبحانه بالإنذار قبل البشارة؟

فنقول : إن كلمة « الإنذار » كلمة عامة لكل الناس ، حتى يتجنبوا ما يقودهم إلى النار ، لكن البشارة تكون لمن آمن فقط . أو أن الإنذار والبشارة للمؤمنين ، ولكن شاء الحق أن يجعل المؤمنين في صف البشارة دائماً ، وأن يكون الإنذار لوناً من ضرورة التخلية من العيوب ، قبل التحلية بالكمال .

فأنت تدفع عن نفسك الأمر الذي يأتي بالضُرّ أولاً ، ثم تتجه إلى ما يجلب النفع من بعد ذلك؛ لأن دَرْء المفسدة مُقدّم على جلب المصلحة .

ونجد الحق سبحانه يحدد الإنذار بأنه للناس ، والناس : هم الجنس المنحدر من آدم إلى أن تقوم الساعة . وقد وقف بعض المستشرقين عند كلمة « الناس » ، وأرادوا أن يدخلونا من خلالها إلى متاهات التشكيك في القرآن ، وقالوا : إن القرآن فيه تكرار لا لزوم له .

وأهم سورة أخذها هؤلاء المستشرقون هي سورة « الناس » حيث يقول الحق : { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الناس * مَلِكِ الناس * إله الناس * مِن شَرِّ الوسواس الخناس * الذى يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الناس *

مِنَ الجنة والناس } [الناس : 1-6]

وهذا الجمع من المستشرقين فهموا أن المعنى لكلمة « الناس » في كل آية من آيات هذه السورة هو معنى واحد . ولنهم لم يتمتعوا بملكة اللغة؛ لم يلتفتوا إلى أن معنى كلمة « الناس » في كل موقع هو معنى مختلف وضروري؛ لأن الحق سبحانه أراد بكل كلمة في القرآن أن تكون جائبة لمعناها ، وأن يكون كل معنى جاذباً للكلمة المناسبة له .

والمثال أيضاً في كلمة « الناس »؛ هو قول الحق سبحانه : { أَمْ يَحْسُدُونَ الناس على مَآ آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ . . . } [النساء : 54]

فهل كل الناس تتلقى الحسد؟ لو كان الأمر كذلك فمن الحاسد؟ إذن : فقوله الحق : { أَمْ يَحْسُدُونَ الناس . . . } [النساء : 54]

إنما يعني أن هناك أناساً حاسدين ، وآخرين محسودين ، ولا تكون كلمة « الناس » عامة شاملة لكل الأفراد إلا في حالة الحكم العام .

والمثال هو قوله الحق : { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ . . . } [آل عمران : 96]

وهذا القول الحق يحل لنا إشكالاً عاماً ، فالبيت الحرام موضوع لكل الناس ، من لَدُن آدم ، وآدم أبو الناس .

ولا بد – إذن – أن يكون البيت موضوعاً قبل أن يكون آدم ، وأن الذي وضعه هو من غير الناس ، فالذي وضعه هو بأمر من الحق سبحانه ، فلا يقولن أحد : إن إبراهيم – عليه السلام – هو الذي وضع البيت الحرام؛ لأن مهمة إبراهيم – عليه السلام – كانت هي رفع القواعد من البيت؛ لأننا لو قلنا : إن إبراهيم – عليه السلام – هو الذي بنى البيت؛ فكيف ينسجم هذا مع قوله الحق :

{ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت وَإِسْمَاعِيلُ . . . } [البقرة : 127]

وهو قول نفهم منه أن إسماعيل كان شريكاً لوالده في الرفع والبناء ، ولا بد أن يكون قد امتلك درجة من القوة تجعله قادراً على مساعدة الأب في العمل .

وهذا القول أيضاً نفهم منه أن عملية رفع القواعد من البيت لم تتم وقت أن كان إسماعيل رضيعاً؛ لأن الحق سبحانه قال على لسان إبراهيم عليه السلام : { رَّبَّنَآ إِنِي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم . . . } [إبراهيم : 37]

وهذا يعني أن البيت كان موجوداً قبل ذلك .

وقولنا هذا يرد على بعض العلماء الذين قالوا : إن إبراهيم – عليه السلام – هو أول من بنى الكعبة فنقول لهم : وماذا عن الخلق البشري من قبل إبراهيم إلى لَدُنْ آدم ، أليسوا ناساً؛ فلماذا لم يكن لهؤلاء الناس من قبل إبراهيم بيتٌ محرّمٌ؟

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يكون البيت الحرام لكل الناس من لدن آدم ، وأنه موضوع من قِبَلِ الله .

وكلمة الناس – إذن – عامة حين يتعلق الأمر بحكم عام ، وتكون خاصة في مواقع أخرى ، مثل قوله : { أَمْ يَحْسُدُونَ الناس على مَآ آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ . . . } [النساء : 54]

وأما سورة « الناس » بالاستقراء الدقيق في هذه السورة ، نجد الحق سبحانه يقول : { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الناس } [الناس : 1]

وهذا إعلان للربوبية لكل الخلق ، فهو الرب الذي أوجد وأعطى الصفات لكل مخلوق .

ولا تحسب أنك تستطيع أن تشرد منه؛ فهو سبحانه يقول : { مَلِكِ الناس } [الناس : 2]

أي : أنه يملك كل الخلق ، وجعل لهم الاختيار في أشياء؛ ومنع عنهم الاختيار في أشياء ، ولم يقل : « مليك النَّاس »؛ لأن هذا القول يعني أنهم مجبورون على الإيمان ، ولا يسعهم غير هذا ، ولكن الله جعلهم مختارين في الأمور التي هي مَنَاط للتكليف ، وغير مختارين في أمور هي ليست محلاّ لهذا .

وأقول لأي واحد ممن تمرّدوا على الإيمان؛ فكفروا بالله؛ أقول : أنت متمرّد على الله ، وتكفر به ، وتنكر الألوهية ، فلماذا لا تكون منطقيّاً مع نفسك ، وتتمرّد على كل الأحداث التي تصيبك ، فإن أصابك مرض؛ قل له : لا ، لن أمرض .

فلا أحد يستطيع أن يدفع عن نفسه قدراً شاءه الله؛ لأن الأحداث ستنال من كل إنسان من كل إنسان ما قدره الله له .

إذن : فكل إنسان هو مملوك لله .

وهكذا نجد الفرق بين أن يقول سبحانه : { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الناس } [الناس : 1]

وان يقول : { مَلِكِ الناس } [الناس : 2]

و « الناس » في الآية الأولى هم المربون ، والناس في الآية الثانية هم « المملوكون لله » فلا أحد يخرج عن قدرة الله في الأمور القهرية .

وتأتي « الناس » في الآية الثالثة : { إله الناس } [الناس : 3]

لتؤكد أن الحق هو الإله المعبود بحق ، وهو الذي يقيك مما ستأتي به الآية الرابعة : { مِن شَرِّ الوسواس الخناس } [الناس : 4]

والآية الخامسة : { الذى يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الناس } [الناس : 5]

والوسواس الخناس : هو الذي يزين لك أفعال الشر في أذنك ، وهو خَنّاس؛ لأنه يخنس ساعة يسمع قولك : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » وهو يوسوس في صدور الناس المُوَسْوَسِ إليهم .

وهكذا نجد أن كلمة « الناس » قد جاءت؛ لتعبر عن المربوبين ، والمملوكين ، والمأهولين ، والموسوس إليهم ، وأن من يوسوِس قد يكون من الجن ، وقد يكون من الناس .

إذن : فليس هناك تكرار بل جاءت الكلمة الواحدة بمعنى يناسب كل موضع جاءت فيه .

والمثال في حياتنا – ولله المثل الأعلى – قد أكون معلِّماً متميزاً واختارتني الكلية التي أقوم بالتدريس فيها لأكون رائداً للطلاب ، ورئيساً لجمعيتهم الصحفية ، ومشرفاً عليهم في الرحلات ، ومراجعاً لتصحيح أوراق إجاباتهم ، وهكذا تكون كلمة « الطلاب » لها معنى مختلف في كل موقع .

والحق يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : { أَنْ أَنذِرِ الناس وَبَشِّرِ الذين آمنوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ . . . } [يونس : 2]

والحديث موجه لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو الرسول الخاتم .

إذن : فالمراد بإنذار الناس هنا؛ هم جميع الناس .

وما المقصود بقوله : { أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ } [يونس : 2]

إن القدم كما نعرفه : هو آلة السعي إلى الحركة ، كما أن اليد آلة الإعطاء؛ فتقول : فلان له يد عندي ، أو تقول : أنا لا أنسى أياديك عليّ حين يقدم لك صديق هدية ما ، وهو قد سار على قدميه؛ ليحضر لك الهدية ، ولكنه يناولك لها بيديه .

إذن : فكل جارحة لها ظاهر في الحركة؛ وفي الأعمال . فالقدم تسعى إلى الأشياء ، واليد تتحرك في العطاء ، والأذن في السمع ، والعين في الرؤية . وهكذا يكون معنى { قَدَمَ صِدْقٍ } هو سابقة فضل؛ لأنهم حين استمعوا إلى منهج الله ، وأدَّوْا مطلوبات هذا المنهج كما يحب الله؛ فعليك يا محمد ان تبشرهم بالجنة . ذلك أن لهم سابق قدم ، سعي إلى الخير ، وهو قدم صدق .

لكن هل هناك ما يمكن أن نسميه « قدم كذب »؟

نعم ، وهو ما يخلعه الأفاقون على تواريخ الناس ، فيصفونهم بما لم يكن فيهم ، وهكذا نفرق بين قدم الصدق وقدم الكذب .

قدم الصدق – إذن – هو سابقة في الفضل أهّلتهم لأن يكونوا موضع البشارة ، فهم قد صدقوا المنهج ، وأعطوا من واعد حق .

والصدق – كما نعلم – هو الخصلة التي لا يمكن لمؤمن أن يتنحى عنها؛ لأنه لو تنّحى عنها ، فهذا يعني التنحّي عن الإيمان . وحينما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكون المؤمن جباناً؟ فقال : نعم ، فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً؟ فقال : نعم ، فقيل له : أيكون المؤمن كذاباً؟ فقال : لا .

إذن : فالصدق هو جماع الخير . وعلى الصدق تدور الحركة النافعة في الكون .

وحين يصدق التاجر في ثمن الأشياء؛ ويصدق العامل في إخلاصه للعمل؛ ويصدق الصحفي في نقل الخبر ، ويصدق كل فرد في المجتمع ، هنا يتكامل المجتمع وينسجم؛ لأن الفساد في الكون إنما ينشأ من الكذب ، والكذب هو الذي يخل بحركة الحياة .

لذلك أتى الله بكلمة الصدق في القرآن في أكثر من موضع ، فهو القائل : { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بني إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ . . . } [يونس : 93]

فحين قالوا : { لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ وَاحِدٍ . . . } [البقرة : 61]

أنزلهم الله بمكان يحقق لهم ما طلبوا من طعام ، فلم يخدعهم سبحانه ، ويأتي الحق مرة ثانية بكلمة الصدق فيقول : { واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين } [الشعراء : 84]

أي : اجعل لي ذكْراً حسناً فيمن يأتون من بعدي ، فلا يقال في تاريخي كلام كذب ، وألا يخلع عليَّ الناس ما ليسَ فيّ .

وقد قال الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن الإنسان : { وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أوزعني أَنْ أَشكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذريتي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ المسلمين } [الأحقاف : 15]

ثم يقول الحق سبحانه : { أولئك الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ في أَصْحَابِ الجنة وَعْدَ الصدق الذي كَانُواْ يُوعَدُونَ } [الأحقاف : 16]

ولماذا يصف الحق الوعد هنا بأنه وعد حق؟ لأن هناك من يعد الوعد الكاذب ، حين يعد أحدهم بما لا يملك ، أو أن تعد بما لا تقدر عليه ، أو أن تعد بما لا تمهلك الحياة لإنفاذه .

ولذلك قال الحق لنا : { وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . . } [الكهف : 23-24]

إذن : لا بد أن تسبق أي وعد بمشيئة الله؛ لأنك حين تَعد؛ قد لا تملك إنفاذ ما وعدت به ، فقد تعد إنساناً بأن تلقاه في الغد في مكان ما لتتحدثا في أمرٍ ما .

ونقول : أضمنت أن تستمر حياتك إلى الغد؟ ها هو أول عنصر قد يُفقد؛ أضمنت أن تستمر حياته؟ هذا هو العنصر الثاني الذي قد يُفقد ، ثم أضمنت ألا يتغير السبب الذي من أجله تلقاه؟ ثم أضمنت إن اجتمعت كل هذه العناصر ألا تُغير أنت رأيك في هذه المسألة؟

إذن : لا تجازف بأن تعد بشيء ليس عندك عنصر من عناصر الوفاء له ، وأسند كل عمل إلى من يملك كل العناصر ، وقل :

{ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . . } [الكهف : 24]

إذن : فوعد الصدق معناه أن يكون الوعد ممن هو قادر على أن يحققه قطعاً؛ ولا تخرج الأشياء

مهما كانت عن قدرته ، ولم يترك الأشياء؛ لأنه باقٍ . ولن يتغير رأيه؛ لأنه ليس حدثاً يتغير . بل بيده كل شي وهو على كل شيء قدير . وسبحانه وتعالى يقول : { إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ } [القمر : 54-55]

هكذا وعد الحق عباده المتقين بأنهم سوف يقعدون في حضرته مقعد صدق وهو المليك المقتدر .

وسبحانه يقول : { أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ . . . } [الإسراء : 80]

أي : أدخلني في هذه البلدة مدخل صدق للغاية التي لا أستحي من أن أقولها ، لا أن أدخل بغرض أمام الناس وأن أخفي غرضاً آخر ، وكذلك أخرجني منها مخرج صدق .

إذن : فكلمة الصدق دائرة { قَدَمَ صِدْقٍ } و { مُبَوَّأَ صِدْقٍ } و { مَقْعَدِ صِدْقٍ } و { مُدْخَلَ صِدْقٍ } و { مُخْرَجَ صِدْقٍ } وكل هذا يُحببنا في الصدق؛ لأن كل أمور الحياة؛ وفضائلها؛ وخيراتها ، وما ينتظر الناس من سعادة؛ كل ذلك قائم على كلمة الصدق .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : { وَبَشِّرِ الذين آمنوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ } [يونس : 2]

أي : أن لهم سابقة فَضْلٍ عند ربهم يجازيهم بها؛ لأنهم عملوا بمقتضى منهجه ، أما موقف الكافرين فهو مختلف؛ لذلك يقول الحق سبحانه : { قَالَ الكافرون إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ } [يونس : 2]

ولماذا جاء سبحانه بخبر الكافرين هنا رغم أن الموقف هو إنذار وبشارة؟

ونقول إن الرسول صلى الله عليه وسلم حين أبلغ المنهج عن الله ، استقبله أهل الإيمان بالتصديق ، أما الكافرون فقد اختلف موقفهم ، فَإِتَّهَمَ بعضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر .

وجاء قول الحق على هذه الصورة المبينة بالآية؛ لأن القرآن يحذف أشياء أحياناً ، لأن لباقة السامع ستنتهي إليها ، فلا يريد أن يكرر القول . وانظر إلى قصة بلقيس ، حيث نجد الهدهد يقول لسيدنا سليمان : { أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ . . . } [النمل : 22]

هذا هو الهدهد وهو المخلوق الأقل من سليمان عليه السلام يقول له : لقد عرفت ما لم تعرفه أنت ، وكأن هذا القول قد جاء؛ ليعلمنا حسن الأدب مع من هو دوننا ، فهو يهب لمن دوننا ما يُعَلِّمُه لنا ، ألم يُعلِّمنا الغراب كيف نواري سوأة الميت؟ { فَبَعَثَ الله غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأرض . . . } [المائدة : 31]

ويقول قابيل : { ياويلتى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذا الغراب فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النادمين } [المائدة : 31]

وهكذا يتعلم الإنسان ممن هو دونه ، وممن سخره الله له . وانظر كيف أبرز لنا الله أن الأدنى إن رأى خبراً ، لا بد أن يبلغه للأعلى ، فتتحقق سيولة المعلومات ، التي يتخذ الأعلى على ضوئها القرار المناسب؛ فالهدهد يقول لسيدنا سليمان :

{ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ } [النمل : 22]
ويتخذ سليمان قراراً ينفذه الهدهد : { اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ } [النمل : 28]
وتتتابع الحكاية من بعد ذلك فيقول الحق : { قَالَتْ ياأيها الملأ إني أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل : 29]
فكأن الهدهد أخذ الكتاب وألقاه إلى بلقيس فما قرأته؛ جمعت قومها؛ لتخبرهم . وهكذا حذف القرآن بعضاً من التفاصيل التي إن رُويت تكون تكراراً؛ ولكن جاءت المسألة بهذه الصورة؛ ليدلنا الحق على أن أوامر التلقي كانت سريعة بحيث لا يوجد فاصل بين الأمر وتنفيذ الأمر ، فالتحم الأمران معاً .
إذن : فقوله الحق : { قَالَ الكافرون إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ } [يونس : 2]
جاء منسجماً مع ما يُفهم من النص ، فهم لم يقولوا ذلك الاتهام إلا بعد أن بلغهم صلى الله عليه وسلم أن الله قال له : بَشِّر وأنذر ، فلما بشَّر وأنذر ، جاء قولهم بأن الرسول ساحر ، وهكذا نفهم كيف تكوَّن موقفهم هذا من سياق الآية؛ لأنهم لم يقولوا ذلك إلا بعد بلاغ الإنذار ، أو بلاغ البشارة .
وهكذا نجد أن القرآن قد لا يذكر الأشياء التي إذا سمع السامع الأسلوب أخذها من نفسه دون أن يتطلبها كلام منطوق ، ومثل هذا الأمر جاء في لقطة أخرى في قصة سبأ ، فبعد أن ائتمر الهدهد بأمر سليمان وذهب بالكتاب فألقاه إلى ملكة سبأ ، وقرأته ، وجمعت القوم؛ لتأخذ رأيهم فيما تفعله مع سليمان ، فكان من أمرها معهم ما ذكره القرآن ثم علم سيدنا سليمان بأمر مقدمها مع قومها ، فنجد سيدنا سليمان عليه السلام يسأل من حوله : { أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } [النمل : 38]
إذن : فهو قد عَلِم أنهم مُقبلون عليه بالإسلام ، فأراد أن ينقل العرش من مملكتها إلى مملكته؛ قبل أن يجيئوا ، وما داموا قادمين في الطريق ، فعلى من يذهب ليفك العرش وينقله ، لا بد أن تكون له طاقة تفوق قدرة الإنسان العادي ، ولذلك لم يتكلم الإنس العادي ، لكن الذي تكلم جني غير عادي ، ذكي ، فمن الجن من يتميز بالذكاء ، ومنهم غير ذلك .
وجاء قول الحق سبحانه : { قَالَ عِفْرِيتٌ مِّن الجن أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ } [النمل : 39]
ومقام سليمان مع قومه قد يستمر ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات . وسيدنا سليمان يريد التعجيل بنقل عرش بلقيس ، لذلك تجده يستمع إلى من عنده علم من الكتاب : { قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ . . . } [النمل : 40]
ألم يكن مثل هذا القول يحتاج إلى إذن من سيدنا سليمان ، وأن يقول سليمان اذهب فيذهب

ويحل العرش ويعود به؟ نعم ، الأمر يحتاج كل ذلك ، ولكن القرآن جاء بالقصة في تصوير متتابع للسرعة ، وجاء القرآن بخبر العرش ، وقد جاء إلى حيث يجلس سليمان عليه السلام :

{ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ . . . } [النمل : 40]

وهكذا حذف التفاصيل التي يسهل معرفتها ، والتي وقعت بين قول مَنْ عنده علم من الكتاب ، وبين تنفيذ نقل عرش بلقيس .

وكذلك حذف القرآن قدراً من الأحداث في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، فعندما بلَّغهم رسول الله الإنذار ، هنا قال الكافرون : { إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ } [يونس : 2]

وقد قال الكافرون هذا الاتهام أكثر من مرة ، فمرة يقولون عن القرآن : إنه سحر ، ومرة يقولون عن محمد : إنه ساحر . ولنسأل : ما معنى كلمة ساحر؟ إن الساحر هو الذي يصنع أشياء ، ويوهمك أنها حقيقة؛ وهي ليست بحقيقة .

ولذلك يجب أن نفرق بين السحر وبين معجزة موسى ، حتى لا يقال : إن معجزة موسى عليه السلام وهي العصا كانت من جنس ما برع فيه سحرة فرعون ، صحيح أنها من جنس ما برع فيه قوم فرعون ، ولكنها ليست سحراً؛ لأن الحق شاء أن يُغير من حقيقة العصا فجعلها أفعى ، أما سحر قوم فرعون فهو لا يغير حقيقة الأشياء ، بل يوهم مَنْ يراها بأنها تغيرت .

والسحر يقتضي ساحراً ، ويقتضي مسحوراً ، ويقتضي عملية السحر ذاتها . أما عن الساحر فهو الذات التي تقوم بعملية السحر .

ويقول الحق عن السحرة : { سحروا أَعْيُنَ الناس . . . } [الأعراف : 116]

أي : سحروا الأعين التي ترى الأمر المسحور على غير حقيقته ، رغم بقاء الشيء المسحور على حقيقته .

إذن : فهم قد أوهموا المسحورين بغير واقع ، لكن المعجزة – معجزة موسى – ليست كذلك؛ لأنها لا تُغير من الرائي ، بل تغير من حقيقة المرئي فعلاً . وقد دَلَّنَا القرآن على حقيقة هذه المسألة بالتجربة العملية حين اختار الله موسى وقال له : { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى } [طه : 17–18]

وحين أمر الحق سبحانه موسى بإلقاء العصا ، رآها موسى عليه السلام حيّةً تسعى : { قَالَ أَلْقِهَا ياموسى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى } [طه : 19–20]

فعندما رأى موسى عصاه ، قد تحوَّلتْ إلى حية تسعى على الأرض ، فرَّ هارباً خائفاً ، ولكن الله أراد أن يثبّت قلبه ويؤمنه إعداداً له للموقف الذي سيقفه فيما بعد أمام سحرة فرعون فقال له رب العزة : { خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولى } [طه : 21]

إذن : فلم يكن هناك سحر في عيني موسى ، ولكن كان هناك تغيُّر فعليّ في حقيقة العصا . فلما

خاف طمأنه الحق سبحانه وأمره بأن يلتقط العصا؛ لأنها ستعود – بإذن الله – إلى سيرتها الأولى .
والدليل على ان التغير قد حدث في حقيقة العصا ، أن السحرة الذين جمعهم فرعون من كل مكان ، ووقفوا في منافسة مع سيدنا موسى ، وقالوا له : { إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ ألقى } [طه : 65]
وقبل موسى عليه السلام التحدي ، وتجد القرآن يصور المسألة فيقول :

{ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى } [طه : 66]
وقوله : { يُخَيَّلُ إِلَيْهِ } يعني : أن الحبال والعصى لم تتغير حقيقتها ولم تسعَ . وما إن رمى موسى عصاه حتى تحولت إلى حية فعْليّة تلقف ما صنعوا ، وهذا ما جعل السحرة يسجدون ويعلنون الإيمان؛ لأنهم رأوا حقيقة واضحة ، وهي أن العصا قد تحولت بالفعل إلى حية .
إذن : فالساحر يرى الشيء على حقيقته ، والمسحور هو الذي تتغير رؤيته إلى الشيء ، فيُخيَّل إليه أنه شيء آخر؛ ولذلك لم يقل أحد : إن موسى تعلّم السحر ، وإن من علّمه غلبهم ، لا ، بل عرفوا أنها مسألة أكبر من طاقة البشر؛ لأن حقيقة العصا نفسها قد تغيرت ، فقالوا : { آمَنَّا بِرَبِّ هارون وموسى } [طه : 70]
ولم يقولوا : آمنا بموسى .
إذن : فالتخييل إنما يحدث في عيني المسحور . أقول ذلك حتى نفهم غباء كفار قريش حين اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر ، يسحر الناس ، فيخرج الولد على أبيه ، وأهله . ويجعل العبيد يتمردون على سادتهم . ولو كان رسول الله ساحراً ، فلماذا لم يُسحَر من قالوا هذا الاتهام . وبقاء من يقول بمثل هذا الاتهام دليل على أن مسألة الإيمان بالمنهج وبالرسول لا علاقة لها بالسحر .

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (3)

ومن بعد ذلك يرد الحق على حكاية العجب من أن الله أوحى لرسوله ، وكذلك مسألة اتهام الرسول بالسحر ، فيلفتهم إلى قضية فوق هذه القضية ، وأنهم كان عليهم أن يروا العجب في غير مسألة الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .
أي : كان عليكم ان تروا هذه المسألة العجيبة ، وهي خلق السموات والأرض وتتأملوا صنعها ، وكيف حدثت؟
وإذا كان الله هو الذي خلق السموات والأرض ، وجعلك أيها الإنسان تطرأ على عالم ، وعلى كون معدّ لك إعداداً دقيقاً ، فكان يجب أن تلتفت إلى هذه المسألة قبل أي شيء آخر .

وضربنا من قبل المثل ، وقلنا : هَبْ أن إنساناً ركب طائرة ، ثم نفد وقودها وسقطت في الصحراء ، وكُتبت له النجاة وتلفَّت حوله فلم يجد ماء أو طعاماً أو أي دليل من أدلة الحياة ، ثم غلبه النوم ، فلما استيقظ من نومه ، وجد مائدة عليها من أطايب الطعام ، وأطايب الشراب ، أما كان يسأل نفسه قبل أن يأكل ويشرب : من الذي صنع وأحضر كل هذا الطعام ، وكل هذا الشراب؟

وهذا الكون قد أعدَّ لك أيها الإنسان ، أما كان يصح أن تفكر فيمن أعدَّ لك هذا الكون ، وخلق لك كل ما ليس في متناول قدرتك ، وسخّر كل ذلك لك؟ وقد أبلغك الحق : أنا خلقت السماء ، وخلقت الأرض ، والشمس ، والنجوم ، وحين وصلك هذا البلاغ ، فإما أن يكون صدقاً ، فلتنفذ ما أمر به الخالق . وإن لم يكن هذا الكلام صدقاً ، فمن الذي خلق إذن؟ إن كان هناك إله غيره قد خلق الكون ، وسمع مثل هذا البلاغ ، ولم يتحرك لبيان صدق المسألة ، لما كان هذا الآخر يستحق أن يكون إلها .

وما دام لم يظهر معارض له سبحانه ، فهو الخالق؛ لأن الدعوى إذا ما صدرت من واحد ، ولم يظهر لها معارض ، فصاحبها هو من أصدرها إلى أن يوجد له معارض .

وقد ضربنا مثلاً؛ فقلنا : هَبْ أن جماعة من أصدقائك جاءوا لزيارتك ، ثم خرجوا من عندك ، ووجدت أنت حافظة نقود ، ولم تعرف لمن هي ، ثم بعثت بخادمك؛ ليسأل من كانوا في زيارتك ، وقال كل واحد منهم : إن حافظة نقوده لم تضع منه ، إلا واحداً قال : نعم ، هي حافظة نقودي . وهكذا تثبت ملكية هذا القائل لحافظة النقود ، إلى أن يثبت العكس .

والحال هنا هكذا ، فحين أبلغنا الحق أنه خلق السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وجعل في الأرض رزق البشر ، ولم يعارضه أحد ، إذن : يجب أن نصدق أنه الخالق .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق لكم كل هذا الكون مُسخَّراً أفلا تتركون له حرية أن يختار رسولاً منكم إليكم؟ فما وجه الاعتراض إذن؟

يكشف الحق منطقهم حين قالوا :

{ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31]

إذن : هم قد اعترفوا أن القرآن لا غبار عليه ، لكنهم ساخطون ويعيشون في ضيق؛ لأن هذا القرآن قد جاء على يد يتيم أبي طالب .

ويكشفهم الحق أيضاً فيأتي بما جاء على ألسنتهم : { اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء . . . } [الأنفال : 32]

ولم يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا .

فالعداوة هي لرسول الله ، وهي عداوة حاقدة غير منطقية؛ لأن كل واحد منكم كان إذا ملك

شيئاً نفيساً عزيزاً عليه ، فهو لا يجد أميناً عليه إلا محمداً .

إذن : فلماذا لا تغشون أنفسكم في مسألة استئمان محمد على الأشياء النفيسة ، ولو كنتم غير مؤمنين بصدقه . فلماذا استأمنتموه على نفائسكم؟ أليس هو محمد بن عبد الله الذي هاجر وترك عليَّ بن أبي طالب؛ ليرد الأمانات لأصحابها؟

إذن : فلا محمد دون مستوى الرسالة والأمانة ، ولا القرآن دون المستوى ، بشهادتكم أنتم؛ بشهادتي القول والفعل .

وهنا يقول الحق : { إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . . } [يونس : 3] .

وفي موقع آخر بالقرآن يقول سبحانه : { لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ } [غافر : 57]

وما دام هذا الخلق العجيب قد صدر منه ، فالتصرفات التي دون ذلك لا بد أن تكون مقبولة منه سبحانه وتعالى ، وأن تكون لحكمة ما . وتعالوا نتحاكم إلى أنفسكم ، أنتم تقولون : { لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31]

إذن : لا شك عندكم في القرآن لا طَعْنَ فيه ، بل تطعنون في مسألة أنه جاء على يد محمد صلى الله عليه وسلم ، وتمنيتم لو أن القرآن قد جاء على يد واحد آخر تقبلونه . وأنتم في هذه المسألة غير منطقيين؛ لأنكم تريدون أن تتدخلوا في قسمة الله ورحمته في أن يُنزِل الوحي على من تشاءون ، لا من يشاء هو سبحانه .

وأنتم بذلك تريدون أن تتحكموا في الرحمة العليا من الله في أن يختار رسولاً؛ ليبلغكم عنه .

وتتناسون أنكم في هذه الدنيا لا تقسمون الأرزاق؛ لذلك يقول الحق : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ . . . } [الزخرف : 32]

فإذا كنتم تريدون أن تقسموا رحمة الله ، فاعلموا هذا القول من الله : { نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا . . . } [الزخرف : 32]

وهذا الأمر السهل؛ تقسيم المعيشة في الحياة الدنيا تصرف فيه الحق سبحانه ، فكيف لكم – إذن – أن تطمعوا في تقسيم الأمر العلوي وهو رحمة الله العليا في أن يرسل رسولاً .

والحق سبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : { إِنَّ رَبَّكُمُ الله } .

وساعة تسمع كلمة « رب » ينصرف الذهن إلى الخلق وإلى التربية ، ولذلك نحن نستعمل هذه الكلمة ونقول : « فلان رب هذه الأسرة » أي : أنه المتولي تربيتها ، وكلمة « الرب » بمعناها المطلق تنصرف إلى الله ، فهو الخالق الذي خلق من عَدَم وأمدَّ من عُدْمٍ ، وهو بهذا الوصف ربّ كل خلقه : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي .

وما دام الله سبحانه ربّاً لكل الخلق ، فهو الرازق لكل خلقه ، فهو الذي استدعى خلقه إلى هذه الدنيا ، وهو الذي يعطي كل مخلوق الرزق الذي كتبه الله له ، وهو سبحانه يأمر نواميس الكون وأسبابه أن تعطي له أو لا تعطي ، فإن زرع الأرض وأحسن زراعتها؛ أعطى سبحانه الأمر للأرض أن تعطي هذا المخلوق الرزق .

وكل مخلوق يأخذ بالأسباب ، ويوفر له الحق النجاح في الأسباب .

وأقول دائماً لمن يرون تقدم الكفار في أمور الدنيا ، ويتساءلون : لماذا يتقدم الكفار في أمور الدنيا ونتأخر نحن؟ أقول لهم : لقد أخذوا من عطاء الربوبية في الأسباب ، وأنتم لم تاخذوا من عطاء الربوبية؛ حتى لا يسبقكم الكافرون إليها ، ولا تجلسوا في موقع المتفرج ، بل المفروض فيكم أن تسبقوا الكفار إلى عطاء الربوبية .

أما عطاء الألوهية ، وهو أن يُقِرَّ الإنسان بأن الله هو المعبود بحق ، وهو المطاع في « افعل » و « لا تفعل » ، فهذا العطاء لا يناله إلا مَنْ آمن به .

إذن : فالله رب الجميع ، ولكنه إله مَنْ آمكن به . إذن : هناك فارق بين عطاء الإله ، وهو المنهج المتمثل في « افعل » و « لا تفعل » ، وعطاء الربوبية المتمثل في الأمور المادية وهي شركة بين كل الناس : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي . وحين يُحسن الكافرُ الأخذ بالأسباب؛ فهو يأخذ نتائجها .

والحق سبحانه هو القائل : { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ } [الشورى : 20]

إذن : فواجب على المؤمنين أن يستقبلوا عطاء الربوبية بحسن الأخذ بالأسباب؛ ليأخذوا النتيجة ، ولا يتقدم أهل الكفر عليهم؛ لأن الكافر حين يسبقك في الأخذ بالأسباب ، ربما استغل هذه المسألة في ان يفرض عليك ما يخالف دينك .

وهنا يقول سبحانه : { إِنَّ رَبَّكُمُ الله . . . } [يونس : 3]

أي : أن الذي ربَّي ، هو الذي كلَّف ، ويجب أن تستمعواإلى منهجه .

ثم يقول سبحانه : { الذي خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . . } [يونس : 3]

وكلمة { سِتَّةِ أَيَّامٍ } هذه وردت في كل آيات القرآن التي تحدثت عن زمن مدة الخلق للأرض والسموات ، لكن هناك آية جاءت بتفصيل ويظهر من أسلوبها أن الخلق قد استغرق ثمانية أيام ، وهي في سورة فصلت : { قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ } [فصلت : 9-10]

وهذه ستة أيام .

ثم يقول سبحانه : { ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ

أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات فِي يَوْمَيْنِ وأوحى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السمآء الدنيا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم }

[فصلت : 11-12]

وهكذا يكون المجموع ثمانية أيام ، وهذا هو الفهم السطحي؛ لأن آيات الإجمال جاءت كلها بخبر الخلق في ستة أيام . وتعلم أن كل مُجمل يفسره مُفصَّلة إلا العدد؛ فإن مفصَّله محمول على مجمله ، فالأرض خلقها الله في يومين ، وجعل فيها رواسي ، وبارك فيها ، وكل مخلوق ثان هو تَتمَّة للأول ، فاليومان الأولان إنما يدخلان في الأربعة الأيام ، وأخذت بقية الخلق اليومين الأخيرين ، فصار المجموع ستة أيام .

إذن : فالزمن تتمة الزمن ، ولذلك تجد أن اليوم على كوكب الزهرة أطول من عامها؛ لأن عامها بتوقيت الأرض هو مائتان وخمسة وعشرون يوماً ، أما طول اليوم فيها فهو بتوقيت الأرض مائتان وأربعة وأربعون يوماً .

إذن : فاليوم على كوكب الزهرة أطول من العام فيها . والسر في ذلك أن كوكب الزهرة يخضع لدورة تختلف في سرعتها عن سرعة الدورة التي تخضع لها الأرض ، فدورة كوكب الزهرة حول نفسه بطيئة ، ودورته حول الشمس سريعة .

إذن : فكل كائن له نظام .

وما هو اليوم إذن؟ اليوم في اعتبارنا هو دورة الأرض حول نفسها دورة يتحقق فيها الليل والنهار . ولكننا نجد القرآن الكريم يطلق كلمة اليوم ويفصلها عن الليل ، فيقول سبحانه : { سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً . . . } [سبأ : 18]

وهنا جعل الحق اليوم للضوء والكدح ، والليل للظُّلمة والراحة . والحساب الفلكي يسمى الليل والنهار يوماً .

ويبين القرآن لنا أن هناك يوماً للدنيا ، ويوماً للأخرة ، ويوم الدنيا هو ما نحسبه نحن من شروق إلى شروق آخر ، وكذلك هناك يوم عند الله هو بحساب الدنيا يقدر بألف سنة مما يحسبه البشر : { وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } [الحج : 47]

ويقول الحق في موضع آخر : { تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ } [المعارج : 4]

إذن : فالأزمنة متعددة ، ومنوعة ، وتختلف من قياس إلى آخر ، ومن كوكب إلى آخر . وما أظهره الله لنا في القرآن من الأزمنة إنما يدل على اختلافها ، لا على التعارض والتناقض .

ثم يقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : { ثُمَّ استوى عَلَى العرش } ووقف العلماء عند كلمة « اسْتَوَى » طويلاً ، واستعرضوا القرآن كله؛ ليحصروها في كتاب الله؛

فوجدوها قد جاءت في اثنتي عشرة سورة : البقرة والأعراف ويونس والرعد وطه والفرقان والقصص والسجدة وفصلت والفتح والنجم والحديد .

وأول سورة جاء فيها ذكر استواء الله على العرش هي « الأعراف » يقول الحق : { الذي خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش يُغْشِي اليل النهار يَطْلُبُهُ حَثِيثاً والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين } [الأعراف : 54]

وما دام الله سبحانه هو الذي خلق فلا تعترض أن يكون الأمر له ، وأن يبعث سبحانه من شاء؛ ليكون رسولاً؛ لذلك فلا عجب أن أرسل لكم رجلاً منكم؛ لأنه لو كان هناك غيره سبحانه هو الذي خلق ، ثم جاء ليفتئت فيأمر فيما خلق ، لكان للخلق شأن آخر ، لكن الله هو الذي خلق ، وهو سبحانه الذي أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم .

والآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول فيها الحق : { إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش } ، أي : استتب له الأمر .

ثم تأتي آية سورة الرعد : { الله الذي رَفَعَ السموات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ استوى عَلَى العرش وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأمر يُفَصِّلُ الآيات لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } [الرعد : 2]

أما الصفات التي توجد في البشر ، ووصف الله نفسه بها ، هذه الصفات لا تؤخذ على مقتضى ما هي في البشر ، فكل إنسان هو ممكن الوجود . ولكن الحق سبحانه وتعالى هو واجب الوجود؛ لذلك تؤخذ تلك الصفات في إطار { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . } [الشورى : 11]

ومثال هذا : أن الحق سبحانه وتعالى له عِلْم بأنك تقرأ الآن في التفسير ، وفي أي مكان تقرأه ، والذين من حولك يعلمون ذلك ، ولكنْ أعلْمُ الله يساوي علمَك وعلمَ مَنْ حولك؟ لا ، فعلمه سبحانه وتعالى هو عِلْم أزليّ ، عِلْم قبل أن توجد أنت أو يوجد غيرك؛ لذلك فأنت إذا عَلمت شيئاً ، وعَلمَ الله شيئاً ، فعِلْم الله يناسبه ، وعلْم البشر يناسبك . وأيُّ صفة من صفات الله مطلقة ، وأيُّ صفة من صفاتك نسبية؛ لأن الحق سبحانه هو واجب الوجود الأزلي ، وأنت في هذه الحياة مجرد حدثٍ محدود العمر بين قوى الميلاد والموت .

فالله غني ، وقد تكون أنت غنيّاً ، لكن غناك لا يمكن أن يتساوى مع غنى الله . وأنت موجود والله موجود ، ولكن وجودك لا يمكن أن يُقَاس بوجود الله . فذاتُ الله ليست كذواتنا ، وكذلك صفات الله ليست كصفاتنا ، وفعْله ليس كفعْلنا ، واستواؤه سبحانه ليس كاستوائنا ، بل في إطار { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } لأن الذي يُفْسد الفهم أن يقال : « استوى » بمعنى : قعد . أو فلنأخذ الاستواء كتمثيل للسيطرة ، وسبحانه مسيطر على كل شيء ، والاستواء : يعني التمكن .

وسبحانه القائل : { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واستوى . . . } [القصص : 14]

إذن : فاستوى : تعني بلوغ تكوين الكمال في الذات . والإنسان منا وهو صغير – قبل البلوغ – إنما تنقصه بعض من درجات النضج في الجهاز العصبي ، وكذلك في الجهاز التناسلي ، فإذا ما بلغ اكتمل النضج ، ويقال : (اَسْتَوَى) أي : صار قادراً على إنجاب مثله ، وتمت له رجولته .

ويقال عن الثمرة : إنها استوت { فاستوى على سُوقِهِ } [الفتح : 29]

أي : نضجت نُضْجاً يبلغها أن تعطي من ثمرتها مثل ذاتها ، وبذلك تضمن بقاء نوعها .

وحين بلغ الطوفان تمامه استوت مركب سيدنا نوح ومعه المؤمنون من قومه ، وقال الحق :

{ واستوت عَلَى الجودي . . . } [هود : 44]

أي : استقرت على الجبل واستتب الأمر .

إذن : فكل استواء لله يجب أن يؤخذ على أنه استواء يليق بذاته ، وصفاته ، التي قد يوجد في البشر مثلها ، لكنها صفات مطلقة في إطار : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . } [الشورى : 11]

وفعْل الله لا يمكن أن يتساوى مع فعل البشر؛ ولذلك قلنا في حديث الإسرَاء : إن الكفار المعاصرين للإسراء حينما كذَّبوا النبي صلى الله عليه وسلم في أنه قد أسرى به ، قالوا : أتدَّعي أنك أتيتَ بيت المقدس في ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً؟ وهذا القول المستنكر يؤكد أنهم قد فهموا أن الإسراء قد حدث حقيقة .

ورغم ذلك تجد بعض المعاصرين – الذين يدعون المعاصرة والفهم – يتساءلون : ولماذا لا تقولون : إن الإسراء قد تَمَّ بالروح؟ ونقول لهم : إن كفار قريش أنفسهم الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقولوا ذلك ، وفهموا أن الإسراء قد تمَّ بالجسد؛ لذلك قالوا : « أنضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، وتدَّعي أنك أتيتها في ليلة؟ » بل ، ولم يقولوا له : إنه رأى بيت المقدس في رؤيا أو حُلْم؛ لأنه لا أحد يُكذِّب رؤيا أو حُلْماً ، وهكذا كان تكذيبهم دليلاً على التصديق للإسراء إلى أن تقوم الساعة .

ونقول لمن يدَّعي أن الإسراء إنما تَمَّ بالروح : افهم جيّداً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أسري بي » .

إذن : فعْل الإسراء منسوب لله ، لا لمحمد صلى الله عليه وسلم . والقرآن يقول : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً . . . } [الإسراء : 1]

وما دام الحق قد قال : (سُبْحَانَ) أي : أن الله مُنَزَّهٌ عَمَّا في بال البشر من المسافات والقوة وغيرها .

ولقد ضربنا مثلاً لهذا – ولله المثل الأعلى – برجل يصعد بابنه الرضيع قمة جبل « إفرست » ، فلا يقال : وهل يصعد الرضيع قمة الجبل؟ فالصعود منسوب هنا للرجل ، ولقدرة الرجل وقوته ، لا إلى الطفل .

وهكذا – ولله المثل الأعلى – فالزمن والقدرة على الإسراء منسوبان لله سبحانه ، لا إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

ونحن في مجالنا البشرى تختلف قدراتنا في قطع المسافات وأزمانها ، فمن يركب عربة يجرُّها حصان فقد يصل من القاهرة إلى الإسكندرية في أيام ، ومَنْ يركب سيارة فقد يصلها في ساعتين . ومَنْ يركب طائرة فقد يصلها في نصف ساعة .

إذن : فكلما زادت القوة تجد الزمن يقل ، فما بالنا بقوة القويّ؛ أيكون معها زمن؟ طبعاً لا .

وقال الحق سبحانه لسيدنا نوح : { فَإِذَا استويت أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الفلك . . . } [المؤمنون : 28]

أي : بعد أن ركب معك يا نوح مَنْ آمن من قومك ، واطمأننت على نجاتهم ، ستسير السفينة بإذن ربها .

إذن : فقول الحق عن ذاته : { استوى عَلَى العرش .

. . } [يونس : 3]

يعني أن الأمور قد استتبت وتمت . وهكذا نفهم أن كل شيء يتعلق بالحق سبحانه وتعالى نأخذه في إطار : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . } [الشورى : 11]

وأن كل صفة من صفاته يأتي تمثيلها ليقرب المعنى فقط ولا يعطي حقيقة المعنى؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شيء . وهكذا فسبحانه له استواء يليق بذاته ، لا كاستواء البشر .

والشاعر أبو تمام حين جاء ليمدح الخليفة المعتصم ، نظر إلى الصفات التي اشتهر بها بعض القوم ، « فحاتم » على سبيل المثال كان قمة الكرم . و « عنترة » هو قمة الشجاعة ، « والأحنف بن قيس » قمة الحكمة ، فقال الشاعر أبو تمام عن الخليفة :

إقْدَامُ عَمْرٍو في سَمَاحةِ حاتمٍ ... في حِلْمِ أحْنَفَ في ذكاء أيَاسِ

وهكذا صار الخليفة مَجْمع فضائل؛ لأنه أخذ إقدام عمرو ، وكرم حاتم ، وحلم الأحنف ، وذكاء إياس . ولكن حاسد الشاعر قال : إن الأمير فوق كل من وَصَفْتَ ، فهؤلاء جميعاً بالنسبة للخليفة صغار . وقال أحد الشعراء :

وشبهه المدَّاح في البأس والنَّدى ... بمَنْ لو رَآهُ كان أصغَر خادِمِ

ففي جَيْشِه خَمسُون ألْفاً كَعنْترٍ ... وَفي خَزَائِنه ألفِ حاتِمِ

وحين سمع الشاعر الأول ذلك ، وكانت قصيدته الأولى « سينية » ، أي : أن آخر حرف في كل أبياتها هو حرف السين ، فجاء بأبيات أخرى من نفس بحر القصيدة الأولى : وقال :

لا تُنْكِروا ضَرْبِي له مَنْ دُونهُ ... مَثلاً شَروداً في النَّدَى والباسِ

فالله قَدْ ضَرَبَ الأقَلَّ لنورِهِ ... مثلاً من المِشْكَاةِ والنِّبراسِ

إذن : فهناك فَرْق بين تمثيل الشيء ، وبين حقيقة الشيء ، فحين قال الحق : { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المصباح فِي زُجَاجَةٍ . . . } [النور : 35]

فهذا مثل توضيحي للبشر . وشاء الحق ذلك ليعطينا مجرد صورة؛ لأنه يتكلم عن أشياء لا وجود لها عندك . ولذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول عن الجنة : « فيها ما لا عَينٌ رأت ، ولا أُذُنٌ سمعتْ ، ولا خَطَر على قلبِ بَشَر » .

وأنت حين ترى؛ فللرؤية حدود . وحين تسمع فأنت تسمع مرائي غيرك ، وما لا يخطر على البال هو القمة ، فقد ارتقى الرسول في وصفه للجنة من حدود ما تراه العين إلى آفاق ما تسمعه الأذن ، ثم ارتقى من حدود السمع إلى ما لا يخطر على البال؛ لأنه صلى الله عليه وسلم علم أن اللغة هي ألفاظ تعبر عن معان ، والمعاني تزجد أولاً ثم نأتي لها بالألفاظ؛ ولذلك فالأمثال لمجرد التوضيح باللغة .

وهكذا نطون قد استوفينا فهم قوله الحق : { ثُمَّ استوى عَلَى العرش } بما يليق بذات الله ، فلا نأخذ الاستواء على المعنى الذي يدل على مكان محيّز؛ لأنه سبحانه مُنَزَّه عن أن يكون متحيزاً في مكان؛ فذاته سبحانه ليست كالذوات ، وفعله ليس كالأفعال ، وصفاته ليست كالصفات .

ثم يقول بعد ذلك : { يُدَبِّرُ الأمر } أي : أنه يرتب الوجود ترتيباً يجعل كل شيء موضوعاً في مكانه بحكمة .

والحق سبحانه وتعالى له صفة علم ، وصفة إرادة ، وصفة قدرة ، وصفة العلم هي التي تخضع كل شيء في مكانه بحكمة . وصفة الإرادة هي التي تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه . وصفة القدرة تبرز المراد لله .

إذن : فهناك علم ، وهناك إرادة ، وهناك قدرة تبرز المراد على وفق العلم . ومن المنطقي أن يدبر الله كل أمر؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق السموات وخلق الأرض . واستوت له الأمور بحيث لم يعد هناك خلق جديد إلا ما يبرزه ب « كن » . وهو سبحانه بعد أن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وسخَّر له السموات والأرض؛ لذلك لا بد أن يدبر سبحانه للإنسان أمور مادياته ، وأمور قيمه .

أما أمور الماديات فد ظهرت في خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والماء والهواء . وما في الأرض من عناصر تنبت للإنسان ما يحتاج إليه في قوام حياته ، وهو سبحانه الذي خلق كل ذلك قبل أن يخلق الإنسان ، ثم جاء بالإنسان ليكون الخليفة والسيد .

إذن : فالإنسان هو الذي طرأ على هذه الأمور المادية ، وكان لا بد أن يُنزِلَ الحق سبحانه قيماً يحيا بها الإنسان كخليفة في هذه الأمور المادية .

وهكذا خلق الله القيم المعنوية ، فلا تقولوا : لماذا أرسل رسولاً لا يُحسب في نظر بعض الناس من

عظماء أقوامهم ، ولا تقولوا لماذا أرسل محمداً بالتحديد؛ لأن هذا الإرسال هو من ضمن تدبير الأمور ، و { اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . . . } [الأنعام : 124]

إذن : فقوله : { يُدَبِّرُ الأمر } جاء ليؤكد نَفْي التعجب من أن يكون الوحي لمحمد صلى الله عليه وسلم : { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ . . . } [يونس : 2]

وعلتها أن الله هو ربكم وهو الذي خلق ، ولا يجادل أحدٌ الله فيما خلق ، وفيمن خلق . وإذا كان هو سبحانه الذي خلق الإنسان والكون ، فلا بد أن ينظم حركة الوجود بين الإنسان والكون؛ لذلك اختار الرسول المناسب؛ ليحمل منهج القيم للإنسان في « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » . ثم ترك الحق للإنسان أموراً لا يقول له فيها : افعلها أو لا تفعلها ، فهي من المباحات .

وإذا استقرأت الأفعال والأحداث ، ستجد أن الذي قال الله فيه « افعل » قليل ، والذي قال الله فيه « لا تفعل » قليل . وبذلك تجد المباحات أكثر من « افعل » وأكثر من « لا تفعل » . وما دام سبحانه هو الذي شاء ذلك ، وترك لك أيها الإنسانُ الكثير من الأمور المباحة ، فاترك القيم لله؛ لأن الكون المادي المخلوق لله في غاية الدقة وفي غاية النظام ، ولم تمتنع الشمس أن تشرق أو تعطي ضوءها وحرارتها للناس ، وما امتنع القمر أن يعطي نوره ، وما امتنع السحاب أن يسقط مطراً مدراراً ، وما امتنعت الأرض أن تتفاعل مع أي غَرْس تغرسه فتعطيك الغذاء ، وكل شيء داخل في نطاق القدرة في النواميس العليا؛ مُحكم؛ ولا خلل فيه .

وإذا نظرتم إلى غير ذلك وجدتم الخلل قد حدث؛ لأن الشيء الذي لا تدخل فيه قدرة الإنسان وإرادته هو على أتم ما يكون من النظام ، ولا يفسد إلا الشيء الذي للإنسان فيه عمل واختيار ، ولا يعني ذلك أن كل أعمال الإنسان تعاني من الخلل ، لكن الأعمال التي تعاني من الخلل هي الأعمال التي يُقبل عليها الإنسان دون منهج الله . ولو اخترنا البدائل على ضوء منهج الله ، لاستقامت القيم كلها ، كما استقامت لنا نواميس الكون العليا .

فإذا رأيتم فساداً فلوموا أنفسكم؛ لأن الأمر الذي لا تتناولونه بأيديكم ولا دخل لكم فيه ، يعمل غاية في الدقة ، فإن أردتم أن تعمل أموركم الاختيارية بغاية الدقة؛ فخذوا منهج الله في الأفعال ، ولا تفسدوها أنتم بأن تختاروا البدائل على غير مرادات الله .

ولذلك أقول دائماً : إنك إذا ما رأيت عورةً في الوجود ، يتعب منها المجتمع ، فاعلم أن حدّاً من حدود الله قد عُطِّل . وإن وجدت أمة متخلفة ، فاعلم أنها عطلت حدود الله ، وإن وجدت أمة تعاني من أمراض اجتماعية جسيمة ، فاعلم أنها لا تطبق منهج الله .

ويخطئ مَنْ يقصر فَهْمَ عبادة الله على أنها الانقطاع في المسجد ، أو الصوم ، أو إخراج الزكاة في ميعادها ، أو الذهاب إلى الحج ، فكل هذه هي رؤوس الإسلام تشحن العبد ليعمل وَفْق منهج

الله ، فالصلاة هي إعلان الولاء لله خمس مرات في اليوم ، ومدة الصيام شهر كل عام ، والزكاة إنما هي من فائض المال ، والحج هو تَرْكٌ للمال والأهل والولد .

كل ذلك من أجل شحن الطاقة ، فإذا ما شحنت الطاقة ، فوجِّه الطاقة إلى عمل آخر . ولنأخذ الصلاة مثلاً : فأنت تحتاج إلى طاقة تُقيمك وتُقعدك وتستبقي حياتك؛ وقوة حركتك تحتاج كل ذلك لتصلي!

إذن : فأنت تحتاج إلى طعام ، ولن تُطْعم ما لم يَكُنْ لك عمل يتيح لك شراء الطعام ، وحتى يبيع لك التاجر الخضر واللحم ، والفاكهة والخبز ، هو يحتاج إلى مَنْ ينتج ذلك ، ومَنْ ينتج الأطعمة يحتاج إلى مَنْ يدرس طبيعة الأرض والبذور ومعرفة الأوقات ، وكل هذه الأمور تحتاج إلى أجهزة منظمة لإنتاج الطعام . فمن يزرع يحتاج إلى محاريث تحرث ، وهذا يستلزم وجود الحديد وآخرين ليصهروه ويستخرجوا منه ما يصلح لصناعة المحاريث .

إذن : فقيامك إلى الصلاة يحتاج إلى كل هذه الأعمال . وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وهكذا تجد أن كل الأعمال التي تُسهِّل لك العبادة هي أعمال واجبة . والمثال : أنك حين تصلي تحتاج إلى سَتْر عورتك؛ لذلك تشتري القماش ليُفصِّل لك الخائط ما ترتديه من ملابس ، وكل هذه الأعمال التي تنتج القماش وتصنع الثياب هي أعمال واجبة ، بدءاً من زراعة القطن أو الكتان أو التيل وغيرها إلى المغازل ومصانع النسيج ، وغير ذلك .

وهكذا تجد أن كل الأعمال التي يتم الواجب بها هي أعمال واجبة ، فَسَتْر العورة أمر شرعي ، وهكذا يتسع مفهوم العبادة ليكون معناها : كل حركة تؤدي إلى إبقاء الصالح على صلاحه وزيادة الصالح إلى ما هو أصلح .

والمثال الذي أضربه دائماً : هو حاجة الإنسان إلى الماء للشرب ، والغُسْل من الجنابة وطهو الطعام وغير ذلك ، وكان الإنسان قديماً يشرب من الآبار ، ثم تطور التفكير إلى إقامة شبكات لتوزيع المياه بعد تنقيتها ، كل هذه أعمال تُزيد الأمر الصالح صلاحاً؛ لأنك أخذت الماء من المطر الذي ملأ النهر ، وأعليْتَ الماء في خزانات لتنقيته ، ثم اكتشفت قوانين الاستطراق ومضخات المياه؛ ليصل الماء الطاهر إلى كل من يحتاجه . وهكذا تزيد الصالح صلاحاً بالتفكير واستخدام العلم بما يفيد الإنسان ، إذن : فهذا عمل عبادي ما دامت النية فيه لله .

وانظر إلى يوم السوق في أي قرية ، تجد من يدخله ومعه الماشية والأنعام التي يرغب في بيعها ، وتجد مَنْ يدخل بالفواكه والأطعمة ، ومَنْ يدخل ومعه الثياب أو أدوات المنزل ، وتجد من يدخل ليس معه شيء ، وبعد انتهاء السوق تجد كل إنسان قد خرج بما يحتاج ، لا بما دخل لبيعه .

وهكذا ألقى الله الخواطر في قلب وتفكير إنسان ما ليبيع ما لا يحتاجه ، وآخر ليشتري ما يحتاجه من إنتاج غيره .

وأنت إذا نظرت إلى قرية ما ، ستجد واحداً من أعيانها يرغب في بيع أرضه وقصره ، ويرغب في الرحيل إلى بلدة أخرى ، وهكذا ترى الميزان الاقتصادي الإلهي ، الذي يوزع العباد في الأماكن التي تليق بكل واحد منهم ، فإذا ما زاد واحد عن الحاجة في مكان ، فهو يرحل إلى مكان آخر يحتاجه . وهذا هو التدبير الإلهي على أحسن ما يكون .

وقد تجد – مثلاً – الطفل يكتب بيده اليسرى ، على عكس أقرانه ، وقد تضربه على ذلك ، فيعجز عن الكتابة باليمنى وباليسرى ، وحين يقول لك الطبيب : لقد شاء الله أن يجعل ابنك موهوباً في الخط الجميل ، وهو يكتب بيده اليسرى ، فأنت تتعجب ، وتكتشف بالفعل أن خط الطفل باليد اليسرى جميل .

وأقول دائماً لمن يشكون أن بعضاً من أولادهم يكتبون باليد اليسرى أو يأكلون باليد اليسرى ، أقول لهم : إن هذه المسألة تتعلق بالجهاز العصبي للإنسان ، فهناك من خلقه الله ليَعْملَ باليد اليمنى ، وهناك من خلقه الله ليعمل باليد اليسرى ، وهناك من خلقه الله ليعمل بيديه الاثنتين ، مثل سيدنا عمر – رضي الله عنه – وكان « أضبط » أي : يعمل بيديه الاثنتين .

وعلينا أن نحترم أقدار الله فيما خلق ومَنْ خلق . فسبحانه يخلق ما يريد ، لا وَفْق قوالب ، بل يخلق ما يشاء ، ومع كل خَلْق مراد معين . وكما أحسن الحق تدبير ما ليس لكم دَخْلٌ فيه ، فاعلموا أنه قد أنزل المنهج لِيُحسِّن مما لكم فيه دَخْلٌ ، ويجعل أموركم منتظمة ، وكل ذلك يدخل ضِمْنَ تدبير الأمر .

وأنت إذا نظرت إلى معنى كلمة « أمر » تجد أنها كل شيء ينشأ ، ولماذا عدل سبحانه عن قول : « شيء » إلى قول : « أمر »؛ لأن كل شيء لا يوجد في الوجود إلا ب « كن » وهي أمر .

وسبحانه القائل : { إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [يس : 82]

وسبحانه يدبر الأمر في السنن المادية التي لا تتناولها يد الإنسان ، فإن أراد الإنسان أن يضبط أمور حياته ، فليأخذ بالمنهج الذي أنزله الله ب « افعل » و « لا تفعل » ، وأما المباحات فهي كثيرة ، والإنسان حرٌّ فيها .

وإذا ما سأل سائل : ولماذا اتَّبع المنهج؟ أقول : إن الحق شاء أن يخلق الإنسان على هيئتين : هيئة إرغامية قهرية ، وهيئة اختيارية ، فأنت أيها الإنسان مقهور في أشياء ، ومُختار في أشياء أخرى؛ أنت مقهور في التنفس ، وتتنفس آلياً دون تدخُّل منك ، تتنفس مستيقظاً أو نائماً ، ولو كان التنفس باختيارك ، لاحتجْتَ إلى مَنْ يدير حركة تنفسك وأنت نائم؟

إذن : فمن رحمته سبحانه أن جعلك مقهوراً في مثل هذه المسألة وكذلك نبضات قلبك ، أنت مقهور فيها ، وكذلك أنت مقهور في الحركة الدودية للأمعاء ، وللحركة الانبساطية والانقباضية في المعدة ، وإفراز العصارات الهضمية ، كل ذلك أنت مقهور فيه ، وأنت مُختار في أشياء أخرى ،

كأن تشتري من البائع الفلاني ، أو بائعٍ غيره ، وأنت مُخَيّر في أن تختار أصناف الطعام التي تهواها .

والمباحات في الوجود كثيرة ، وما أكثر ميادين الحرية في الحياة ، وما حدده لك الحق سبحانه وتعالى ب « افعل » و « لا تفعل » ، لا يخرج عن أمور محصورة تصونك وتصون مجتمعك ، وكذلك الكون الذي تحيا فيه . وإنْ مارسْتَ أيها الإنسان حريتك في الأمور المباحة على أي لون شئت ، فذلك لا يفسد الكون .

وقد شاء الحق سبحانه – أيضاً – أن تكون مقهوراً في بعض الأمور حتى لا يفسد الكون ، فإن أكلت ما شئت من المأكولات غير المحرمة؛ فأنت حرٌّ ، وإن سلك كل إنسان كما يهوى في الأمور المباحة؛ فلا مانع لذلك . وكل البشر يختلفون .

وأراد سبحانه أن يحمي الإنسان والكون؛ لأنه علم أزلاً أن أهواء البشر تتضارب ، وهو القائل : { وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض . . . } [المؤمنون : 71]

ولهذا نرى أن تدبير الله فيما لا دخل لنا فيه ، تدبير مُحْكَم ، وما يسير بدون تَدَخُّل من البشر إنما يتبع نظاماً مستقيماً ، وشاء الحق أن يجعل نواميس الكون تعمل بدقة يندهش لها المؤمنون بالله والكافرون به ، فسبحانه يحكم في مُلْكه بدقة متناهية؛ حتى إن بعض العلماء ممن لا يؤمنون بمنهج الله قد حددوا مواعيد الكسوف الكلي أو الجزئي للشمس أو القمر بدقة متناهية وذلك باستقرائهم لمعطيات الكون .

وما دُمْتم أنتم تتميزون على الكافرين بالإيمان بالله ، فخذوا منهج الله في حياتكم؛ لتستقيم أموركم بمثل استقامة الكون .

ولذلك قال سبحانه : { يُدَبِّرُ الأمر . . . } [يونس : 3]

ويضيف : { مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ } وجاء الحق بمسألة الشفاعة بعد مسألة تدبير الأمر؛ لأن هؤلاء الكافرين الذين تعجبوا من إرسال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، كانوا يعبدون ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : إن تلك الأصنام تشفع لهم عند الله ، مصداقاً لقوله الحق : { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله . . . } [يونس : 18]

ولذلك يُفصِّل الحق سبحانه مسألة الشفاعة . فالإنسان لا يحتاج إلى شفاعة عند مَنْ يملك الأمر إلا إذا ارتكب جُرْماً أو حدث منه تقصير في أمر ما . والآية أوضحت أنهم يعبدون ما لا يضرهم إن لم يعبدوه ، وما لا ينفعهم إن عبدوه . واقرأوا أن مثل هذه الأصنام إنما تشفع لهم ، والشفاعة من الشفع ، والشفع ضد الوتر . والوتر هو ما لا يقبل القسمة على اثنين ، فيكون الوتر رقماً فرديّاً .

والعبد من هؤلاء له موقف من الإله الذي يعبده ، وهو غير قادر على مواجهته؛ لأنه مقصر ، فبدلاً من أن يقابله فرداً يأتي بآخر معه؛ ليشفع له ، وهكذا يكون معنى الشفع هو تعضيد الفرد بواحد آخر؛ فينتقل من كونه وتراً إلى كونه شفعاً .

وكان الكفار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون عن تلك الأصنام : إنهم شفعاء لهم عند الله ، فيقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : { مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ . . . } [يونس : 3]

لأن الشفاعة تقتضي شافعاً ومشفوعاً عنده ، ومشفوعاً له ، ومشفوعاً فيه ، هذه هي الأربعة العناصر في الشفاعة . والذي يستشفع هو المقصِّر ، وهؤلاء الكفار قالوا عن الأصنام : إنها شفعاء لهم عند الله ، وهذا إقرار منهم بالتقصير ، وأقروا بأن المشفوع عنده هو الله ، وأما المشفوع فيه؛ فهو تخفيف العذاب أو إنهاء العذاب .

إذن : فالمشفوع فيه أمر مشترك ، والمشفوع عنده أمر مشترك ، أما الأمر في الشافع ، والأمر في المشفوع له ، فهما مختلفان . وأنت – على سبيل المثال ، لا تأتي بإنسان يسير في الطريق وترسله ليشفع لك (مثلاً) عند المحافظ أو عند الوزير؛ إن كانت لك حاجة عند أي منهما ، بل تأتي بإنسان تعلم رضا المحافظ عنه أو رضا الوزير عنه ، وله منزلة ومكانة ، وهذه المنزلة والمكانة تسمحان له بالإذن في أن يكلِّم المحافظ أو الوزير في أمور الناس .

وإذا كان هذا هو الحال في الشفاعة من البشر لدى البشر ، فما بالنا بالشفاعة للإنسان لدى الله؟ لذلك بيَّن الحق هنا أن الشفيع لا بد أن يكون بإذن منه سبحانه { مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ } [يونس : 3]

وفي سورة البقرة يقول سبحانه :

{ مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ . . . } [يونس : 3]

وفي آية أخرى يقول سبحانه : { يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً } [طه : 109]

إذن : فالشفيع لا بد له من إذن ورضاً من الله .

أما المشفوع له فقد قال الحق : { وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى . . . } [الأنبياء : 28]

هكذا بيَّن لنا الحق عناصر الشفاعة : الشافع ، والمشفوع له ، والمشفوع عنده وهو الله سبحانه ، والمشفوع فيه هو الذنوب وهي معروفة .

ولقائل أن يتساءل : ما دام الحق سبحانه قد رضي عن عبد ، فلماذا يحتاج العبد إلى الشفاعة؟

وأقول : لننتبه إلى أن الإنسان يتعرض لأعمال كثيرة ، وله نقاط ضعف في حياته؛ قد تكون كثيرة ، وقد تكون قليلة ، فإذا جاء في نقطة الضعف وأذنب ذنباً ، فعليه أن يزيد من فعل النقاط

القوية التي تُكتب له بها الحسنات؛ لأن المعيار هو : { إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات } [هود : 114]

فالعبد حين يزيد من الحسنات فالحق سبحانه قد يمحو السيئات ، وليعلم كل إنسان أنه إن اختلس من الله حكماً فهو لن يستطيع أن يهرب من العقاب ، وعليه أن يزيد من الحسنات ، ويرجو المغفرة من الله؛ وقبول التكفير بالحسنات عن السيئات ، ولن يُفلت أحد من ملكوت الله .

وهَبْ أن إنساناً فيه نقطة ضعف ، وأذنب ذنباً ، وعنده نقطة قوة يطيع فيها الله بسهولة ويُسْر ، هذا الإنسان له أن يعلم أن الله يحبه لأجل نقطة قوته هذه ، وقد يرحمه الله سبحانه فيما أذنب من الذنوب ، ويجعل المأذون له في الشفاعة يشفع له عنده سبحانه .

فلماذا أراد الحق ذلك؟

شاء الحق ذلك حتى لا يُحرَمُ العالم من الحسنات التي يجيدها ذلك الإنسان . ويحكي لنا الحديث النبوي الشريف عن الرجل الذي لقي كلباً يلهث من العطش ، ولم يجد الرجل إناء يملأه ماء من البئر ليسقي الكلب ، فنزل البئر وملأ خفه ، وعاد إلى الكلب ليسقيه . وبطبيعة الحال لم يكن هذا الرجل لينافق الكلب ، بل منتهى الرحمة بهذا الحيوان ، كذات خلقها الله؛ لذلك غفر الحق سبحانه لهذا الرجل .

وهكذا نفهم أن الحق يغفر ويمحو السيئات . وقد جعل الحق سبحانه الشفاعة لرسول الله تكريماً له صلى الله عليه وسلم ، وكذلك في المأذون له في الشفاعة ، حتى يعلم المسلم أن الرسول قد يشفع له ، وأن المؤمن قد يشفع لأخيه ، وأن الأب قد يشفع لابنه ، وحين يعلم المسلم ذلك ، فهو يحسن إلى كل هؤلاء؛ لعله يحصل على الشفاعة منهم ، ويحسن اتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويحسن معاملة المؤمنين ، ويحسن الابن معاملة والديه ، وهكذا يعيش المجتمع في كرامة الشفاعة بعمل الخير وإخلاص النية .

وإذا رأيت إنساناً محسناً في دينه ، فلا بد لك أن تحترمه؛ لأن إحسانه في دينه قد ينفعك أنت؛ ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة يقول :

{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } [الفاتحة : 5]

وكان الحق سبحانه قادراً أن ينزلها « إياك أعبد وإياك أستعين » ولكنه شاء أن تنزل على صورتها تلك؛ حتى يأذن سبحانه بقبول الصفقة من كل قائليها ، فيتقبل من عباده أعمالهم بما يغفر لبعضهم الأشياء المعيبة .

ولذلك أقول : إن رأيت إنساناً مستغرقاً في العبادة فلا تسخر منه ولا تهزأ به؛ لأن حرصه على الطاعة وانشغاله بالعبادة قد تنفعك أنت .

وساعة تتلقى آمراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجده شاقّاً ، فعليك أن تتذكر أنه المرجع الذي قد يشفع لك في الأمور التي لم تقدر عليها .

ولا بد أن يرضى الحق عن المشفوع له؛ لأنه قد أجاد فعل حسنات . وإن كانت له سيئات ، وقد رأى رجل سيدنا عمر في رؤيا ، فسأل الرائي سيدنا عمر بن الخطاب : ماذا افعل الله بك يا ابن الخطاب؟ فقال سيدنا عمر : غفر الله لي . فسأل الرائي : بماذا؟ أجاب سيدنا عمر : لأني رأيت غلاماً يعبث بعصفور فاشتريته حتى لا أفجعه في عصفور يملكه ، وأخذت العصفور وأطلقته .

واعترض أحد السامعين للرؤيا متسائلاً : ألم يفعل ابن الخطاب أعمالاً تؤهله لمغفرة الله إلا مسألة العصفور هذه؟ فقال له قائل : أحسن الفهم يا رجل؛ فمسألة إطلاق العصفور إنما تخص غفر الخطايا ، وأما أعمال عمر بن الخطاب الجليلة فهي لرفع الدرجات .

وفي القرآن آيتان جاءتا بنص متقارب ، فالحق يقول : { واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ . . . } [البقرة : 48]

والآية الثانية تقول : { واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ . . . } [البقرة : 123]

ومن حاولوا المقارنة بين الآيتين بغرض الطعن في القرآن ، هم من الغرباء عن اللغة ولا يملكون ملكة البيان التي يمكن أن يستقبلوا الأساليب بها ، ولو امتلكوا هذه الملكة لعلموا أن الصدر في الآيتين محتمل لوجهين ، فهناك نفس جازية هي التي تتشفع ونفس مجزيٌّ عنها هي التي يُتشفع لها .

والضمير الذي يأتي في قوله الحق : { وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا } و { وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا } و { وَلاَ تَنفَعُهَا } ، هذا الضمير يصح أن يرجع إلى النفس الشافعة ، ويصح أن يرجع إلى النفس المشفوع لها .

والإنسان منا إذا ما كان عليه شيء لإنسان آخر ، وغير قادر على أن يستبرئ ذمته منه ، فهو يلجأ إلى صديق لهذا الآخر ، له مكانة عنده ليستشفع له . وفور أن يذهب صاحب المكانة إلى هذا الاخر فهو يقول له : هل تقبل شفاعتي لفلان؟ فإن قال صاحب الأمر : لن أقبل الشفاعة ، فالمستشفع عنده يقول له : إذن : سأدفع العدل ، أي : ما يساوي قيمة ما كنت سأتشفع له فيه .

وهكذا نجد أنفسنا أمام نفسين : شافعة ، ومشفوع لها . والضمير يعود على أي من النفسين .

وهكذا نجد أن صدر كل آية من الآيتين اللتين يقال عنهما : إنهما متشابهتان ، صدر كل منهما منسجم مع عجزها .

وينهي الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بعد أن أوجزت الآية فكرة عن خلق الله تعالى للكون ، وأنه يشفع لمن شاء ويختار من يقدم له الشفاعة ، فيقول : { ذلكم الله رَبُّكُمْ

فاعبدوه أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } [يونس : 3]

فسبحانه خلق الكون ، واستتبَّت بيده مقاليد الأمور ، وخلق الإنسان ليعمر هذا الكون ، ونعلم أنه سبحانه قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ، وحين يشهد الحق لنفسه ، فسبحانه على ثقة تامة بأن أوامره في كونه نافذة .

وقوله سبحانه : { ذلكم } أي : إشارة إلى ما تقدم من خلق السموات والأرض ، والاستواء على العرش ، وتدبير الأمر كله ، ولا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ، هذا هو الله ربكم ، وما دام هو ربكم فاعبدوه؛ لأنه هو الذي خلق من عدم ، وأمد من عُدْم ، وله كل صفات الكمال المطلق .

وهذه العبادة لا تعود عليه سبحانه بأي فائدة ، فسبحانه منزَّه عن فائدة تعود عليه؛ لأنكم إن عبدتموه فلن تزيدوا في ملكه شيئاً ، وإن لم تعبدوه فلن تنقصوا من ملكه شيئاً . والعبادة يعود نفعها عليكم؛ لأنكم ستأخذون بها منهجاً يخرج كل الخلق عن أهوائهم ، ويصير هوى الموجِّه واحداً ، فلا تصطدم إرادة بإرادة ، بل تتساند الإرادات؛ فيتكامل العالم .

إذن : فالعبادة توحِّد أهواء الخلق إلى مراد واحد ، لا يأنف الإنسان منا أن يخضع له؛ لأن هذا ليس خضوعاً من بشر لبشر ، بل خضوعاً من مخلوق لخالق ، وبذلك تستقيم أموركم الاختيارية ، كما استقامت أموركم غير الاختيارية .

وهكذا لا تنحصر العبادة في أركان الإسلام الخمسة فقط ، بل تكون هذه الأركان الخمسة هي الدعائم التي تقوم عليها عمارة الإسلام ، وكل الإسلام هو كل أمر لله وكل نهي له سبحانه؛ ولذلك حين نتابع تسلسل الأمور ، سنجد أن أركان الإسلام الواجبة تعتمد على حركة الحياة كلها ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ويقول الحق في آخر الآية : { أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } والذهن أو المخ – كما نسميه – فيه ملكات متعددة مثل : ملكة التخيُّل ، وملكة الحفْظ والاختزان ، وكثير من الملكات الأخرى منها مَلَكَةُ التذكُّر . ومعنى التذكُّر أن شيئاً سبق لك إلْفٌ به ، فطرأ عليك ما أنساك ، وحين تنسى أمراً يخصُّ أحد أقرانك ، فهو يقول لك : تذكر يا أخي الأمر الفلاني ، وهو لا يأتي لك بأمرٍ مجهول لم تعرفه أولاً ، بل يأتي لك بأمر كان معلوماً لك ، ولكنك نسيته .

والإنسان حين ينظر إلى الكون نظرة غير متحيزة لا بد أن يؤمن بأن لهذا الكون إلهاً ، وهذا الأمر لا نأخذه من الفلاسفة ، بل من رجل الشارع ، وراعي الشاة؛ فقد جاء في الأثر أن راعياً كان يسير في الصحراء فرأى بَعْراً في الطريق ، فقال : إذا كان البعر يدل على البعير ، والسير يدل على المسير ، أفلا يدل كل هذا الكون على وجود اللطيف الخبير؟!

والمثال من حياتنا اليومية : أن غسَّالة الملابس الكهربية – وهي لا تدل على شيء ضروري في الحياة ، بدليل أن السابقين علينا كانوا يغسلون ملابسهم بدونها ، فهي تمثل ترفاً ، لا ضرورة –

نجد الناس يعرفون من الذي ابتكرها ، ومن أوصلها بالكهرباء ومَنْ صنع لها توقيتات دورات الغسيل ، ومثلها مثل المصباح الكهربي ومَنْ صنع لها توقيتات دورات الغسيل ، ومثلها مثل المصباح الكهربي الذي يفسد بعد عدد معيّن من الساعات ، ونجد التلاميذ يدرسون تاريخ من صنعه ، فهل يمكن أن ننسى من خلق الشمس التي تضيء الكون؟

بل ونجد في زماننا العالم والكافر وهو يمدُّنا بأدلة الإيمان ، فكل اختراع نجد مَنْ يسجله؛ حتى لا يسرقه غيره ، فما بالنا بالشمس التي تضيء وتُدْفئ ، والقمر الذي يحدد الشهور ، والنجوم التي تدل الناس على الاتجاهات ولا شيء في كون الله يحتاج إل قطع غيار ، ألا نعترف بمن خلق كل ذلك ، ها هو ذا سبحانه يدلنا على مَنْ خلق ويبلغنا ما يسجل له ملكية ما خلق ، فأنزل القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم ليدلنا على أنه سبحانه الذي خلق ، وأبقى الله الكافرين ليتحدى مَنْ يناقض قضية الخلق .

وسجل الحق سبحانه ما خلقه لنفسه ، ولم يقدر أحد من الكافرين على إنكار ذلك .

ولن نأخذ الأدلة على وجود الله من الفلاسفة الذين يرتبون النتائج على المقدمات ، ومطابقة قياس الشكل على الموضوع ، بل سوف نأخذ الدليل من كلمة « الكفر » نفسها ، هذه الكلمة (كفر) تعني : (ستر) ، فهل يُسْتَرُ إلا موجودٌ؟

إذن : فالكفر بالله دليل على وجود الله ، وما دام الكفر سَتْراً ، فالكفر أمر طارئ ، نتيجة للغفلة ، والغفلة إنما تأتي لأن مقتضيات الإيمان تقيد النفس في حركتها؛ لذلك قد يغفل الإنسان متناسياً أن قيود المنهج لا تطبق عليه وحده ، بل تطبق على كل الناس .

فحين يُحرَّم الله السرقة ، فهو لم يحرمها علىإنسان واحد ، بل حرمها على كل إنسان ، فقيَّد الآخرين ومنعهم من أن يسرقوا منك .

وحين يأمرك بغضِّ بصرك عن محارم جارك ، فهو يحمي محارمك أن ينظر إليها غيرك .

إذن : فالإيمان جاء بالنفعية لكل إنسان . وما دام الأمر كذلك ، نجد الحق سبحانه يقول : { اذكروا . . . } [فاطر : 3]

وحين يجلس الإنسان بمفرده ولا تُحركه شهواته فهو يهتدي إلى الإيمان بأن هذا الكون لم يَأتِ صدفة .

واسم الخالق للكون لا يمكن أن يعرفه الإنسان بعقله؛ لأن التصورات تختلف من إنسان لآخر .

وتجد الفلاسفة حين أقروا بأن هذا الكون لا بُدَّ له من خالق لم يتعرفوا على الاسم ، بل أخطأ بعضهم التصور وظنوا أن من خلق الكون ترك النواميس لتعمل ، وتناسوا أن الخالق لا يباشر سلطانه في الكون مرة واحدة .

لذلك جاء الرسل بالمعجزات التي تخرق النواميس؛ ليدلنا سبحانه على أنه هو الذي خلق ، وله قيومية على ما خلق ، فليست المسألة مسألة نواميس تعمل بذاتها ، بل شاء سبحانه أن يدلنا على عدم الآلية في الكون .

ونحن نعلم أن الآلية التي يصممها البشر في بعض المعدات تتسبب في إحداث جمود ، فالعقل الإلكتروني ليست له قيومية على المعلومات المختزنة فيه ، فلا يستطيع أن يخفي منها شيئاً إذا طلبت منه .

أما عقل الإنسان فله سيطرة على معلوماته ويستطيع أن يخفي ما شاء منها ، ولذلك قال الحق سبحانه : { وَلاَ تَلْبِسُواْ الحق بالباطل وَتَكْتُمُواْ الحق وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة : 42]

فما دام قيل للإنسان : لا تكتم الحق . إذن : فله قدرة على الإخفاء .

والوردة الطبيعية – على سبيل المثال – حيويتها في ذبولها على عكس الوردة الصناعية التي تظل على جمودها ليس فيها حياة .

والحق حين يقول : { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ . . . } [المؤمنون : 80]

أو { أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ . . . } [السجدة : 4]

فهو يحرّض الإنسان على أن يتذكر ، ويتفكر ، ويعتبر . ولو كان القرآن يريد أن يخدع الإنسان ، لما أثار انتباهه إلى ضرورة التذكر والتفكر والتدبر والاعتبار .

وأضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى : هب أنك ذهبت إلى محل للصوف لتشتري قماشاً متميزاً ، فتجد البائع يفرد أمامك القماش ، ويشده بيديه ليبين لك متانته ، ثم يأخذ منه خيطاً ويحرقه ليبين لك أنه صوف خالص نقي ، إن هذا البائع يحاول أن يشرح لك خبايا صناعة الصوف؛ لأنه واثق من جودة ما يبيع .

هذا ما يحدث فيما بين البشر ، فما بالنا حين يعرض خالق الكون على مخلوقاته أسرار الكون ويدعوهم عبر منهجه إلى التذكُّر والتعقُّل والتفكُّر والتدبُّر والاعتبار .

والحق سبحانه يطلب منا ذلك ثقة منه في أن الإنسان منا ، إن فعل ذلك؛ فسيصل إلى مراد الحق من الخلق .

وإياكم أن تظنوا أن الله خَلَق لكم ، ثم خلق لكم ، ثم أنزل لكم المنهج ليسعد حياتكم في الدنيا والآخرة ، ثم اعتزلكم . لا ، بل هو قيُّوم حياتكم ولا تأخذه سنةٌ ولا نوم ، ولا يفلت منه شيء ، ولا أحد بقادر علىأن يختلس منه شيئا .

وفي الحديث القدسي : « يا عبادي إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في إيمانكم . وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فَلِم جعلتموني أهون الناظرين إليكم » .

وأنت في الحياة اليومية تعرف أن أحداً لا يقترب من إنسان قوي منتبه .

ويقول سبحانه بعد ذلك : { إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ الله . . . }

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (4)

وحين يقول سبحانه : { إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً } فهذا إعلام لكل الخلق أن كل الأمور معلومة له سبحانه ، فقد أنزل التكليف الذي قد يُطاع؛ وقد يُعصى . فمن أطاع يفرح بقوله سبحانه : { إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً } ، ومن عصى يحزن؛ لأنه سيلقى عقاب العصاة حين يرجع إلى الله .

ونجد القرآن يقول مرة : « يُرْجَعُون » ومرة يقول : « يَرْجِعون » ، فمن عمل صالحاً؛ فهو يفرح بالرجوع إلى الله ، ومن عصى وكفر؛ فهو يحزن ويخاف ويتردد ويحاول ألا يرجع ، لكنه يُرجَع رغم أنفه ، والحق سبحانه يقول : { يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا } [الطور : 13]

وقوله سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : { إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً . . . } [يونس : 4]

وسُمِّي هذا المرجع في نفس الآية : { وَعْدَ الله حَقّاً . . . } [يونس : 4]

ولقائل أن يقول : ولكن الوعد يطلق على الأمر الذي سيأتي بخير ، فإن كان المرجع للطائع فهذا هو الخير ، ولكن العاصي لن يرى في الرجوع خيراً ، فلماذا لم يقل الله : إن المرجع للعاصي وعيد؟

وأقول : إن الحق سبحانه إنما ينبه الإنسان لما ينتظره في المستقبل ، ويعظه ، وترك له الاختيار ، وهذا تقديم للخير ، وهكذا تصبح المسألة كلها وعْداً . والصيغة التي يتقدم فيها المجرور رغم أن من حقه التأخير ، فهي تعني تفرُّد المرجع ، فكلنا نرجع إليه سبحانه ، مثل قوله سبحانه : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ . . . } [الفاتحة : 5]

إذن : فالطائع يفرح بجزاء الله له ، وعلى العاصي أن يراجع نفسه قبل أن يرجع إلى الله . وأضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى – أنت تنبه التلاميذ إلى أن يذاكر طوال العام ، فالذي يذاكر فعلاً ، يفرح بالامتحان؛ لأنه سوف ينجح فيه ، والذي لا يذاكر قد يراجع نفسه ويقبل على المذاكرة خوفاً من الرسوب ، والتذكير لون من ألوان الإنذار؛ ليتهيب الموقف ويرتدع ، وهكذا يصير التذكير وعداً لا وعيداً .

ويضيف الحق سبحانه لوصف وعده بأنه حق ، فيقول : { وَعْدَ الله حَقّاً } ولقائل أن يقول : أليس كل وعد من الله حقّاً؟ ونقول : نعم . كل وعد من الله هو حق ، وشاء الحق سبحانه هنا أن يَصِفَ وعده بأنه حق ليذكرنا بان الحق هو الشيء الثابت؛ فإن خُيِّل إليك في بعض الأوقات أن الباطل هو السائد والسيد ، فلتعلم أن الباطل لا ثبات له ولا سيادة .

وسبحانه يقول : { أَنَزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد

فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال } [الرعد : 17]

فحين ينزل المطر نجد كل وادٍ يأخذ من الماء على قَدْر حاجته ، وساعة ينزل المطر ويتجمع ، نجد القشّ يطفو ومعه الحشائش والأشياء التي لا فائدة منها؛ لأن الماء في لحظة النزول إنما يُنظف المكان الذي ينزل عليه؛ لذلك تطفو الأشياء الخفيفة وغير المفيدة .

كذلك الباطل إنما يطفو على السطح لكنه لا يفيد ولا يزعزع الحق الذي يستقر وينفع الأرض والناس ، وطفو الباطل إنما هو تنبيه لجنود الحق ، والباطل مَثَلُه مَثَلُ الألم الذي ينبه للمرض ، وأخطر الأمراض هو الذي لا ألم فيه ، فيستفحل إلى الدرجة التي يصبح علاجه صعباً ومستحيلاً .

إذن : فالألم كالباطل ينبه جنود الحق؛ ولذلك أنت تلحظ أنه إذا ما أهيج الإسلام من أي عدو ، تجد الحماسة وقد دبَّتْ في الناس جميعاً ، حركة وتعاوناً ، ونسياناً للأحقاد؛ للدفاع عن الإسلام .
وفي الأمراض التي تنتقل ببعض الفيروسات ، نجد الأطباء وهم يُطَعِّمون الناس من نفس ميكروبات أو فيروسات المرض بجرعات ضعيفة لتستثير مقاومة الجسم ، إذن : فالباطل جندي من جنود الحق ، كما أن الألم جندي من جنود العافية .
وإذا كان الحق هو القائل : { إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً } فلا بد أنه الوعد الحق؛ لأنه سبحانه يملك ما يعد به ، وسبحانه منزه عن الكذب وعن الخديعة؛ لأنه القائل : { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله قِيلاً } [النساء : 122]
ولأنه أقوى مما خلق؛ وممَّنْ خلق . ولا تخونه إمكاناته؛ لأنه يملك الكون كله .
وكلمة « الرجوع » في قوله تعالى : { إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً } تفيد أن تكون على شيء ثم تفارق هذا الشيء وبعد ذلك ترجع له ، فهي وجود أولاً ، ثم خروج عن الوجود ، ثم عودة إلى الوجود الأول . فإذا كانت في مكان ، ثم ذهبت إلى مكان آخر ، وترجع إلى المكان الأول ، فهذا هو الرجوع .
والقول هنا يفيد أننا سنموت جميعاً ، مصداقاً لقوله الحق : {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام } [الرحمن : 26-27]
وقد قال الكافرون ما ذكره القرآن : { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ } [ق : 3] .
كأنهم قد استبعدوا فكرة البعث ، وقالوا أيضاً : { أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . . . } [السجدة : 10]
أي : أنهم تساءلوا : هل بعد الموت والدفن وتحلُّل الجثمان إلى عناصر تمتزج بعناصر الأرض ، أبعد كل ذلك بعث ونشور؟

وجاء هنا قوله سبحانه : { إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً } ليفيد أن الخروج إلى الوجود بالميلاد إلى الحياة ، ثم بعد ذلك خروج على الحياة إلى مقابلها وهو الموت ، ومن بعد ذلك البعث .

وقد وقف الكافرون عند هذه النقطة واستبعدوها ، فأراد الله أن يبيّن لنا هذه المسألة؛ لأنها تتمة التمسك بالمنهج ، وكأنه يقول لنا : إياكم أن تظنوا أنكم أخذتم الحياة ، وأفلتم بها وتمتعتم ، ثم ينتهي الأمر؟ لا ، إن هناك بعثاً وحساباً . لذلك قال : { إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ الله حَقّاً } [يونس : 4]

فإن قال قائل : كيف يكون ذلك . يأتي القول الحق : { إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ } فالذي قدر على أن يخلق من عدم؛ أيعجز أن يعيد من موجود؟ إنه الحق القائل :

{ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً } [مريم : 9]

فإذا شاء أن يعيدكم فلا تتساءلوا كيف؟ لأن ذراتكم موجودة ، والحق سبحانه يقول : { أَفَعَيِينَا بالخلق الأول بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [ق : 15]

هكذا يستدل الحق سبحانه بالخلق الأول على إمكان الخلق الثاني ، فإن كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أن أوجد الحق أجزاءكم وذراتكم ومواصفاتكم؛ فانظروا إلى الخلق الأول؛ فقد خلقكم من لا شيء؛ أفيعجز أن يعيدكم من شيء؟ { أَفَعَيِينَا بالخلق الأول } .

وجاء الفلاسفة وأقاموا ضجة ، فجاء الحق سبحانه وتعالى من الكون بالأدلة ، وقال : { وَتَرَى الأرض هَامِدَةً . . . } [الحج : 5]

أي : أرضاً ميتة وليس فيها أي حياة . { فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [الحج : 5]

إذن : فلا عجب أن تصدر حياة عن موت ، وأنتم ترون ذلك كل ساعة . والحياة التي تراها أمامك ليست إلا دورة؛ لأن الله حين خلق الكون ، خلق عناصره ، ولا زيادة على هذه العناصر .

وخذ مادة واحدة وهي المياه ، فمنذ أن خلق الحق سبحانه المياه لم تزد ولم تنقص ، ويشرب منها الإنسان والحيوان ، ولو أخذ كل واحد في حياته أيّ قدر من المياه ، تظل المياه كما هي؛ لأن هذا الإنسان يفرز ما شربه على هيئة عرق وإفرازات مختلفة ، وكل ذلك يخرج منه ، ويبقى ما يمثل وزنه .

إذن : فما أخذته من المياه إنما يخرج منك مختلطاً بأشياء نتيجة التفاعل الذي يعطيك طاقة الحياة ، وبعد ذلك يتبخر الماء ، وعملية التبخير هي تقطير للماء ، فأنت إذا أردت تقطير المياه تسخنها إلى درجة الغليان فتتحول بعد ذلك إلى بخار ، ثم تكثفها لتعود مياهاً من جديد .

إذن : فالماء له دورة ، نروي منه الزرع؛ فيأخذ المائية ويصير أخضر اللون ، ويخرج منه الماء الزائد

عن حاجته في عملية النتح ، ثم يجف ، بعد أن تخرج منه المياه بالتبخر ، وكل ذلك دون أن يشعر أحد بحكاية التبخير هذه .

وأنت حين تُحضِّر كوباً من الماء المقطر في الصيدلية ، تتكلف كثيراً ، وتحتاج موقداً وإناءً وأنابيب ، ثم إلى مياه أخرى باردة لتكثف البخار ، ولكن هذه مسألة تحدث في الكون ملايين المرات ، ولا يدري بها أحد .

وبعد أن تتبخر المياه تصير سحاباً ، ثم ينهمر المطر وهو مياه مقطّرة . ولذلك تجد أن مساحة رقعة الماء ثلاثة أرباع الأرض لتخدم الربع الباقي (اليابسة) ؛ لأن الله يريد اتساع سطح الأرض ، وهذا الاتساع هو الذي يساعد على التقطير والتبخير والتكثيف .

مثلما تجيء أنت بكوب ماء ، وتضعه في حجرة ، ثم تغيب شهراً عن الحجرة ، فعند عودتك إيها قد تجد الكوب نقص ما مقداره نصف سنتيمتر تقريباً ، لكنك إن أخذت كوب الماء نفسه وألقيت ما فيه من ماء ليسيح على أرض الغرفة ، فستجد أن الأرض جفت خلال ساعات قليلة ، وهكذا نجد ان اتساع الرقعة إنما يساعد على سرعة البخر .

إذن : الكمية التي خلقها الله من المياه كما هي ، لم تَزِدْ ولم تنقص ، تدور الدورة التي شاءها الحق ، وهكذا نرى أن الشيء يعود إلى أصله مرة أخرى ، ويمكن أن نرى ذلك في كل أوجه الحياة ، والحق سبحانه يقول : { والذاريات ذَرْواً * فالحاملات وِقْراً * فالجاريات يُسْراً * فالمقسمات أَمْراً * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ } [الذاريات : 1-5]

يقسم الحق سبحانه هنا بالرياح التي تحمل السحاب ، وتمطر كل سحابة على الموقع المحدَّد لها بأمر من الله ، ويلفتنا الحق سبحانه هنا إلى دورة الماء ، الذي هو قوام الحياة ، بان الوعد منه سبحانه يتحقق حتماً .

تأمّل الوردة ، تجد لها نعومة ونضارة؛ لأن فيها شيئاً كثيراً من المائية ، ولها لون جميل ورائحة ذكية تفوح ، فإذا قطفتها تتساقط أوراقها وتجف؛ لأن ما فيها من المائية يتبخر؛ فما أخذته الوردة من الماء عاد إلى مخزنه مرة أخرى ، وكذلك الرائحة تظل في أرواقها الذابلة إلى أن تنتهي ، وكذلك اللون ، ثم تخرج وردة جديدة .

إذن : حياة كل كائن في الوجود والعالم في حركته ناشئة عن هذه الدورة ، فإذا كانت مائية حياتكم تدور؛ أتستبعد أن تدور أنت بمكنوناتك؟ هَبْ أن إنساناً وُجد ومات؛ بخروج الروح من الجسد ويُواري الجثمان ويتبخر ما فيه من ماء ، وتتحلل مواد الجثمان مع عناصر الأرض لتصير تراباً ، فهل يعجز الحق أن يعيد إلى الوجود أبعاض هذا الإنسان؟ طبعاً لا يمكن أن يعجز .

الحياة – إذن – احتكاك هذه الدورات لتلك العناصر ، فلم يزد شيء عليها ، ولم ينقص منها شيء .

واقرأ القرآن بتبصر تجد قوله الحق : { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ } [ق : 4]

وهكذا يبيّن لنا الحق أن العناصر كلها موجودة في الكون ، قد تزيد في مخلوق عن الآخر ، لكن المجموع الكلي لكل العناصر ثابت ، وإذا كان العلم قد توصل إلى أن هناك ستة عشر عنصراً تكوّن الكائنات ، فهذه العناصر ثابتة الكمية ، وإن اكتشفوا زيادة في عددها ، فالزيادة في عدد العناصر ستكون أيضاً ثابتة الكَمّ لكل عنصر .

وقال العلماء : إن الستة عشر عنصراً هي : الأوكسوجين ، والكربون ، والهيدروجين ، والنتروجين ، والمغنيسيوم ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، وغيرها .

كل هذه العناصر تعود إلى أصلها بعد أن تموت الكائنات وتتحلل .

هكذا يصدق قول الحق : { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ } [ق : 4]

وقد حاول بعض الفلاسفة أن يعترضوا اعتراضاً ثانياً وقالوا : هي أن إنساناً مات ، ثم تحللت عناصره في الأرض . ألا تذهب عناصره إلى كائنات أخرى ، مثل شجرة أنتجت ثمرة أو غير ذلك ، ثم أكلها إنسان آخر ، فدخلت في أجزائه ، إذن : فمن مات ونشأت على أنقاضه ثمرة ، أو غير ذلك ، ودخلت المكونات في إنسان آخر ، فكيف يبعث الله كلَّ إنسان من جديد؟

ونقول : أنت عرفت شيئاً ، وغابت عنك أشياء .

انظر مثلاً إلى السِّمنة والنحافة كظاهرة موجودة في الناس وتراها كل يوم ، ومعنى السمنة أن كمية من مادة معينة تزيد في الإنسان السمين أكثر من مادة الإنسان الآخر النحيف . وقد يطرأ على السمين ما يجعله نحيفاً أو العكس .

فهل هذا يغيِّر من شخصيته؟ طبعاً لا ، وهكذا نجد فارقاً بين المشخصات وبين تكوين المشخصات من العناصر .

وما دام الحق سبحانه قد أعلمنا أنه لا شيء ينقص من الأرض إلا بمقدار مكونات الكائنات الموجودة عليها ، فالعناصر التي في الأرض تكفي كل الكائنات ، ويوزعها سبحانه بالنسب اللازمة ، وأنت إن جمعت هذه العناصر فستجدها ثابتة الكم وإن اختلفت في كيفية تكوين الكائنات .

مثال ذلك : أنك تجد إنساناً وزنه مائة كيلو جرام ، ويمرض؛ فيهزل وينقص وزنه إلى سبعين كيلو جراما ، ومعنى ذلك أن الثلاثين كيلو جراما الأخرى ذهبت إلى الأرض ، فلكل جسم قاعدة يقف عندها الوزن إلى سن معينة ، وتُعتبر هذه هي القاعدة التي يزيد فوقها الوزن ، أو يقل عنها حسب ظروف التغذية والصحة .

وأنت ترى الطفل يفرز أقل مما يتناول من الغذاء؛ حتى ينمو ، ولو كان يُخرج إفرازات تساوي –

في الكمية – ما يأكل ويشرب لَمَا كبر . ومن بعد ذلك يكبر إلى أن يصل إلى وزن ثابت تقريباً ، فتخرج منه إفرازات تساوي ما يدخل إليه ، ثم تأتي الشيخوخة فيخف الوزن ، وهذا يعني أن ما يخرج منه أكثر مما يدخل إليه؛ فتنشأ النحافة .

وهَبْ أن طبيباً حاذقاً استطاع أن يعلم الداء الذي يسبب إصابة مريض ما بالهزال ، وأعطاه من الدواء ما جعله يسترد عافيته ، ومعها ما فُقد من الوزن ، وتتحسن تغذية هذا المريض أثناء فترة العلاج ، فهل تتغير شخصية هذا المريض؟ طبعاً لا؛ لأن ما خرج منه أثناء الهزال ذهب إلى الأرض ، ثم استرد مثله من الأغذية أثناء الشفاء .

إذن : فلا تقل : إن هناك شيئاً نقص ، فعند الله كتاب حفيظ فيه مكونات كل الكون ، ويأتي بعناصر معينة ، ويأمرها ب « كن » فتكون إنساناً ، أو تكون كائناً آخر حسب مشيئة الله سبحانه .

وإذا كنا نتحدث الآن كيميائياً فنحن نتكلم بذلك؛ ليثبت عقديّاً وعقليّاً؛ لأننا آمنا بأن هناك منهجاً من المكلِّف ، والمنهج عُرْضة لأن يطاع أو يعصى ، ومَنْ يُطع الله في المنهج ، فهو يحدد حريته ، والذي لم يُطع الله واستسلم للضياع فهو الخاسر؛ لأن منطق العقل يؤكد أن من يأخذ المنهج ويلتزم به ويكبح شهواته؛ لا يمكن أن يستوي مع من عبث ، ولا بد أن يفترض منطق العقل أن يوجد بعث يجازي بالطيبات مَنْ سار على المنهج ، ويعاقب مَنْ خرج على المنهج .

وما دام قد وجد إله ، ووجد بلاغ عن الله بواسطة الرسل ، ووجد تكليف ب « افعل » و « لا تفعل » ، ووجدت طاعة للتكليف ، ومعصية للتكليف ، إذن : لا بد بعد هذه الحياة من بعث ، ويأخذ من أحسَنَ جزاءه ، وينال مَنْ أساء عقابه؛ ولذلك قال الحق :

{ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ الله حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات بالقسط .

. . } [يونس : 4]

جاء هذا القول مطمئناً الملتزمين بالمنهج بأن هناك بعثاً وحساباً؛ لأن المؤمن المطيع لا بد أن ينال حسن الثواب ، وأن ينال العاصي الشرير الذي شقيت الدنيا كلها بعصيانه العقاب ، ولذلك لا بد من الإعادة؛ ليجزي الله كل واحد بعمله بالقسط . والقسط – كما أوضحنا من قبل – معناه العدل ، والمادة هي القاف والسين والطاء . ننطقها مرة « القسط » بكسر القاف . وننطقها مرة أخرى « القسط » بفتح القاف والقسط « بالكسر » هو العدل؛ والقسط « بالفتح » هو الظلم ، ولذلك نجد قوله الحق : { وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً } [الجن : 15]

والمقصود بالقاسطين : الجائرون على حقوق غيرهم .

ونجد قوله الحق : { وَإِنْ حَكَمْتَ فاحكم بَيْنَهُمْ بالقسط إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين } [المائدة :

والمُقْسِطون : هم العادلون بين الناس .

إذن : فهناك « قِسْط » و « قَسْط » ، وهناك شيء اسمه « قَسَط » بالفتحتين وهو الانحراف في الرِّجلين . إلا أن المستعمل في كلمة « قِسْط » هنا مقصود به العدل ، واسم الفاعل منها « قاسط » واستعملت في الجوْر . وهي مأخوذة من القَسْط لا من القِسْط ، وتجد من أسماء الله « المُقْسِط » ، ولم يصف نفسه بالقاسط بمعنى العادل ، أي : ابتدأ بالعدل أولاً ، وشاء سبحانه فوصف نفسه بالمُقْسِط ، لأنه هو الذي يرفع الجور فيحقق العدل .

وفي الآية التي نحن بصددها يقول الحق سبحانه : { لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات بالقسط } أي : جزاء منه بالعدل ، وأيضاً يمكن أن نقول : إنه سبحانه يجزيهم؛ لأنهم عدلوا في العقيدة؛ لأن القرآن الحكيم – كما نعلم – جاء حاكماً وفيصلاً بين قضايا العقائد وقضايا الاختيار في الأفعال وقضايا الأخلاق ، وهؤلاء قد أخذوا المنهج بدون ظلم لله فلك يشركوا به أحداً ، والحق سبحانه هو القائل : { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13]

إذن : فهم بعدلهم وبقسطهم في أمر العقيدة وأنهم لم يرتكبوا إثم الشرك الذي هو ظلم عظيم؛ وبذلك لم يظلموا أنفسهم أيضاً ، ولم يأخذ واحد منهم لنفسه متعة عاجلة؛ لذلك أنقذهم الله من الشقاء الأبدي الطويل ، وهم لم يظلموا الناس . ولكل ما تقدم لا بد أن يجزيهم الله على العمل الصالح بسبب عدلهم وقسطهم .

وقد يقال : إن الجزاء بالقسط لا زيادة فيه ولا نقصان ، فإذا كان الجزاء من الله ، فالعدل على مقتضى التشريع أن تكون الحسنة بعشر أمثالها ، ويضاعف سبحانه لمن شاء ، هذا هو عدل الله بالتشريع . أو أن الجزاء يُعطى بلا زيادة ولا نقصان جزاء العدل ، ولكن ذلك لم يحدد الفضل في هذه الآية .

ولذلك حدث إشكال بين علماء الكلام في قول الله سبحانه : { وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى } [النجم : 39]

فقال بعضهم : إذا كان الإنسان لا يأخذ إلا جزاء ما سعى ، فكيف يُجزى جزاء على الحسنة بعشر أمثالها؟ وكذلك ماذا عن صلاة الجنازة؟ وهل ينتفع بها الميت حين ندعو له بالمغفرة؟ وإن كان الإنسان لا يأخذ إلا ما سعى فلن ينتفع بها الميت ، فلماذا كلفنا الحق سبحانه بصلاة الجنازة كفرض كفاية ، لا فرض عين؟

ونقول : إن وجود اللام في قوله : { وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ } يفيد الملْك ، أي : الحق ، والآية تعطي الحق ولكنها لم تمنع الفضل ، أو نقول : هل نصلي على كل ميت؟ نحن نصلي على الميت المؤمن ، والإيمان من عمله ، وهو يُجَازي بصلاتنا عليه ، أي : جزاء عمله .

ويقول سبحانه : { والذين كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ } وهكذا نعرف أن العذاب الأليم قد جاء لهم بسبب الكفر ، مثلما يجيء الجزاء على الأعمال الصالحة للمقابل لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح .

إذن : فالقسط هنا تعود على قسط الله ، وهو العدل ، وكذلك قسطهم هم؛ لأنهم حكموا في الربوبية بالعدل . أما الكافرون ، فالعدل معهم أن يذيقهم الله شراباً من حميم بما كانوا يكفرون ، وهذا ما يرجح أن القسط هنا هو قسطهم هم .

وكلمة { حَمِيمٍ } مأخوذة من مادة « الحاء » و « الميم » و « الميم » وهي مادة كل موارد معانيها فيها الحرارة والسخونة .

والحق سبحانه يقول في آية أخرى : { وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه . . . } [الكهف : 29]

و { كالمهل } أي : أنه يغلي ، وحين تكون المادة من غير الماء ، فدرجة حرارتها أثناء الغليان تكون أعلى من درجة حرارة غليان الماء؛ فالنحاس مثلاً حين يغلي تكون درجته أعلى من درجة غليان الماء ، وكذلك الحديد والذهب وغيرها ، وسبحانه يقول : { إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم * طَعَامُ الأثيم * كالمهل يَغْلِي فِي البطون * كَغَلْيِ الحميم } [الدخان : 43-46]

إذن : فدرجة غليان المهل أعلى من درجة غليان الماء ، والمادة كلها تفيد الحرارة .

وإن نظرنا إلى كلمة « حمّام » و « استحم » ، فهي تعني أن الماء حين ينزل على البدم يكون له ثلاث صور : الصورة الأولى مسح ، والصورة الثانية غسل ، والصورة الثالثة استحمام . والمسح أن تبل الشيء بالماء بدون أن يقطر منه شيء ، والغسل أن تُسَيِّل الماء من الجسد المغسول ، والاستحمام أيضاً فيه سيولة للماء . والغسل للتطهير ، لكن الاستحمام للتنظيف ، فإن أحدثت فأنت تقوم لتتوضأ . { فاغسلوا وُجُوهَكُمْ . . . } [المائدة : 6]

تنفيذاً لأمر الله وهو غسل التطهير ، ويقوم مقامه التراب في حالة عدم وجود الماء وهو التيمم . أما إذا كانت المسألة تنظيفاً فهي تحتاج إلى الاستحمام؛ لأن مسام الإنسان لها إفرازات قد تكون دهنية ، وبعد ذلك تطرأ عليها أتربة تسدها ، وهذه المسام أبعاض من الإنسان وأبعاض من تراب طاهر جاء على الجسم ، وهي لا تنسجه ، فإن اغتسلت فيكفي أن تصب الماء على الجسم ، ولو بقي بعض من ذرات التراب على البدن فهذا لا يمنع الطهارة ، لكن حين يستحم الإنسان فهو يأتي بماء حار؛ ليذيب القذارة وينقّي المسام ، وتخرج بعض الأتربة ومعها الخلايا الجلدية الميتة وكأنها خيوط رفيعة .

إذن : هناك فرق بين الغَسْل وهو للتطهير؛ وبين الاستحمام الذي هو للنظافة . ونأخذ منه الحمام ، إذن : مادة الحاء والميم والميم فيها الحرارة وفيها السخونة .

ويقول الحق هنا : { والذين كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ } ، وكلمة { شَرَابٌ } تفيد الارتواء ، فلماذا جاء بها الله هنا؟ إنها تصعيد للعذاب؛ لأن الإنسان يرغب في الشراب ليرطِّب جوفه ، فإذا ألهبه ما يشرب ، فهذا أكثر إيلاماً مثل قوله تعالى : { وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه بِئْسَ الشراب . . . } [الكهف : 29]

وحين تسمع هذه الآية تجد انبساط الأمل في صدر الآية { وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ } وهم يستشرفون للنجاة ، ثم يأتيهم غوث من لون يناسب ما اقترفوه من ذنوب { يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل } .

إذن : ف { والذين كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ } أي : بسبب كفرهم . وعرفنا أنهم كفروا بالقضايا العقدية .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { هُوَ الذي جَعَلَ الشمس . . . }

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5)

وبعد أن بيَّن الحق أنه خلق السماء والأرض وخلق الكون كله وسخره للإنسان جاء لنا بنعم من آياته التي خلقها لنا ، والتي جعلها الله سبحانه وتعالى سبباً لقوام الحياة؛ فالشمس هي التي تُنضج لنا كل شيء في الوجود ، وتعطي لكل كائن الإشعاع الخاص به ، كما أن الشمس تبخر المياه – كما قلنا من قبل – لينزل الماء بعد ذلك عذباً فراتاً ، يرتوي منه الإنسان وتشرب منه الأنعام ونروي به الزرع .

والشمس هي الأم لمجموعة من الكواكب التي تدور حولها ، فدورة الأرض حول الشمس تمثل السنة ، ودورة الأرض حول نفسها تمثل اليوم . فيقول الحق سبحانه هنا :

{ هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً } ولو نظرت إلى المعنى السطحي في الشمس والقمر لقلت : إن الشمس تعطي نوراً وكذلك القمر ، ولكن النظرة الأعمق تتطلب منك أن تفرِّق بين الاثنين؛ فالشمس تعطي ضياء ، والقمر يعطي نوراً . والفرق بين الضياء والنور يتمثل في أن الضياء تصحبه الحرارة والدفء ، والنور إنارة حليمة ، ولذلك يسمى نور القمر النور الحليم؛ فلا تحتاج إلى الظل لتستظل من حرارته ، لكن الشمس تحتاج إلى مظلة لتقيك حرارتها .

إذن : فالنور هو ضوء ليس فيه حرارة ، والحرارة لا تنشأ إلا حين يكون الضوء ذاتيّاً من المضيء مثل الشمس . أما القمر فضوؤه غير ذاتي ويكتسب ضوءه من أشعة الشمس حين تنعكس عليه ، فهو مثل المرآة حين تسلط عليها بعضاً من الضوء فهي تعكسه .

إذن : القمر مضيء بغيره ، أما الشمس فهي تضيء بذاتها . لذلك قال الحق هنا : { جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً } .

وكلمة { ضِيَآءً } إما أن تعتبرها مفرداً مثل صام صياماً ، وقام قياماً ، وضاء ضياءً . وإما أن تعتبرها جمعاً ، مثلها مثل حوض جمعه : حياض ، ومثل روض جمعه رياض ، وكذلك جمع ضوء هو ضياء .

إذن كلمة { ضِيَآءً } تصلح أن تكون جمعاً وتصلح أن تكون مفرداً ، وحين يجيء اللفظ صالحاً للجمع وللإفراد ، لا بد أن يكون له عند البليغ ملحظ؛ لأنه يحتمل هذه المعاني كلها ، وقبل معرفتنا أسرار ضوء الشمس وقبل تحليله ، كنا نقول : إنه ضوء ، لكن بعد أن حللنا ضوء الشمس ، وجدنا أن ألوان الطيف سبعة منها ضوء أحمر ، وضوء أخضر ، وضوء أصفر ، وغيرها .

إذن : ف « ضياء » تعبر عن تعدد الألوان المخزونة في ضياء الشمس ، فإن قلت : ضياء جمع ضوء ، فهذا بتحليل الضوء إلى عناصره كلها ، وإن قلت : ضياء مثل قيام ، ومثل صيام ، فهذا يصلح في المعنى العام .

ولذلك كان القرآن ينزل بما تحتمله العقول المعاصرة لتزوله التي لا تعرف المعاني العلمية للظواهر . ولو قال القرآن هذه الحقائق ، لقال واحد : إنني أرى الشمس حمراء لحظة الغروب ، وأراها صفراء لحظة الظهيرة ، وهو لا يعلم أن الحمرة وقت الغروب هي حمرة في الرؤية لطول الأشعة الحمراء ، وهي لا تظهر إلى حين الغروب حيث تكون الشمس في أبعد نقطة ، فلا يصل إلينا إلا الضوء الأحمر ، أما بقية الأضواء فهي تشع في الكون ولا تصل إلينا .

إذن : كلمة { ضِيَآءً } ، إما أن تعتبرها جمع ضوء ، مثل سوط وسياط ، وحوض وحياض ، وروض ورياض ، وإما أن تعتبرها مفردة . هذه صالحة للمعنى لعام ، وتلك صالحة للمعنى التحليلي؛ ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى : { تَبَارَكَ الذي جَعَلَ فِي السمآء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً } [الفرقان : 61]

والسراج هو ما يعطي الضوء والحرارة ، وهو وصف مناسب للشمس .

وهنا يقول الحق : { هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ } ، وكلمة { وَقَدَّرَهُ } تعود في ظاهر الأمر إلى القمر . لكن في الواقع أن الشمس لها منازل أيضاً ، وقال الحق : { وَقَدَّرَهُ } لأن هناك شيئاً اسمه « الجعل » ، فهو سبحانه جعل الشمس ضياء ، وجعل القمر نوراً .

إذن : فالجَعْل جاء بأمرين اثنين؛ جعل للشمس ضياء وجعل للقمر نوراً ، هذا الجعل نفسه جعله الله لنقدر به الزمن ، فهو صالح للاثنين؛ للشمس وللقمر؛ لنعلم عدد السنين والحساب .

وفي العبادات نحتاج إلى تحديد بداية شهر رمضان؛ لنمارس عبادة الصوم ، ونحتاج إلى تحديد أشهر الحج ، وكذلك تحتاج المرأة مثلاً إلى حساب شهور العدة ، وكل هذه التقديرات تخضع

للهلال ، فهو علامة واضحة للكل ، فهو يبدأ صغيراً ويكبر ثم يصغر . { والقمر قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتى عَادَ كالعرجون القديم } [يس : 39]

و « العرجون » هو ما نسميه « السباطة » التي تحمل « شماريخ » البلح ، وكانوا يصنعون منها قديماً المكانس التي يكنسون بها بيوت البادية والريف ، وهكذا أعطانا الله تشبيهاً من البيئة التي عاش فيها العربي القديم .

وفي أول شهر كلنا نرى الهلال كعلامة مخبرة عن ميلاد الشهر ، وهكذا تعلَّم الإنسان أن يحسب الشهور بتقدير منازل القمر ، وبالنسبة للسنة؛ فالحق سبحانه يقول : { إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ الله يَوْمَ خَلَقَ السماوات والأرض . . . } [التوبة : 36]

والتقدير هنا اثنا عشر شهراً هلاليّاً . أما اليوم فيقدر بالشمس؛ لذلك فهي تدخل في تقدير المنازل . وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد شاء أن يجعل « الجعل » لأمرين؛ مجعول الشمس ، ومجعول القمر ، مصداقاً لقوله : { وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب مَا خَلَقَ الله ذلك إِلاَّ بالحق } .

والحق – كما أوضحنا – هو الشيء الثابت الذي لا يتغير . وحين نتأمل مسار الأفلاك ، ومسار الشمس ، ومسار القمر ، لا نجد فيها خلافاً ، بل نجد مراصد الكفار تعلن مواعيد تواجد القمر بين الأرض والشمس ، وقد توجد الأرض بين القمر والشمس ، ويتسبب هذا في ظاهرتي الكسوف للشمس ، والخسوف للقمر ، وكل هذه الأمور تجدها عندهم غاية في الدقة .

{ وَلاَ اليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس : 40]

وهذا القول الحكيم قد أثبت للعرب حكماً يعتقدونه ، ونفى حكماً آخر يعتقدونه ، فالعرب كانت تعتقد أن الليل قبل النهار ، بدليل أن تحديد الليلة الأولى في رمضان هو الميعاد الذي يبدأ فيه شهر الصوم ، وما داموا قد حكموا بأن الليل هو الذي يسبق النهار ، فلا بد من حكم مقابل؛ وهو أن النهار لا يسبق الليل .

وجاء القرآن إلى القضية المتفق عليها وتركها ، وهي أن النهار لا يسبق الليل مثلما اعتقد العرب ، ونفي القرآن أن يسبق الليل النهار . وكان المخاطب – إذن – يعتقد أن الليل يسبق النهار ، ويصحح الله المفاهيم فلا الليل يسبق النهار ولا النهار يسبق الليل .

وهكذا عرض الحق سبحانه للكونيات عرضاً رمزيّاً في القرآن؛ لأنه لو جاء بالتوضيح العلمي لذلك لكَذَّب العرب القرآن ، فلو قال القرآن بصريح العبارة : إن الأرض كروية ، لعارض الناس ذلك وقت نزول القرآن ، وما زلنا نجد من يعارض تلك الحقيقة في أواخر القرن العشرين؛ لذلك لم يكشف الحق كل الحقائق الكونية ، بل أشار إليها بما يحتمل قبول العربي البسيط لها .

وما دام لا يسبق النهار ، والنهار لا يسبق الليل ، فكيف جاء هذا الأمر – إذن؟

ونقول : هل خلق الله الشمسَ مواجهة لسطح الأرض أولاً ، ثم الشمس فجاء الليل؟ كان الأمر يصح لو أن الأرض كانت مسطوحة ، ولكن الحق سبحانه خلق الأرض كروية ، وذلك دليل على أن الحق سبحانه خلق الشمس والأرض على هيئة يوجد فيها الليل والنهار معاً ، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية ، فالنصف المواجه للشمس يكون الوقت فيه نهاراً ، وغير المواجه لها يكون الوقت فيه ليلاً ، ثم تدور الأرض؛ فيأتي النهار إلى القسم الذي كان ليلاً ، ويأتي الليل للقسم الذي كان نهاراً .

إذن : فالحق سبحانه حكى في القرآن الكريم عن الأمور الكونية – التي سوف تستكشفها العقول بعد نزول القرآن – وعالجها بحكمة ودقة ، وعلى سبيل المثال نجد قوله الحق : { وَهُوَ الذي جَعَلَ اليل والنهار خِلْفَةً . . . } [الفرقان : 62] .

ثم يأتي التعليل : { لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً } [الفرقان : 62] .

فالليل خلْفة النهار ، ومعنى خلفه أي : يخلف غيره . والمثال من حياتنا نجده في دوريات الحراسة ، نجد إنساناً يحرس موقعاً ما – مدّة ست ساعات مثلاً – وبعد انتهاء فترة الحراسة يسلم المهمة لحارس ثان ، وبذلك يخلف واحدٌ الآخر ، لكن من الذي بدأ المهمة الأولى في الحراسة قبل أن يأتي إنسان ليتسلم منه دورية الحراسة؟

وكذلك الأمر في الليل والنهار ، فبيّن الحق سبحانه أن الليل والنهار خلْفة ، ومعنى ذلك أن كلا منهما كان موجوداً من البدء ولأن الأرض تدور جَاء النهار في البلاد التي تشرق فيها الشمس ، وجاء الليل في البلاد التي تغيب عنها الشمس ، وتتابع الليل والنهار . هكذا فَصَّل الحق سبحانه آياته لنا ، وقال سبحانه :

{ يُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } .

ويقول سبحانه بعد ذلك : { إِنَّ فِي اختلاف اليل . . . } .

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)

وهكذا بيّن الحق اختلاف الليل عن النهار مما يؤكد أنهما وجدا معاً ، وعطف عليها { وَمَا خَلَقَ الله فِي السماوات والأرض } ؛ لأنه سبحانه خلق الكون بما فيه من مقومات حياة من مأكل ومشرب وهواء ، وغير ذلك ، ثم سخَّر الكون كله؛ لخدمة السيد وهو الإنسان .

ولو نظرتَ إلى مقومات الحياة لوجدت فيها احتياجات أساسية تتمثل في نفس هواء ، وشراب ماء ، وطعام؛ هذه أهم احتياجات الإنسان من مقومات الحياة . ويصبر الإنسان على المأكل أكثر مما يصبر على المشرب ، ويصبر على المشرب أكثر مما يصبر على نَفَس الهواء ، بل ولا يملك الإنسان الصبر على نَفَس الهواء مقدار شهيق وزفير .

لذلك شاء الحق أن يملك قومٌ طعام غيرهم ، لأن الجسم يمكنه أن يصبر على الطعام لمدة قد

تصل إلى الشهر ويعتمد في ذلك على إذابة الدهن المتراكم بداخله ، عكس ما اخترع البشر من آلات ، فالسيارة لا يمكن أن تسير لمتر واحد دون وقود ، أما الجسم فيتحمل لعل مَنْ يملك الطعام يخفف من القيود ، أو لعل الإنسان الجائع يجد طريقه لينال ما يقتات به .

أما الماء فقد شاء الحق أن يقلل من احتكار البشر له؛ لأن الإنسان أكثر احتياجاً للماء من الطعام .

أما الهواء فسبحانه وتعالى لم يُمَلِّك الهواء لأحد؛ لأن الهواء هو العنصر الأساسي للحياة؛ ولذلك اشتق منه لفظ النّفس ، ونَفْس ونَفَس .

ولو نظرتَ إلى الهواء في الوجود كله لوجدته عامل صيانة لكل الوجود من ثبات الأرض ، إلى ثبات المباني التي عليها ، إلى ثبات الأبراج ، إلى ثبات الجبال ، كل ذلك بفعل الهواء؛ لأن تياراته التي تحيط بجوانب كل الأشياء هي التي تثّبتها ، وإنْ تخلخل الهواء في أي ناحية حول تلك المباني والجبال فهي تنهدم على الفور .

إذن : الهواء هو الذي يحفظ التوازن في الكون كله . ولذلك قلنا : إنك لو استعرضتَ ألفاظ القرآن لوجدت أن الحق سبحانه حينما يتكلم عن تصريف الرياح ، فهو سبحانه يتكلم بدقَّةِ خالقٍ ، بدقة إله حكيمٍ ، فهو يرسل من الرياح ما فيه الرحمة ، مثل قوله الحق : { وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ . . . } [الحجر : 22] .

لكن إذا جاء بذكر ريح ففي ذلك العقاب ، مثل قوله : { بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ } [الحاقة : 6] .

ومثل قوله : { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأْصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي القوم المجرمين } [الأحقاف : 25] .

لأن الرياح تأتي من كل ناحية ، فتوازن الكائنات ، أما الريح فهي تأتي من ناحية واحدة فتدهم ما في طريقها .

وهنا يقول سبحانه :

{ وَمَا خَلَقَ الله فِي السماوات والأرض } أي : أنه جاء بالمخلوقات الأخرى مجملة بعد أن جاء بذكر الشمس والقمر كآيتين منفصلتين ، ثم ذكر السماوات والأرض وما فيهما من آيات أخرى : من رعد ، وبرق ، وسحاب ، ونجوم وعناصر في الكون ، كل ذلك مجمل في قوله : { وَمَا خَلَقَ الله فِي السماوات والأرض } ؛ لأنه لو أراد أن يفصّل لَذَكَرَ كثيراً من الآيات والنعم ، وهو القائل :

{ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا . . . } [إبراهيم : 34] .

والقرآن ليس كتاباً لبسط المسائل كلها ، بل هو كتاب منهج ، ومن العجيب أنه جاء ب « إن » وهي التي تفيد الشك في قوله : { وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا } ؛ لأن أحداً مهما أوتي من العلم ليس بقادر أن يُحصي نعمَ الله في الكون؛ ولأن الإقبال على العَدّ فرض إمكان الحصر ، ولا يوجد إمكان لذلك الحصر؛ لذلك لم يأت ب « إذا » ، بل جاء ب « إنْ » وهي في مقام الشك .

والأعجب من هذا أنك تجد أن العَدَّ يقتضي التكرار ، ولم يقل الله سبحانه : وإن تعدوا نعم الله ، بل جاء ب « نعمة » واحدة ، وإذا استقصيتَ ما في النعمة لوجدتَ فيها آلاف النعم التي لا تُحصَى .

ويُنهي الحق الآية بقوله : { لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ } ، والآيات تطلق ثلاث إطلاقات : الإطلاق الأول آيات القرآن ، والإطلاق الثاني على المعجزة الدالة على صدق الرسول ، والإطلاق الثالث للآية أنها تحمل عجيبة من عجائب الكون الواضحة في الوجود الدالة على عظمة الله سبحانه .

وهذه الآيات خلقها الله لتُلْفت إلى مُكَوِّن هذه الآيات ، واللفتة إلى مُكوِّن هذه الآيات ضرورة لينشأ الإنسان في انسجام مع الكون الذي أنشيء من أجله ، بحيث لا يأتي له بعد ذلك ما ينغّص هذا الانسجام ، فهبْ أن إنساناً ارتاح في حياته الدنيا ثم استقبل الآخرة بشقاء وجحيم ، فما الذي استفاده من ذلك؟

إذن : كل المسائل التي تنتهي إلى زوال لا يمكن أن تُعتبر نعمة دائمة؛ لأن النعمة تعني أن تتنعم بها تنعُّماً يعطيك يقيناً أنها لا تفارقك وأنت لا تفارقها ، والدنيا في أطول أعمارها؛ إما أن تفوت النعمةُ فيها الإنسان ، وإما أن يفوت هو النعمة .

والحق – سبحانه وتعالى – يبقى الذين يريدون أن يتقوا الله؛ ليصلوا إلى نعيم لا يفوت ولا يُفَات ، ويجب أن ينظروا في آيات الكون؛ لأنهم حين ينظرون في آيات الكون بإمعان يكونون قد أفادو فائدتين : الفائدة الأولى أن يفيدوا مما خلق الله ، والفائدة الثانية أن يعتبروا بأن هذا الكون الذي خلقه الله إنما جعله وسيلة ومَعْبراً إلى غيره ، فقد خلق فيه الخلق ليعيش بالأسباب ، لكنه يريد أن يُسْلمه بعد ذلك إلى حياة يعيش فيها بالمسبِّب وهو الله . فالذين يتقون هم الذين يلتفتون ، والذين لا يتقون لا يعتبرون بالنظر في الكون وتمر على الإنسان منهم الأشياء فلا يعتبرون بها ، كما قال الله : { وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف : 105] .

إذن : فهم لا يلتفتون إلى ما في آيات الحق من الآيات الدالة على عظمة قدرة الله سبحانه؛ فهم

غير حريصين على أن يَقُوا أنفسهم عذاب الآخرة .
ويقول الحق بعد ذلك : { إِنَّ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا . . . } .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7)

والرجاء هو طلب شيء محبوب متوقع ، والتمنى طلب شيء محبوب إلا أنه غير ممكن الحدوث ، ولكن تعلن بتمنّيك أنه أمر تحبه ، مثل من قال :
ألا ليتَ الشبابَ يعودُ يوماً ... فأخبِرَهُ بما فَعَلَ المَشِيبُ
هو بهذا القول يبين أن الشباب أمر محبوب ومرغوب . لكن هل يتأتى هذا؟ طبعاً لا . إذن : التمني هو طلب شيء محبوب لا يمكن أن يقع؛ ومثل قول الشاعر :
ليتَ الكواكبَ تَدْنُو لي فَأَنْظِمَها ... عُقُودَ مَدْحٍ فما أرضَي لكُم كَلِمِي
وهذا غير ممكن .
أما الرجاء فهو أن تطلب شيئاً محبوباً من الممكن أن يقع .
وهنا يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا } ، فلماذا لا يرجون لقاء الله؟ لأن الذي يرجو لقاء الله هو من أعد نفسه لهذا اللقاء؛ ليستقبل ثواب الله ، لكن الذي لم يفعل أشياء تؤهله إلى ثواب الله ، وعمل أشياء تؤهله إلى عقاب الله؛ فكيف له أن يرجو لقاء الله؟ إنه لا يرجو ذلك .
وعلى سبيل المثال : إن الرجل الذي يستشهد ويقدم نفسه للشهادة ، ونفسه هي أعز شيء عنده ، إنما يفعل ذلك لوثوقه بأن ما يستقبله بالاستشهاد خير مما يتركه من الحياة .
إذن : فالذي يرجو لقاء الله هو الذي يُعدُّ نفسه لهذا اللقاء؛ بأن يتقي الله في أوامره ، ويتقي الله في نواهيه؛ ولذلك تمر على الإنسان أحداث شَتّى؛ وهي في مقاييس اليقين بين أمرين اثنين : حسنات وسيئات ، وكل واحد يعلم أية حسنات قد فعل ، وأية سيئات قد اقترف ، ولا يغشُّ أحد نفسه ، فإذا ما كان حيّاً فقد يجعله الأمل يكذّب نفسه ، ولا يرى إلا ما فات من المغريات .
أما إذا جاء لحظة الغرغرة في الموت ، فهو يستعرض كل صفحته . فإن كانت حسنة استبشر وجهه ، وإن كانت سيئة اكفهرَّ وجهه ، ولذلك يقال : « فلان كانت خاتمته سيئة ، وفلان كانت خاتمته متهللة » . وهذا كلام صحيح؛ لأن الروح ساعة أن تُقبض فهي تترك الجسم على ما هو عليه ساعة فراقها ، فإن كان ضاحكاً ومستبشراً ، فقد رأى بعضاً مما ينتظره من خير .
والإنسان وقت الغرغرة لا يكذب على نفسه ، فهو ساعة يمرض بمرض فهو يأمل في العافية ، فإذا أتى وقت انتهاء تُعْرَضُ عليه أعماله عَرْضاً سريعاً ، فإن كانت الأعمال حسنة تنفرج أساريره؛ لأنه يستشرف ما سوف يلقاه من جزاء .

وهذا مثل التلميذ حين يكون مُجِدّاً ومجتهداً ثم يقولون له : هناك من جاء لك بالنتيجة؛ فيجري عليه مطمئناً . وإن كان غير مُجِدٍّ؛ لم يجب ، ويخاف من لقاء مَنْ يحمل النتيجة .

كذلك الذين يرجون لقاء الله؛ عملوا استعداداً لهذا اللقاء وينتظرون الجزاء من الله ، أما من لم يعملوا فهم يخافون من لقاء الله ولا يرجونه وسبب ذلك أنهم لم يعملوا للآخرة { وَرَضُواْ بالحياة الدنيا واطمأنوا بِهَا } وكأنهم قد اكتفوا بها ولم يرغبوا في الآخرة .

وقد سمى الله هذه الدار اسماً كان يجب بمجرد أن نسمعه ننصرف عنها ، فقال : { بالحياة الدنيا } ولا يوجد اسم أقل من ذلك ، والمقابل للحياة الدنيا هي الحياة العليا .

والإنسان قد يبحث في عُمْر الدنيا ويقول : إنها تستمر عشرة ملايين من السنين ، أو مائة مليون سنة ، وقد لا يلتفت إلى أن عمره هو موقوت في هذه الدنيا .

إذن : فالدنيا بالنسبة لك هي مقدار عمرك فيها ، لا مقدار عمرها الحقيقي إلى أن تقوم الساعة ، وماذا تستفيد منها وهي تطول لغيرك؟ إن عمر الدنيا بالنسبة للإنسان هو مقدار مُكْث الإنسان فيها ، وهو مظنون وغير متيقن ، وقد يمت وهو في بطن أمه أو يموت وهو ابن شهر ، أو ابن سنة ، أو بعد أن يبلغ المائة . فالذي يرضي بغير المتيقن قصير النظر .

ولذلك انظر إلى القرآن وهو يقول : { أَرَضِيتُمْ بالحياوة الدنيا مِنَ الآخرة فَمَا مَتَاعُ الحياوة الدنيا فِي الآخرة إِلاَّ قَلِيلٌ } [التوبة : 38] .

وحتى إن قسْت عُمْر الدنيا من بدء الخلق إلى أن تقوم الساعة ، فه إلى فناء ، وما دامت إلى فناء ، فهي متاع قليل ، ومن يطمئن إلى هذا المتاع القليل فهو غافل؛ لذلك يُنهي الحق الآية : { والذين هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ } عكس ما قال في الذين يعرفونَ قيمة العمل للآخرة . حين يقول الحق : { لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ } [يونس : 6] .

والغفلة : هي ذهاب المعنى عن النفس ، فما دام المعنى موجوداً في النفس ، فاليقظة توجد ، والغفلة تذهب . إذن : الغفلة ذهاب المعنى عن النفس ، واليقظة هي استقرار المعنى في النفس .

ونحن نعرف أن المعلومات التي يستقبلها الذهن البشري إنما تلتقطها بؤرة الشعور ، مثلما تلتقط آلة التصوير الفوتوغرافية أية صورة .

وإياك أن تظن أن الإنسان يعرف المعلومة من تكرارها مرتين مثلاً أو أكثر؛ لأن كل الأذهان تتفق في أنها تلتقط المعلومة من مرة واحدة ، ويتميز إنسان عن آخر في قدرته على أن يستقبل المعلومة بذهن مستعد لها؛ لأن بورة الشعور لا تلتقط إلا معنى واحداً ، ثم يتزحزح المعنى إلى حاشية الشعور؛ لتأتي المعلومة الثانية ، فإن استقبلت المعلومة وفي بؤرة شعورك معنى آخر؛ لا تثبت المعلومة؛ لذلك تكرر القراءة مرة واثنتين وثلاث مرات ، حتى تصادف المعلومة خُلُوَّ بؤرة الشعور .

ومثال هذا : الطالب حين يحاول حفظ قصيدة ، فلو كان ذهنه مستعداً لاستقبال القصيدة فهو يحفظها من مرة واحدة .

لاستقبال القصيدة فهو يحفظها من مرة واحدة .

إذن : الذهن كآلة الغوتوغرافيا؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول : { مَّا جَعَلَ الله لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ . . . } [الأحزاب : 4] .

فإن كنت تريد أن تستقبل معلومة ما ، فكُن حريصاً على أن تُفرّغ ذهنك ، من أي معلومة؛ لتأتي المعلومة الجديدة ، فتصادف خلاء لبؤرة الشعور؛ فتستقر فيها .

والمدرس الناجح هو الذي يلفت أذهان كل التلاميذ لما يقول ، وما دامت الأذهان قد التفتت إليه؛ فلن تمر كلمة دون أن يستوعبها التلاميذ ، عكس المدرس غير الناجح الذي يؤدي عمله برتابة وركاكة تَصْرف عنه التلاميذ . ونجد المدرس الناجح ، وهو يُلفت انتباه تلاميذه ويقطع الدرس؛ ليسأل أي واحد منهم عمَّا قال؛ فيستمع إليه التلاميذ من بعد ذلك بانتباه؛ لأن كل واحد منهم يتوقع أن يُسأل عن المعلومة التي قِيلتْ من قبل .

والتلميذ المجتهد هو الذي يقرأ الدرس بعقلية قادرة على مناقشة ما فيه من أساليب ومعلومات ، وهو يستصحب حضور الذهن أثناء القراءة ، أما التلميذ الفاشل فهو يقرأ دون يقظة أو انتباه .

مثال آخر : إن الفلاح الذي ينام على حافة بئر الساقية لا يقع في بئرها؛ لأنه ينام وهو مستصحب لفكرة أنه إن تقلَّب على جنبٍ ما فسوف يقع في البئر . وكذلك الإخوة حين ينام اثنان منهم على سرير واحد ، يقوم كل واحد منهما في الصباح وهو مستصحب أن هناك آخر بجانبه ، ولكن إذا نام كل منهما في سرير منفصل ، فهو يستيقظ ليجد رأسه في ناحية وساقيه في ناحية أخرى ، وتسمى هذه عملية الاستصحاب واليقظة ، ويقال « فلان يقظ » ، وكلمة « يقظ » ضد « نائم »؛ لأن اليقظان يحتفظ بالوعي والانتباه .

إذن : فالغفلة هي ذهاب المعنى من النفس وانطماسه ، والذين يمرون بالآيات وهم غافلون عنها لن ينتفعوا بشيء من هذه الآيات ، ثم تأتي لهم محصلة غفلتهم في الآخرة .

ويقول الحق سبحانه عنهم : { أولئك مَأْوَاهُمُ . . . } .

أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (8)

وأنت تقول : « أويت إلى كذا » ، إذا كان هذا هو المكان الذي يعصمك من شيء ، وهنا يقول الحق : { مَأْوَاهُمُ النار } فإذا كان ذلك هو المأوى ، فلا بد أن ما خارجها بالنسبة لهم أشد عذاباً . وهم يأوون إلى النار { بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } أي : بسبب ما كانوا يعملون من ذنوب وسيئات .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { إِنَّ الذين آمَنُواْ . . . } .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9)

هنا يتحدث الحق سبحانه عن المقابل ، وهم الذين آمنوا ، ويعُلِّمنا أنه سبحانه : { يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ } .

والهداية – كما قلنا من قبل – معناها الدلالة على الخير ، بالمنهج الذي أرسله الحق سبحانه لنا ، وبه بيَّن الحق السُّبُلَ أمام المؤمن والكافر ، أما الذي يُقبل على الله بإيمان فيعطيه الحق سبحانه وتعالى هداية أخرى؛ بأن يخفف أعباء الطاعة على نفسه ، ويزيده سبحانه هدى بالمعروف؛ لذلك قال سبحانه : { واستعينوا بالصبر والصلاوة وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين } [البقرة : 45] .

وهكذا يتلقى المؤمن مشقات الطاعة بحب؛ فيهونّها الحق سبحانه عليه ويجعله يدرك لذة هذه الطاعة؛ لتهون عليه مشقتها ، ويمده سبحانه أيضاً بالمعونة .

يقول الحق سبحانه :

{ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ } .

وما داموا قد آمنوا؛ فسبحانه يُنزِل لهم الأحكام التي تفيدهم في حياتهم وتنفعهم في آخرتهم ، أو أن الهداية لا تكون في الدنيا بل في الآخرة ، فما دامو قد آمنوا ، فهم قد أخذوا المنهج من الله سبحانه وتعالى وعملوا الأعمال الصالحة ، يهديهم الحق سبحانه إلى طريق الجنة .

ولذلك يقول الحق سبحانه : { يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم . . . } [الحديد : 12] .

ويقول سبحانه : { والذين آمَنُواْ مَعَهُ نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ . . . } [التحريم : 8] .

أي : أن نورهم يضيء أمامهم . أما المنافقون فيقولون للذين آمنوا : { انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارجعوا وَرَآءَكُمْ فالتمسوا . . . } [الحديد : 13] .

أي : أن هذا ليس وقتَ التماس النور ، فالوقت – لالتماس النور – كان في الدنيا؛ باتباع المنهج والقيام بالصالح من الأعمال .

إذن : فالحق سبحانه يهدي للمؤمنين نوراً فوق نورهم في الآخرة .

والآية تحتمل الهداية في الدنيا ، وتحتمل الهداية في الآخرة .

ويصف الحق سبحانه حال المؤمنين في الآخرة فيقول : { تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهار فِي جَنَّاتِ النعيم } [يونس : 9] .

وقلنا : إن الجنة على حوافِّ الأنهار؛ لأن الخضرة أصلها من الماء . وكلما رأيتَ مجرى للماء لا بد أن تجد خضرة ، والجنات ليست هي البيوت ، بدليل قول الحق سبحانه : { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي

جَنَّاتِ عَدْنٍ . . . } [التوبة : 72] .

ونجد الحق سبحانه يقول مرة : { تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار . . . } [التوبة : 100] .

ويقول سبحانه في مواضع أخرى : { تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار . . . } [البقرة : 25] .

والحق سبحانه يعطينا صوراً متعددة عن الماء الذي لا ينقطع ، فهي مياه ذاتية الوجود في الجنة لا تنقطع أبداً .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهم وَتَحِيَّتُهُمْ . . . } .

دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10)

دعواهم : أي دعاؤهم .

وهل الآخرة دار تكليف؛ حتى يواصلوا عبادة الله؟ لا ، ولكنها عبادة الالتذاذ ، وهم كُلَّما رأوا شيئاً يقولون : لقد أكلنا ذلك من قبل ، ولكنهم يعرفون حين يأكلون ثمار الجنة أن ما في الأرض كان يشبه تلك الثمار ، لكنه ليس مثلها . { قَالُواْ هذا الذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً . . . } [البقرة : 25] .

أو يقولون : { سُبْحَانَكَ اللهم } اعترافاً بالنعمة ، وأنت حين ترى شيئاً يعجبك تقول : سبحانك يا رب . وبعد أن تأتي لك النعمة وتقول : سبحان الله ، وتُفاجَأ بأشياء لم تكن في الحسبان – من فرط جمالها؛ فتقول : الحمد لله .

إذن : فأنت تستقبل النعمة « بسبحان الله » ، وينتهي من النعمة « بالحمد لله » . ولذلك يقول الحق سبحانه : { وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين } والذي يجعل للحياة الدنيا معنى ، ويجعل لها طعماً ويجعل لها استقراراً ، أن يكون الإنسان في سلام ، ومعنى السلام : الاطمئنان والرضا؛ فلا مُهيّجات ، ولا مُعكّرات ، ولا يأتي ذلك إلا بعدم اصطدام في ملكات النفس؛ فيتحقق سلام الإنسان مع نفسه ، وسلام الإنسان مع أهله ، وهذا هو المحيط الثاني ، وسلام الإنسان مع قومه ، وسلام الإنسان مع العالم كله ، كل ذلك اسمه سلام ، لا مُنغِّص ، لا من نفسه ، ولا من أهله ، ولا من قومه ، ولا من العالم . وكلما اتسعت رقعة السلام زاد الإحساس الإنسان بالاطمئنان .

وحين يقول الحق سبحانه : { وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ } ، فالسلام وارد في أشياء متعددة ، والحق سبحانه يقول : { إِنَّ أَصْحَابَ الجنة اليوم فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأرآئك مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ * سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ } [يس : 55–58] .

وهذا هو السلام الذي له معنى؛ فهو سلام من الله . ولم يقل سبحانه : « سلام يورثك اطمئناناً ونفساً راضية » فقط ، بل هو سلام بالقول من الله ، وانظر أي سعادة حين يخاطبك الحق

سبحانه وتعالى مباشرة . وهناك فرق بين أن يشيع الله فيك السلام وبين أن يحييك كلامه بالسلام . وهذا هو السبب في قوله : { سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ } [يس : 58] .

وهذا سلام الله ، ثم من بعده هذه المنزلة يأتي سلام الملائكة :

{ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم . . . } [الرعد : 23-24] .

إذن : فقول الحق هنا : { وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ } نجد فيه كلمة السلام رمز الرضا والاستقرار في الجنة؛ فالسلام هو أول الأحاسيس التي تحبها في نفسك ، ولو كانت الناس كلها ضدك . لكنك ساعة تستقر ، فأنت تسائل نفسك : ماذا فعلت ليكون البعضُ ضدي؟ وحين تجيب نفسك : « إنني لم أفعل إلا الخير »؛ فأنت تحس السلام في نفسك ، وإذا ما رحَّب الآخرون بما تفعل ، فالحياة تسير ، بلا ضدّ ولا حقد ، وهذا ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فيدخل رجل عرفه القوم فلما انصرف؛ قام واحد من الصحابة ، وذهب إلى الرجل؛ ليعلم ماذا يصنع ، وسأله : ماذا تفعل حتى يبشّرك الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة؟ فوجد سلوك الرجل مستقيماً ومتبعاً للمنهج دون زيادة ، فسأله الصحابي : لماذا – إذن – بشّرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة؟

قال الرجل : والله إني لأصلّي كما تصلّون ، وأصوم كما تصومون ، وأزكّى كما تزكون ، ولكني أبيت وما في قلبي غلٌّ لأحد .

هذا هو السلام النفسي ، وإذا ما وصل الإنسان إلى السلام مع النفس؛ فلا تضيره الدنيا إن قامت ، وبعد ذلك يضمن أن يوجد سلامه مع الله تعالى ، ومن عنده سلام مع نفسه ، ومع بيئته ، ومع مجتمعه؛ فهو ينال سلاماً من الله سبحانه . ويقول لنا القرآن عن الذين يعانون من مأزق في الآخرة : { يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ } [هود : 105] .

هؤلاء هم الذين شقوا في النار ، أما الذين سُعدوا ففي الجنة ، فماذا عن حال الذين لا هم شقوا ولا هم سعدوا – وهم أهل الأعراف؛ لأن الموقف يوم القيامة ينقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام؛ فقد قال الله سبحانه : { فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ } [القارعة : 6-9] .

ولم يقل الحق سبحانه لنا أمر الذين تساوت الكفتان لهم أثناء الحساب؛ لأنه سبحانه قال في حديث قدسي :

« إن رحمتي غلبت غضبي » .

ويبين لنا الحق سبحانه رحمته فيقول : { ونادى أَصْحَابُ الجنة أَصْحَابَ النار أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين } [الأعراف : 44] .

ويأتي أمر رجال الأعراف فيقول سبحانه : { وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ . . . } [الأعراف : 46]

لقد عرفوا المؤمنين بسيماهم ، وعرفوا الكفار بسيماهم ، وجليس البعض على الأعراف؛ ينتظرون وينظرون لأهل الجنة قائلين : { سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ } [الأعراف : 46] .

ثم يعطينا الحق سبحانه صورة ثانية فيقول : { ونادى أَصْحَابُ النار أَصْحَابَ الجنة أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ المآء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله قالوا إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين } [الأعراف : 50] .

أهل الأعراف – إذن – يسعدون بعطاء الله لأهل الجنة ، ويطمعون أن يغفر الله – سبحانه وتعالى – لهم .

ونحن في حياتنا نسمع المشرفين على المساجين أو المحكوم عليهم بالإعدام يقولون : قبل أن يحكم على المجرم بالإعدام ينخفض وزنه ، ثم يزيد بعد الحكم؛ لأن الأمر قد استقر . والذين يُشغلون بأن يعرفوا مكانهم في الآخرة ، أهو في الجنة أو في النار ، لا ينسون أن يقولوا للمؤمنين . { سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ . . . } [الأعراف : 46] .

وهنا يقول الحق سبحانه عن أهل الجنة : { وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين } وقد تكون آخر دعواهم ، أي : آخر كلمة .

فالواحد منهم يقول : أنا حمدت ربنا على الشيء الفلاني والشيء الفلاني . وآخر حَمْد هو قمة الحمد؛ لأنهم حمدوا الله على النعمة في الدنيا التي تزول ، ويحمدونه في الآخرة على النعمة التي لا تزول ، فلئِنْ يوجد حَمْد على النعمة التي لا تزول فهو قمة الحمد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلنَّاسِ الشر استعجالهم . . . } .

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11)

وهذه الآية تتناول قضية عقدية قد تكون شُغُل الناس الشاغل في الدعاء لله تعالى ، وقد لا يُجاب دعاؤهم مع كثرة الدعاء ، ويُحزنهم على أنفسهم ويقول الواحد منهم : لماذا لا يقبل الله دعائي؟ أو يقع بعضهم في اليأس .

ونقول لكل إنسان من هذا الفريق : لا ، أنت تدعو ، مرة تدعو بالشر ومرة تدعو بالخير ، فلو أن الله سبحانه وتعالى قد أجابك في جميع الدعاء ، فسوف يجيب دعاءك في الشر ودعاءك في الخير ، ولو أن الله سبحانه وتعالى عجَّل لك دعاء الشر ، كما تحب أن يُعجَّل لك دعاء الخير ، لَقُضِي إليك أجلك وانتهت المسألة ، وهناك من قالوا : { اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال : 32] .

ولو استجاب الحق لمثل هذا الدعاء ، لكان وبالاً على مَنْ دعوا ذلك الدعاء .

إذن : فمن مصلحتك حين تدعو على نفسك أو تدعو بأي وبال ألا يجيبك الله تعالى ، وافهم أن لله تعالى حكمة في الإجابة؛ لأنه سبحانه وتعالى مُنزَّه عن أن يكون موظفاً عند الخلق ، ومَن يدعُهُ بشيء يجبه عليه ، بل لا بد من مشيئته سبحانه في تقرير لون الإجابة؛ لأنه لو كان الأمر عكس ذلك لانتقلت الألوهية للعبد .

لقد صان الحق سبحانه عباده بوضع رقابة على الدعاء؛ وأنت تعتقد أن دعاءك بالخير ، ولكن رقابة الحق سبحانه التي تعلم كل شيء أزلاً تكاد أن تقول لك : لا ، ليس خيراً . وانتظر الخير بعدم استجابة دعائك؛ لأنه القائل سبحانه : { وعسى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وعسى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ . . . } [البقرة : 216] .

إذن : فمعرفتك ليست نهائية في تقرير الخير والشر؛ لذلك دَعِ الإلهَ الأعلى – وهو المأمون عليك – أن يستجيب أو لا يستجيب لما تدعوه وأنت في ظنك أنه الخير ، فالمعرفة العليا هي التي تفرق بين الخير والشر ، وفي المنع – أحياناً – عين العطاء؛ ولذلك يقول الحق : { وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير وَكَانَ الإنسان عَجُولاً } [الإسراء : 11] .

وقد تلحّ في دعاء لو استجيب لك؛ لكان شرّاً . والله سبحانه يعلم ما هو الخير لك ، وهو سبحانه يجيب أحياناً بعض خلقه في أشياء كان الإنسان منهم يتمنى أن توجد ، ثم يكتشف الإنسان أنها لم تكن خيراً ، وأحياناً يأتي لك بأشياء كنت تظن أنها شر لك ، فتجد فيها الخير . وهكذا يصحّح لك الحق سبحانه بحكمته تصرفاتك الاختيارية .

وقد قال الكافرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم . { اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال : 32] .

ومن قالوا هذا القول هم : العاص بن وائل السهمي ، والوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد المطلب والأسود بن عبد يهود ، وكانوا قد وصلوا إلى قمة الاضطراب؛ فهم قد اضطربوا أولاً حين اتهموه بأنه ساحر ، ولم ينتبهوا إلى غباء ما يقولون؛ لأنه إن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قدرة السحر؛ فلماذا لم يسحرهم هم ليؤمنوا أيضاً؟

واضطربوا مرة ثانية ، وحاولوا أن يقولوا : إن القرآن شعر ، أو له طبيعة الشعر والكلام المسجوع ، والقرآن ليس كذلك .

ولو أن جماعة غيرهم قالت مثل هذا القول لكان لهم عذرهم لأنهم ليسوا أهل لغة ، أما هؤلاء فهم قوم أهل دُرْبة على الفصاحة والبلاغة ، وكانوا يعقدون أسواق الشعر والخطابة ، ثم اضطربوا مرة ثالثة ، وحاولوا الطعن في مكانه محمد صلى الله عليه وسلم وهم يُقرّون بعظمة القرآن؛ فقالوا : { لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] .

والحق سبحانه وتعالى حينما يتعرض لحادثة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم مع

الكافرين؛ لا يقتصر في الحدث على ما وقع ، ولكنه يعالج قضية عامة كونية إلى أن تقوم الساعة ، ويجعل الحدث الحاصل في زمنه سبباً فقط؛ ليعطي عموم الحكم في كل زمان وفي كل مكان .
وإلا اقتصر الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد جاء القرآن للناس كافة ، وجاء للزمان عامة ، فلا بد أن تكون القضية المعروضة – أيّ قضية – أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوم عاصروه لها سبب خاص ، ولكن العبرة بعموم الموضوع لا بخصوص السبب .
ويعالج الله سبحانه وتعالى في هذه المسألة الشخصية من هؤلاء الذين قالوا ذلك قضيةً كونيةً ستظل إلى أن تقوم الساعة .
فقد دَعَوْا على أنفسهم : { إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال : 32] .
كما قال قوم عاد لهود : { أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ الله وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين } [الأعراف : 70] .
إذن : هم قد دعوا بشرٍّ على أنفسهم .
ويعالج الله قضية الدعاء بالخير أو الدعاء بالشرّ ، لأن الإنسان قد يضيق ذَرْعاً بأمور تحيط بذاته أو بالمحيط به؛ فإذا ضاق ذرعاً بأمور تحيط به في ذاته من ألم كمرض – مثلاً ، أو عاهة لا يقوى على الصبر عليها ، أو لا يقوى على تحمّلها؛ فيقول : « يا رب ، أرحني يا رب » ، وهو هنا يدعو على نفسه بالموت . فلو أن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاءه لَقُضيت المسألة .
ولكن الله هو الحكيم العزيز ، لا يأتمر بأمر أحد من خلقه ، ولا يعجل بعَجَلة العباد ، وكما يؤجل لك استجابته لدعوة الخير منك ، فهو يؤجل أيضاً إجابتك لدعوة الشرّ منك على نفسك؛ وفي ذلك رحمة منه سبحانه .
وإذا كنت تقول : أنا أدعو بالخير ، والله سبحانه وتعالى لا يعطيني ، فخذ مقابلها : أنك تدعو بالشرّ على نفسك ، ولا يجيبك الله .

ثم ألا يضيق الأب أحياناً ذَرْعاً بمن حوله ، فيقول : فليأخذني الله؛ لأستريح من وجوهكم؟ هَبْ أن الله سبحانه أجابه إلى هذه الدعوة ، فماذا يكون الموقف؟ وقد تجد من يقول : يا رب أصبني بالعمى فلا أراهم ، أو تدعو المرأة على نفسها أو على أولادها .
وأنتم تحبون أن يجيب الله تعالى دعاءكم ، فلو كان يجيبكم على دعاء الشرّ لانتهت حياتكم إلى الفزع ، مثل هذه الأم التي تدعو بالمتناقضات فتقول لولدها – مثلاً : « ربنا يسقيني نارك » فتطلب السُّقيا بالنار ، رغم أن السُّقيا للرّي ، والنار للحرارة .
إذن : قد يضيق الإنسان ذرعاً بنفسه ، أو يضيق ذرعاً بمن حوله؛ فيدعو على نفسه بالشرّ ، وحين يدعو الإنسان فيجب عليه أن ينزّه الحق سبحانه تعالى عن أن ينفذ ما يدعو العبد به دون

أن يمر الدعاء على حكمته سبحانه وتعالى .

{ وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ } ، فكما قبلتم أن يؤجل الله تعالى لكم دعاء الشر على أنفسكم؛ فاقبلوا منه تأجيل دعائكم بالخير؛ لأن الخير فيما تطلبون غير الخير فيما يعلم الله؛ فهو العليم الخبير . وقد تطلب خيراً تعلمه ولكن الله يعلم فيه شراً؛ فمن مصلحتك ألا يجيبك . وكما تحترم عدم إجابته لك في الشر على نفسك ، أو على من تحب ، فاحترم عدم إجابته لك فيما تظنه خيراً لك ، أو لمن تحب؛ لأن الله لا يعجل بعجله عباده؛ لأنه سبحانه هو الذي خلقهم ، وهو أعلم بهم ، فهو القائل : { خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ . . . } [الأنبياء : 37] .

وهو سبحانه القائل : { سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ } [الأنبياء : 37] .

والحق سبحانه لو استجاب لهؤلاء الذين دعوا : { اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً . . . } [الأنفال : 32] .

لكانت نهايتهم بجنس ما دعوا به ، وقُضي عليهم ، ثم انتهوا بعد ذلك إلى عذاب الجحيم .

ولكن الحق سبحانه شاء لهم البقاء؛ ليؤمن من يختار الإيمان ، أما من اختار الكفر؛ فعليه أن يتحمّل تبعة الطغيان التي تتمثل في أن الواحد منهم لا يختار الكفر فقط ، بل يتجاوز الحد ، ويطلب ممن آمن أن يرتد عن إيمانه ، وفي ذلك مجاوزة للحد؛ ولذلك فهم يعمهون في هذا الطغيان ، أي : تتكاثر عليهم الظروف ، ويثبت – لهم ولمن بعدهم – عجز الكفر عن مواجهة قدرة الحق .

وفي الحياة أمثلة – ولله المثل الأعلى – فهناك من يملك عدوه ، فيضربه؛ لكنه لا يقتله ، ثم يتكرر من هذا الخصم الإساءة ، فيضربه من جديد ، ثم تتكرر الإساءة فيضربه ، وهو لا يقتله أبداً ليداوم على إذلاله ، والقويّ لا يقتل خصمه ، بل يؤلمه؛ فلا يرفع الخصم رأسه .

والحق سبحانه يقول :

{ فَنَذَرُ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } .

أي : أن الحق سبحانه يترك أهل الباطل؛ لتتجمع عليهم سيئاتهم ، ويذوقون ويل خصومة الإسلام فلا يرفعون رءوسهم؛ لأن أهل الإسلام يردّون لهم الإساءة مضاعفة ، ولسوف ييأس أهل الباطل من أنهم سينتصرون على الحق بأي شكل وبأي لون .

وهم مهما تحايلوا في أساليب النكاية في الإسلام ، تجد الحق سبحانه وتعالى ينصر المسلمين .

والمثل أمامنا من سيرته حين أمره الحق سبحانه بأنه يهاجر ، وكان الكفار يحاصرون بيته بشباب من القبائل ، فخرج صلى الله عليه وسلم ولم يشعروا ، وقال صلى الله عليه وسلم : « شاهت الوجوه » .

وشاء سبحانه ذلك؛ ليعلموا أنهم لن يستطيعوا الانتصار على محمد صلى الله عليه وسلم ، لا بالمواجهة ، ولا بتبييت المكر .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان . . . } .

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12)

يصور الحق سبحانه حال البشر؛ الذين لم يرتبطوا دائماً بالإله ، وبمنهج الإله؛ هؤلاء الذين يتجهون إلى الله في لحظات الأزمات ، ثم ينسون الإيمان وتكاليفه من بعد ذلك . وحياتنا مليئة بهذا الصنف من البشر .

وفي قريتنا – على سبيل المثال – كان الذي يشرف على رعاية صحة الناس حلاّق الصحة ، إلى أن تخرَّج أحد أبناء القرية في كلية الطب ، فأخذ حلاق الصحة يشيع عنه ما لا يليق ، وفي أحد الأيام لاحظ الفلاحون خروج حلاق الصحة مبكراً وهو يحمل لِفافة كبيرة ، فأرادوا أن يعرفوا ما بها ، واكتشفوا أن ابن حلاق الصحة مريض وهو يريد أن يذهب به إلى الطبيب ، هو – إذن – لا يخدع نفسه ، رغم محاولته خداع أهل القرية بالشائعات الكاذبة عن الطبيب .

وكذلك الإنسان مع منهج الله ، قد يخدع الآخرين في لحظة اليسر ، لكنه لا ينسى الله لحظة العسر . وساعة يأتيه الضر ، وحين تعزُّ الأسباب عليه فهو لا يجد إلا كلمة « يا رب » . وأنت تجدها من أعتى الفُجَّار ، ومن أقسى العُتاة ، تجد الواحد من هؤلاء وهو يدعو الله ساعة الضرّ .

وهذا ما يقوله الحق سبحانه هنا : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ } .

والمثل من حياة هؤلاء الكافرين الذين دعوا على أنفسهم ، ولو كانوا يرغبون في إنهاء الحياة ، فلماذا يدعون الله وهم قد كفروا به؟ إنه كذب مفضوح ، والإنسان حين يضيق بنفسه قد يدعوا على نفسه بالضُّر؛ مثلما قال المتنبي :

كَفَى بِكَ داءً أن تَرَى الموتَ شَافياً ... وحَسْب المنايا أن يكُنَّ أمَانِيَا

أي : يكفي أن يصل الإنسان إلى الدرجة التي يتمنى فيها الموت .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد جاء بموقف الإنسان من الضر في أكثر من موضع ، فنجد آية تفرد الإنسان بمعنى؛ وآية ثانية تفرده بمعنى آخر ، وآية ثالثة تصور وضع الإنسان بشكل آخر .

يقول سبحانه : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يدعوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ . . . } [الزمر : 8] .

ويقول الحق في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا } .

ويقول سبحانه في موضع آخر : { وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ الله ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } [النحل : 53–54] .

إذن : فالحق سبحانه يأتي بها مفردةً مرّة ، ومرة يأتي بها جمعاً . ومرة يأتي بها مفردة على ألوان شتّى ، ومرة ثاني بها جمعاً بألوان شتّى ، ومرة يذكرها في البر ، ومرة يذكرها في البحر : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ . . . } [الإسراء : 67] إذن : فالآيات تستوعب حالات الإنسان المختلفة؛ إذا ما أصابه ضرّ ، ولم يجد مَفْزعاً له لا من ذاته ولا من البيئة المحيطة به ، فلا يجد من يلجأ إليه إلا ربه .

ومن الأسف أن هذا الإنسان يكون كافراً بالله .

والآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها تعطينا صوراً متعددة؛ فالحق سبحانه يقول : { دَعَانَا لِجَنبِهِ } أي : وهو مضطجع ، { أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً } . وهكذا تتناول الآية الإنسان في تصرفاته في الكون . والآية متمشية مع أطوار تكوين الإنسان؛ فالطفل الصغير لا يستطيع أن يتقلّب ، بل يقلّبه أهله؛ لينام على جنبه ، يكبر قليلاً فهو يتقلب بمفرده ثم تأتي حركة القوة الثانية؛ فيقعد الطفل ، ثم يقف دون أن يمشي ، ثم يمشي من بعد ذلك .

والآية هنا تعطينا التصوير الدقيق لثلاث حالات : { دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً } ، ولم تأت حركة المشي؛ لأن المتحرك للمشي لا يقعده الضر ، لكن من يمر بالمراحل الأخرى قائماً أو قاعداً أو راقداً على الجنب ، فقد يناله الضر .

وتلك هي مراحل النقص لمظاهر الحياة ، فالإنسان يعيش الطفولة ، ثم فُتوَّة الشباب ، ثم يأتيه الضعف والشيب ، فلا يستطيع أن يمشي بقوة الشاب ، وإن كان يستطيع الوقوف ، ثم تدخل عليه الشيخوخة؛ فيقعد ، ولا يستطيع أن يقف ، ثم تتقدم به الشيخوخة؛ فلا يمشي ، ولا يقف ، ولا يقعد ، ويظل راقداً على جنبه ، وقد يقلّبه أهله .

إذن : نقص كل شيء إنما يأتي على عكس بنائه؛ فكما بنيت مراحل الإنسان هكذا جنباً ، فقعوداً فقياماً ، فسعياً وحركة ، فهي تنتهي بالعكس؛ لأن النقص دائماً على عكس البناء .

ومن هذا خرجنا بالاستدلال على صدق الله في إخباره لخلقه بكيفية الخلق؛ لأننا لم نشاهد عملية الخلق ، مصداقاً لقوله سبحانه : { مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السموات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً } [الكهف : 51] .

ولأن الحق لم يُشْهِدْ أحداً على كيفية خَلْق السماء والأرض وخلق الإنسان ، فنحن لا نأخذ معلومات عن كيفية الخلق بعيداً عن القرآن؛ لذلك لا نصدق الافتراضات القائلة بأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ثم انخفضت درجة حرارتها؛ فكل هذه افتراضات لم تثبت صحتها ، والحق سبحانه قد قال : { مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ . . . } [الكهف : 51] .

وهذا القول يدل على أن العقل البشري لا يمكن أن يصل إلى معرفة كيفية خلق السماوات

والأرض ، وخلق الإنسان ، وهو معزول عن منهج السماء . فإن حُدِّثْتُمْ كيف خُلقتم بصورة تختلف عما جاء في القرآن فقولوا : كذبتم ، وإن حُدِّثتم كيف خُلقت السماوات والأرض بغير ما جاء في كتاب الله؛ فقولوا : كذبتم؛ لأن الله هو الذي خلق السماوات والأرض والإنسان وحده ، ولا أحد معه ، وما شهد أحد من هؤلاء مشهداً ليخبركم به . ويقول الحق سبحانه : { وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً } [الكهف : 51] .

والمضلون : هم الذين يقولون لكم افتراضات غير صحيحة عن تطور القرد حتى صار إنساناً ، وأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها؛ كل هذه افتراضات قالها من سمّاهم الحقُّ سبحانه : { المضلين } .

ولو لم يقل الله تعالى هذه الآية ، ثم جاء قوم ليقولوا : الإنسان كان في الأصل قرداً ، لقلنا : إن القرآن لم يتعرض لذلك ، وكان من الممكن أن نصدقهم ، لكن الله سبحانه شاء لنا أن تكون لدينا المناعة ضد هذا الإضلال .

وعملية الخلق غيب عنا ، أخبرنا عنها من خلقنا سبحانه ، فلم يكن معه شاهدٌ رأي هذا المشهد؛ ليقول لنا . والخلق الذي به الحياة ينقضه الموتُ ، ولكن الموت مشهد نشهده ، وأي نقض لشيء – كما عرفنا – إنما يأتي على عكس بنائه ، فإن بنينا عمارة من عشرين طابقاً ، وأردنا أن نهدمها لسبب أو لآخر؛ فنحن نهدم الطابق العشرين أولاً ، ثم نوالي الهدم بعد ذلك ، فما بُني أولاً يهدم أخيراً؛ لأن نَقْض كل شيء يأتي على عكس بنائه .

وبما أن الموت نَقْضٌ للحياة؛ فالروح إذا ما خرجت من الجسم ، وتُرك الجثمان بلا دفن ، فالجثمان يتصلَّب ، ثم يصير جيفَةً ، ثم يتبخر منه الماء ، ويتحلل الجسد إلى العناصر الأولى في التراب ، هذه مراحل الموت .

وقد أخبرنا الحق عن كيفية الخلق ، فبيَّن أنه سبحانه خلق الإنسان من التراب والماء فصار طيناً ، ثم استوى الطين ، فصوَّره الحق صورة الإنسان ونفخ فيه الروح ، وآخر مراحله في الإيجاد هي الروح؛ لذلك فخروج الروح هو أول مرحلة في الموت .

والله سبحانه وتعالى في هذه الآية جاء بوضع الإنسان على الجنب وقائماً وقاعداً ، ولم يأت بالمشي؛ لأن الماشي عنده قدرة فلا ضرّ في ذاته ، إن أصابه ضرّ فمن غيره ، والضرّ مقابل النفع ، والنافع هو مَنْ يُبقِي الشيء على صلاحه الممتع المريح ، في الذات أو في الخارج .

فساعة تكون ذاتك مستقيمة وملكاتها وأعضاؤها كلها سليمة؛ فليس عندك ضرّ ، لكن إذا حدث خلل في أي عضو من الأعضاء؛ فالمتاعب تبدأ ، ولذلك يقال عن السلامة العامة : هي ألا تشعر بأن لك أعضاء؛ لأنك حين تشعر أن لك عَيْناً – مثلاً – فاعرف أنها تؤلمك ، وإذا شعرت بأذنك فاعرف أنها تؤلمك . وأنت تطحن الطعام بضروسك وتأكل ولا تدري بها . ويوم

أن تدري بها فهذا المعنى أن ألماً قد بدأ .

وهكذا لا يشعر الإنسان بفقد السلامة إلا إذا عرف وانتبه إلى أن له عضواً من أعضائه ، فيقول : « آه يا عيني » ، و « آه يا أذني » .

ونقول : إن وجع العين مؤلم ألماً مخصوصاً ، وكذلك نقول : على أي عضو من الأعضاء ، أما من لا يشكو بأعضائه فهو لا يشعر بها؛ لأنها تؤدي أعمالها على الوجه المناسب . والسلامة فيمن حولك تتمثل في أن يحققوا لك المتعة والصفاء بدون كدر . وبذلك تظهر منفعتهم لك .

وكل إنسان له كبرياء ذاتي ، يبيّنها قول الحق سبحانه وتعالى : { كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى }

[العلق : 6-7] .

ولا يذل الإنسان إلا حين يعاني من آفة ما ، ولا يأتي طغيانه إلا عند استكمال النعمة في الخارج والنعمة في الداخل ، وإن بدأت النعمة في الانقباض عن الإنسان ، فكبرياؤه تتطاير . ومن كان يستعرض قوته على الناس ، قد يرجو القيام من الوقود؛ ليخطو بضع خطوات فلا يستطيع .

والإنسان لا يستغني إلا بما هو ذاتي فيه؛ لا بما هو موهوب له؛ لذلك فعليه ألا يغتر؛ لأن الواهب الأعلى قد يقبض هبتَه ، فقد يأخذ منك العافية ، وكثيراً ما رأينا أصحّاء قد مرضوا ، ورأينا أغنياء قد افتقروا ، وأصحاب جاه قد خرجوا من جاههم .

إذن : فلا داعي للغرور؛ لأن الله قد وهبك كل شيء ، وليس لك شيء ذاتيٌّ فيك أبداً؛ لذلك يجب أن ينعدم الغرور ، فما دام كل ما فيك موهوباً من الواهب الأعلى سبحانه ، فالواهب قد يسلب ما وهب ، وما إن تُسلب من الإنسان نعمة فهو ينتبه . فلا داعي – إذن – لأن يغتر أحد؛ حتى لا يسلم نفسه رخيصة للضياع .

والمثال : قد تكون عاديْتَ طبيباً ، وهو الوحيد في المكان الذي تقطنه ، وقد يحاول البعض الإصلاح بينك وبين هذا الطبيب ، فتتأبَّى أنت ، ثم يأتي لك مرض؛ فتلجأ إليه؛ لأن الله قد وهبه القدر السليم من التشخيص بالعلم ، فلا يجب – إذن – أن تغتر أو تتعالى على أحد .

لكن الإنسان هو الإنسان؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

{ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر . . . } [يونس : 12] .

والكافر ما إن يمسّه الضرّ؛ حتى يقع في بئر الهوان . أما المؤمن فهو مع ربه دائماً ، وإذا مسّه الضرّ فهو يدعو الله تعالى دائماً ولا ينساه؛ لذلك يتلطف به سبحانه ، عكس الكافر الذي يدعو الله ساعة الضرّ فقط . وأين كان ذلك الكافر ساعة أن دعاه الله سبحانه بالرسل إلى الإيمان؟

ونسيان الإنسان أمر وارد في تكوينه الفطري الأول؛ لأن الإنسان حين يعيش في محيط ما . فهو

يحب النفع من خارجه ، وإذا امتنع عنه هذا النفع الخارجي ، فهو يأخذ النفع من ذاته؛ من تحرُّك أبعاضه وخدمتها لبعضها البعض . ثم لا يجد له مفزعاً إلا أن يؤمن بمن خلقه أولاً . وانظر إلى التعبير القرآني : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ . . } [الإسراء : 67] .

إذن : فمن يَعْبُد غيرَ الله – سبحانه وتعالى – يضل عنه معبوده ، ولا يعرف كيف ينقذ من يعبده؛ لذلك يعود المشرك إلى الله ، ولا يجد سواه سبحانه ، فهو الذي ينقذ الإنسان لحظة الخطر؛ لأنه الرب الخالق هو أرحم بصنعته ، وهذه الرحمة تنقذ الإنسان حتى لو كان كافراً ، وهذا كلام منطقي؛ لأننا شهدنا بوحدانية الله تعالى في عالم الذر؛ حينما أخذ الله سبحانه علينا العهد الأول ، وقال لنا : { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ . . . } [الأعراف : 172] .

قلنا : { بلى . . . } [الأعراف : 172] .

وهذا إيمان الفطرة قبل أن توجد الغفلة أو التقليد؛ لذلك حين تتفرق الآلهة الباطلة من حول الكافر فهو يرجع إلى نفسه ويدعو الله ، بل ويوسِّط من يسأله أن يدعو له الله سبحانه .

وقد يدعو الإنسان من يواسيه لحظة المرض فلا يجد ولداً من أبنائه ، أو قريباً من أقربائه ، ولكنه فور أن يدعو الله تعالى؛ تلمسه رحمته سبحانه ، وقد تجد إنساناً حين يستجيب الحق سبحانه لدعائه قد تركبه حماقة الغرور من جديد ، ويقول ما جاء به الحق على لسان قارون : { إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي . . . } [القصص : 78] .

ويقول : كنت محتاطاً وقد رتبت أموري ، ثم يأخذه الحق سبحانه وتعالى أخْذَ عزيز مقتدر .

فإذا مسكم الضر؛ فلن تجدوا من البيئات الخارجة عنكم ، ولا من ذوات نفوسكم ، ما يغنيكم عن خالقكم ، وفي لحظة الخطر لا تستطيعون الكذب على أنفسكم؛ فلا تسألون حينئذ أحداً إلا الله سبحانه ، وتتذكرون في تلك اللحظة عهد الذَّر الأول ، وتعودون إليه سبحانه .

وهنا يقول الحق سبحانه : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً } .

وقوله الحق : { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ } يصوّر الضرّ وكأنه يغطي الإنسان ويلفّه ، فلا منقذ له أبداً؛ لأن الكشف هو رفع لغطاء يغطي كل الإنسان ، وهكذا يعطينا الله تعالى صورة لاستيعاب الضرّ للجسم كله؛ حتى وإن كان بأداة من أدوات الإدراك مثل قوله سبحانه : { فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ } [النحل : 112] .

فكأن الجوع والخوف قد لفّ القرية كلها ، فلم تعُد البطون وحدها هي الجائعة ، بل كل ما في الأجسام جائع وخائف .

وهنا يقول الحق سبحانه : { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ } .

وكلمة { مَرَّ } تفيد أن هنا وقفة ، فحين يقال : إن فلاناً مرّ عليَّ؛ مقابلها : وقف عندي .

ونفهم من قوله الحق : إن هذا الذي مسّة الضرّ كان له وقفة عند الله سبحانه؛ حين لفّه الضرّ ولم يجد معيناً له غير الله تعالى ، أما قبل ذلك فقد كان يأخذ الخير من الله ولا يتذكر الإيمان به سبحانه ، وبعد أن يذهب عنه الضرّ وينسى الإيمان؛ { كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ } وكأنه قد نسي تذلّله إلى الله ، فهو يمر من مرحلة الذلة والخضوع والدعاء إلى الله إلى مرحلة الاستكبار ، فلم يقف عند من أنقذه من ضره ، وهذه هي الصفاقة .

ويُنهي الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله : { كذلك زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } وهنا يأتي قضية ثانية؛ فالحادثة حادثة خاصة وينقلها الحق سبحانه إلى عمومية تأتي في الكون كله؛ فالمسرفون قديماً حصل لهم هذا ، والذي زَيّن لهم المرور إما أن يكون الشيطان ، وإما أن يكون الحمل من الحق على صفات موجودة فيه ، فالحق سبحانه هو القائل : { فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً . . . } [البقرة : 10] .

وقوله تعالى هنا :

{ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ .

. . } [يونس : 12] .

وهذا ما حدث للمسرفين سابقاً ، وما سوف يحدث من المسرفين لاحقاً . والإنسان له عمل مكوَّن من القول والفعل ، والعمل هو كل حادثة متفرعة عن جوارح الإنسان ، وإن كان القول مقابله الفعل؛ فالاثنان عمل .

وبعد أن يعرض الحق سبحانه هذه القضية في عمومها ، وفي خصوصها ، وفي انسحابها على الكون كله ، يبيّن لنا ضرورة الانتباه للكافرين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويحذر الكافرين : أأسلمنا رسولاً إلى خصومه أم نصرنا كل رسول جاء على خصومه؟ إن السوابق تدل على أن كُلاً أخذناه بذنبه ، فاحذروا أن تكونوا كذلك .

ويقول سبحانه بعد ذلك : { وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القرون مِن قَبْلِكُمْ . . . } .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13)

فإياكم أن تسوّل لكم أنفسكم أن تظلوا على عداوتكم لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنكم لن تنالوا منه شيئاً ، وسيتم الله نوره ، فلستم بدعاً عن سابق الخلق .

و { القرون } : جمع قرن ، والقرن من المقارنة ، وكل جماعة اقترنوا في شيء نسميهم « قرنا » .

وقد يكون القرن في الزمنية ، ولذلك حسبوا القرن مائة سنة ، والبشر الذين يجتمعون في مائة سنة يسمونهم قرناً .

أو القرن جماعة يقترنون في شيء يجمعهم ، مهما طال بهم الأمد .

وقوله الحق : { وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القرون مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ } فهل لو أمهلهم الله – تعالى – كانوا سيؤمنون؟ لا ، فلله علمٌ أزليٌّ ، يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه اضطراراً أو اختياراً .

والمثل من حياتنا وأعرافنا – ولله المثل الأعلى – نجد الإنسان حين يريد بناء بيت ، فالأمر يختلف حسب مقدرته؛ الفقير مثلاً يطلب بناء حجرتين؛ فيخطط رجل البناء لبناء حجرتين ، وإذا كان الإنسان متوسط الحال؛ فهو يتجه إلى مهندس يصمِّم له بناء على قدر سعته ، وإن كان الإنسان ثرياً؛ فهو يستدعي المهندس الذي يبني له بيتاً حسب إمكانات ورغبات هذا الثرى ، ويصمم المهندس نموذجاً للبناء قبل أن يبدأ فيه ، وتظهر فيه كل التفاصيل ، حتى ألوان النوافذ والأبواب والحجرات .

والعالم قبل أن يخلقه الله سبحانه وتعالى كانت هيئته مقدرة أزلاً عنده سبحانه ، وهذا هو مطلق القدرة من الحق تعالى ، ويأتي واقع الكون على وفق ما قدره الخالق سبحانه أزلاً؛ حتى ولو كان هناك اختيار للمخلوق الكافر ، فالله سبحانه يعلمه .

وقد صحَّ أن القلم جفَّ حتى في الأمور الاختيارية ، وسبحانه يعلم ما تجري به الأمور القهرية وما يقضيه على خلقه بدون اختيار منهم ، أما في الأمور الاختيارية فقد أعطى لخلقه الاختيار . وقد علم ما سوف يفعلونه غيباً؛ فصمم المسألة على وفق ما علم .

وإياك أن تظن أنه أراد بذلك أن يُلزمك ، لا ، فقد علم أنك ستختار . وهكذا علم الحق سبحانه من سيظلم نفسه – أزلاً – وسبق في علمه أن أهل القرون السابقة الذين أهلكهم لا يؤمنون .

{ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القرون مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ } والظلم معناه نقل الحق من صاحبه إلى غيره ، والحقوق الموهوبة من الخالق للبشر قد يظلمون فيها بعضهم البعض ، لكن أعلى درجات الظلم حين يظلم أحدٌ حقَّ الإله الأعلى في أن يكون إلهاً واحداً ، وأن ينقل ذلك لغيره . تلك هي قمة الظلم؛ لذلك قال سبحانه : { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13] .

وهم قد ظلموا في قضية العقيدة الأولى ، أو ظلموا في الحقوق بينهم وبين أنفسهم مصداقاً لقوله تعالى : { ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [يونس : 44] .

والواحد منهم ظالم ومظلوم في آن واحد؛ لأن الإنسان ملكاته متعددة ، ومن هذه الملكات ملكة الإيمان الفطري ، وملكة النفع العاجل الذاتي .

فإذا تغلبت ملكة النفع العاجل؛ تخرج النفس اللوَّامة؛ لتعيد الأمر إلى صوابه ، أما إن كانت نفس تأمر بالسوء فهي تطلب تحقيق الشهوات فقط؛ لأنها نفس أمَّارة بالسوء . أما إن اطمأنت النفس

إلى حكم الله تعالى ورضيت به ونفذت ما قاله الله سبحانه ، فهي نفس مطمئنة . ومن يظلم نفسه فهو الذي يتبع شهوات نفسه ، وهو قد أعطاها متعة عاجلة؛ ليستقبل بعد ذلك شقاءً آجلاً؛ فيكون قد ظلم نفسه .

والحق سبحانه لم يتركهم ، بل أرسل الرسل مُؤيَّدين بالمعجزات؛ ليبصّروهم . لكن الله تعالى يعلم أنهم لا يؤمنون؛ لذلك قال : { وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ } أي : أنه سبحانه لو تركهم أحياء فلن يؤمنوا ، فهو الذي خلقهم وقد علم أزلاً لن يختاروا الإيمان .

والحق سبحانه هو العالم الأعلى الذي يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه ، لا على وفق ما يقهر خلقه عليه ، فلو كان علمه – سبحانه – على وفق ما يَقْهر الخلق عليه لكانت المسألة منتهية .

والمثال – ولله المثل الأعلى – أنت في البيت وتريد أن تقوم وزوجتك برحلة ، فإن كان الأولاد صغاراً؛ فأنت تغلق عليهم الباب بعد أن تقول لهم : إن طعامكم في الثلاجة؛ لحماً وسمكاً وجبناً وزيتوناً . وبعد أن تخرج أنت وزوجتك تقول لها : إن أبناءنا لن يأكلوا إلا جبناً وزيتوناً؛ لأنهم سوف يستسهلون هذا الطعام . ولو لم يكن في الثلاجة إلا الجبن ، لما قلت ذلك؛ لأن هذا هو لون الطعام القهري .

لكن ما دام في الأمر اختيار؛ فأنت تستشف من سابق سلوك الأبناء . وعندما ترجع تجد أبناءك قد تصرفوا وفق ما حكمت به ، رغم أنك تركت لهم الاختيار . ومثال هذا في القرآن قوله الحق : { تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ } [المسد : 1–3] .

وفي هذا حكم من الله تعالى بان أبا لهب سيموت كافراً ، وهذا حكم مُعْلَن ويُردَّد في الصلاة ، ونحفظه ، وأبو لهب هو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان كافراً مثل غيره من الكفار . وقد آمن من الكفار الكثير . ألم يسلم عمر؟ ألم يسلم عكرمة بن أبي جهل؟ ألم يسلم عمرو بن العاص؟ ألم يسلم خالد بن الوليد؟ فما المانع أن يسلم أبو لهب هو الآخر؟ لا ، لم يسلم وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه أن ذلك لن يكون منه . وما كان من الممكن أن يمكر أبو لهب ويعلن إسلامه تكذيباً للقرآن؛ لأن الحق علم أزلاً سلوك أبي لهب .

{ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القرون مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كذلك نَجْزِي القوم المجرمين } .

وقوله : { كذلك } أي : مثل هذا الجزاء الذي كان للأمم السابقة التي أهلكت في القرون الماضية تجري ممن يحدِّد كل شيء؛ لأن القضايا في الكون واحدة . فالقضية الإيمانية موجودة من أول ما أرسلت الرسل إلى أن تنتهي الدنيا .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ . . . } .

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14)

و { خَلاَئِفَ } : جمع خليفة ، وهو من يَخْلُف غيره . والحق سبحانه وتعالى حينما وصف الإنسان أصدر أول بيان عن الإنسان قال للملائكة : { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً . . . } [البقرة : 30] .

والله سبحانه وتعالى قادر ، وسميع ، وعليم ، وله من كل صفات الكمال المطلق ، وأنت قد تكون لك قدرة وقد تُعَدِّى أثر قدرتك إلى غيرك ، ولكنك لن تستطيع أن تُعدِّي قدرتك إلى سواك ، فإن كنت قوياً؛ فلن تستطيع أن تَهَبَ ضعيفاً قدراً على قوتك . بل كل الذي تستطيعه هو أن تهبه أثر قدرتك ، فإن كان غير قادر على أن يحمل شيئاً؛ فأنت قد تحمله عنه ، وإن كان غير قادر على المشي؛ فأنت تأخذ بيده ، لكنك لا تستطيع أن تهبه جزءاً من قوتك الذاتية ، فيظل هو عاجزاً ، وتظل أنت قادراً – كما أنت .

هذا هو حال الخلق : تجد غنياً وآخر فقيراً ، ويُعطي الغني للفقير من غناه ، ويُعطي العالمُ للجاهل بعضَ العلم ، لكنه لا يهبه مَلَكَة العلم؛ ليعلم .

أما الحق الأعلى سبحانه فهو وحده القادر على أن يهب من قدرته المطلقة للخلق قدرة موهوبة محدودة ، وقد أعطاهم سبحانه أثر القدرة العالية في الأفلاك التي صنعها ولا دخل للإنسان فيها؛ من شمس ، وقمر ، ونجوم ، ورياح ، ومطر .

وأعطى الحق سبحانه للإنسان طاقة من قدرته في الأمور التي حوله؛ فأصبح قادراً على أن يفعل بعض الأفعال التي تتناسب مع هذه الطاقة الموهوبة . وبذلك عدَّي له الحق سبحانه من قدرته؛ ليقدر على الفعل ، ومن غناه؛ ليعطي الفقير ، ومن علمه؛ ليعطي الجاهل ، ومن حلمه؛ ليحْلِم على الذي يؤذيه .

إذن : فالخلق لا يعدّون صفاتهم إلى غيرهم ولكنهم يعدون آثار صفاتهم إلى غيرهم ، وتظل الصفة هنا قوة ، والصفة هناك ضعفاً . أما الواحد الأحد فهو الذي يستطيع أن يهب من قدرته للعاجز قدرة؛ فيفعل . فهل كل الكون هكذا؟

إن الكون قسمان : قسم وهبة الله سبحانه وتعالى للإنسان بدون مجال له فيه . وقد أقامه الحق بقدرته ، وهذا القسم من الكون مستقيم في أمره استقامة لا يتأتّى لها أي خَلَل ، مثل : نظام الأفلاك والسماء ودوران الشمس والقمر والريح وغيرها ، ولا تعاني من أي عطب أو خلل ، ولا يتأتى لهذا القسم فساد إلا بتدخُّل الإنسان .

وقسم آخر في الكون تركه الحق سبحانه للإنسان؛ حتى يقيمه القوة الموهوبة له من الله .

وأنت لا تجد فساداً في كون الله تعالى إلا وجدت فيه للإنسان يداً ، أما الأمور التي ليس للإنسان فيها يد فهي مستقيمة ، ولذلك يقول الحق سبحانه : { الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ } [الرحمن :

. [5

والمراصد تحدِّد موقع الأرض بين الشمس والقمر ، وموقع القمر بين الأرض والشمس بدقة تتناسب مع قوله الحق : { بِحُسْبَانٍ } ؛ لأن الإنسان ليس له دخل في هذه الأمور .

وفيما لنا فيه اختيار علينا أن نتدخل بمنهج الله تعالى؛ لتستقيم حركتنا مثل استقامة الحركة في الأكوان العليا التي لا دخل لنا فيها .

إذن : فالذي يُفْسد الأكوان هو تدخُّل الإنسان – فيما يحيط به ، وفيما ينفعل له وينفعل به – على غير منهج الله؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : { الرحمن * عَلَّمَ القرآن * خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان * الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ } [الرحمن : 1–5] .

أي : هذه الأكوان مخلوقة بحساب ، وتستطيعون أن تُقَدِّروا أوقاتكم وحساباتكم على أساسها .

ويقول سبحانه : { الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ * والنجم والشجر يَسْجُدَانِ * والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان * أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الميزان * وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان } [الرحمن : 5–9] .

وحتى تستقيم لكم الأمور الدنيا في حركتكم في الكون – كما استقامت لكم الأمور العليا؛ وازنوا كل الأمور بالعدل؛ فلا يختل لكم ميزان؛ لأن الذي يُفسد الكون أنكم تتدخلون فيما أعطي لكم من مواهب الله قدرة وعلماً وحَركة على غير منهج الله . فادخلوا على أمور حياتكم بمنهج الله في « افعل » و « لا تفعل »؛ ليستقيم لكم الكون الأدنى كما استقام لكم الكون الأعلى .

وهنا يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض } وقد خلف الإنسان الله تعالى في الأرض ، في أنه – مثلاً – يحرث الأرض ويسقيها؛ فيخرج له الزرع ، وحين يأخذ الإنسان أسباب الله فهو ينال نتيجة الأخذ بالأسباب . ولكن آفة الإنسان بغروره ، حين تستجيب له الأشياء ، فهو يظن أنه قادر بذاته ، لا بأسباب الله .

والحق سبحانه وتعالى يُعطي بعطاء ربوبيته للمؤمن ، وللكافر؛ لأنه سبحانه هو الذي استدعى الإنسان إلى الوجود ، لكنه جلّ وعلا ميَّز المؤمن ، لا بعطاء الأسباب فقط ، ولكن بالمنهج ، والتكليف المتمثل في « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » ، فإن أخذ العطاءين من الله يبقَ له حسن الجزاء في الدنيا والآخرة ، وإن أخذ العطاء الثاني في « افعل » و « لا تفعل » ، فهو يأخذ الآخرة ، أما دنياه فتظل متخلّفة .

ومن يُرِدْ أن يأخذ حُسْن الدنيا والآخرة ، فليأخذ عطاء ربوبية الله تعالى بالأخذ بالأسباب ، وعطاء الألوهية باتّباع المنهج .

إلا أن آفة الخليفة في الأرض أنه لا يرى بعض الأمور مستجيبة له؛ فيطغي ، ويظن أنه أصيل في الكون ، ونقول له : ما دمت تظن أنك أصيل في الكون فحافظ على روحك ، وعلى قوتك ،

وعلى غناك ، وأنت لن تستطيع ذلك . فأنت إنْ تمردت على أوامر الله بالكفر – مثلاً ، فلماذا لا تتمرد على المرض أو الموت؟

إذن : أنت مقهور للأعلى غصباً عنك ، ويجب أن تأخذ من الأمورالتي تنزل عليك بالأقدار؛ لتلجمك ، وتقهرك ، إلى أن تأخذ الأمور التي لك فيها اختيار بمنهج الله سبحانه .

ولو ظن الخليفة في الأرض أنه أَصيل في الكون ، فعليه أن يتعلّم مما يراه في الكون ، فأنت قد توكّل محامياً في العقود والتصرفات؛ فيتصرف في الأمور كلها دون الرجوع إليك ولا يعرض عليك بياناً بما فعل ، فتقوم أنت بإلغاء التوكيل .

فيلتفت مثل هذا المحامي إلى أن كل تصرف له دون التوكيل قد صار غير مقبول . فماذا عن توكيل الله للإنسان بالخلافة؟ يقول الحق سبحانه :

{ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض } فاذا كنتم قد خَلَفْتُم من هلكوا ، فمن اللازم أن تأخذوا العظة والعبرة في أن الله تعالى غالب على أمره ، ولا ترهقوا الرسل ، بل تأخذوا المنهج ، أو على الأقل ، لا تعارضوهم إن لم تؤمنوا بالمنهج الذي جاءوا به من الله . واتركوهم يعلنون كلمة الله ، وليعيدوا صياغة حركة المؤمنين برسالاتهم في هذا الكون على وفق ما يريده الله سبحانه ، وأنتم أحرار في أن تؤمنوا أو لا تؤمنوا . { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . . } [الكهف : 29] .

والدليل على ذلك أن الإسلام حينما فتح كثيراً من البلاد ترك لهم حرية اعتناق الإسلام أو البقاء على أديانهم ، مع أنه قد دخل بلادهم بالدعوة أو الغلبة ، ولكنه لم يقهر أحداً على الدين ، وأخذ المسلمون منهم الجزية مقابل حماية المسلمين لهم .

ولو كان الإسلام قد انتشر بالسيف لما أبقي أحداً على دينه ، ولكن الإسلام لم يُكْره أحداً ، وحمى حرية الاختيار بالسيف . ولأن الذين لم يؤمنوا بالإسلام عاشوا في مجتمع تتكفّل الدولة الإسلامية فيه بكل متطلبات حياتهم ، والمسلم يدفع زكاة لبيت المال ، فعلى من لم يؤمن – وينتفع بالخدمات التي يقدمها المجتمع المسلم – أن يدفع الجزية مقابل تلك الخدمات .

وإذا اعتقد الإنسان أنه خليفة ، وظل متذكراً لذلك ، فهو يتذكر أن سطوة من استخلفه قادرة على أن تمنع عنه هذه الخلافة .

إذن : فخذوا الأمر بالتسليم ، وساعدوا النبي صلى الله عليه وسلم على دعوته ، وآمنوا به أولاً ، وإن لم يؤمنوا به فاتركوه؛ ليعلن دعوته ، ولا تعاندوه ، ولا تصرفوا الناس عنه؛ لأن الحق هو القائل : { ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [يونس : 14] .

وساعة تأتي لأمر يعلله الله بكلمة { لِيَعْلَمَ . . . } [المائدة : 94] .

أو { لِنَنظُرَ . . . } [يونس : 14] .

فاعلم أن الله عالم وعليم ، علم كل الأمور قبل أن توجد ، وعلم الأشياء التي للناس فيها اختيار ، وهو القائل : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب . . . } [الحديد : 25] .

وقد علم الحق سبحانه أزلاً كل شيء ، وإذا قال الله : { وَلِيَعْلَمَ } فليس معنى ذلك أن هناك علماً جديداً لم يكن يعلمه سوف ينشأ له ، لكنه يعلم علم مشهد وإقرار منك؛ حتى لا يقول قائل : لماذا يحاسبنا الله على ما عَلِمَ أزلاً؟ بل يأتي سبحانه بالاختيار الذي يحدِّد للعبد المعايير التي تتيح للمؤمن أن يدخل الجنة ، وللعاصي أن يُحاسَب ويُجازَي .

وبذلك يعلم الإنسان أن الحق سبحانه شاء ذلك؛ ليعرف كل عبد عِلم الواقع ، لا عِلْم الحصول .

إذن : فذكر كلمة { وَلِيَعْلَمَ } وكلمة { لِنَنظُرَ } في القرآن معناها علم واقع ، وعلم مشهد ، وعلم حُجّة على العبد؛ فلا يستطيع أن ينكر ما حدث ، وقوله الحق : { وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب } [الحديد : 25] .

هذه الآية تبين لنا أدوات انتظام الحكم الإلهي : رسل جاءوا بالبرهان والبينة ، وأنزل الحديد للقهر ، قال الحق سبحانه : { وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ } [الحديد : 25] .

وقرن ذلك بالرسل ، فقال : { وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ } والنصرة لا تكون إلا بقوة ، والقوة تأتي بالحديد الذي يظل حديداً إلى أن تقوم الساعة ، وهو المعدن ذو البأس ، والذي لن يخترعوا ما هو أقوى منه ، وعلْم الله سبحانه هنا عِلْم وقوع منكم ، لا تستطيعون إنكاره؛ لأنه سبحانه لو أخبر خبراً دون واقع منكم؛ فقد تكذبون؛ لذلك قال سبحانه : { وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب } وفي هذا لون من الاحتياط الجميل .

وقوله : { وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ } كأن الله يطلب منكم أن تنصروه ، لكن إياكم أن تفهموا المعنى أنه سبحانه ضعيف ، معاذ الله ، بل هو قوي وعزيز . فهو القائل : { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ } [التوبة : 14] .

بل يريد سبحانه أن يكون أعداء الإيمان أذلاء أمامكم؛ لأنه سبحانه يقدر عليهم .

إذن : فقول الحق سبحانه : { وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ } إنما يعني : أن يكون علم الله بمن ينصر منهجه أمراً غيبيّاً؛ حتى لا يقول أحدٌ إن انتصار المنهج جاء صدفة ، بل يريد الحق سبحانه أن يجعل نُصْرة منهجه بالمؤمنين ، حتى ولو قَلَّت عدَّتُهم ، وقلّ عددهم .

إذن : قوله سبحانه وتعالى : { ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ } [يونس : 14

.]

أي : نظر واقع ، لا نظر علم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ } .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15)

نحن نعرف أن الآيات ثلاثة أنواع : آيات كونية ، وهي العجائب التي في الكون ويسميها الله سبحانه آيات ، فالآية هي عجيبة من العجائب ، سواء في الذكاء أو الجمال أو الخُلُق ، وقد سَمَّى الحق سبحانه الظواهر الكونية آيات؛ فقال تعالى :

{ وَمِنْ آيَاتِهِ اليل والنهار والشمس والقمر } [فصلت : 37] وقال سبحانه :

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً } [الروم : 21] وهذه من الآيات الكونية .

وهناك آيات هي الدليل على صدق الرسل عليهم السلام في البلاغ عن الله ، وهي المعجزات؛ لأنها خالفت ناموس الكون المألوف للناس . فكل شيء له طبيعة ، فإذا خرج عن طبيعته؛ فهذا يستدعي الانتباه .

مثلما يحكي القرآن عن سيدنا إبراهيم عليه السلام أن أعداءه أخذوه ورموه في النار فنجّاه الحق سبحانه من النار؛ فخرج منها سالماً ، ولم يكن المقصود من ذلك أن ينجو إبراهيم من النار ، فلو كان المقصود أن ينجو إبراهيم عليه السلام من النار؛ لحدثت أمور أخرى ، كألا يمكِّنهم الحق عزَّ وجلّ من أن يمسكوه ، لكنهم أمسكوا به وأشعلوا النار ورموه فيها ، ولو شاء الله تعالى أن يطفئها لفعل ذلك بلقليل من المطر ، لكن ذلك لم يحدث؛ فقد تركهم الله في غيّهم ، ولأنه واهب النار للإحراق قال سبحانه وتعالى لها :

{ يانار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ } [الأنبياء : 69] وهكذا تتجلّى أمامهم خيبتهم .

إذن : الآيات تُطلَق على الآيات الكونية ، وتطلق على الآيات المعجزات ، وتطلق أيضا على آيات القرآن ما دامت الآيات القرآنية من الله والمعجزات من الله ، وخلق الكون من الله ، فهل هناك آية تصادم آية؟ لا؛ لأن الذي خلق الكون وأرسل الرسل بالمعجزات وأنزل القرآن هو إله واحد ، ولو كان الأمر غير ذلك لحدث التصادم بين الآيات ، والحق سبحانه هو القائل :

{ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً } [النساء : 82] وقوله تعالى :

{ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ } [يونس : 15] أي : آيات واضحة . ثم يقول الحق سبحانه { قَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا } وعرفنا أن الرجاء طلب أمر محبوب ومن الممكن أن يكون واقعاً ، مثلما يرجو إنسان أن يدخل ابنه كلية الطب أو كلية الهندسة . ومقابل الرجاء شيء آخر

محبوب ، لكن الإنسان يعلم استحالته ، وهو التمنِّي ، فالمحبوبات إذن قسمان : أمور مُتمنَّاه وهي في الأمور المستحيلة ، لكن الإنسان يعلن أنه يحبها ، والقسم الثاني أمور نحبها ، ومن الممكن أن تقع ، وتسمى رجاء .

{ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا } هم مَن لا يؤمنون ، لا بإلهٍ ، ولا ببعثٍ؛ فقد قالوا :

{ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدهر } [الجاثية : 24] وقالوا :

{ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } [المؤمنون : 82] وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث؛ فهو لا يؤمن بلقاء الله سبحانه؛ لأن الذي يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء الله ، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح ، ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث سيُفاجَأون بالإله الذي أنكروه ، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

{ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً } [النور : 39]

السراب : هو أن يمشي الإنسان في خلاء الصحراء ، ويخيل إليه أن هناك ماءً أمامه ، وكلّما مشى ظن أن الماء أمامه ، وما إن يصل إلى المكان يجد أن الماء قد تباعد . وهذه العملية لها علاقة بقضية انعكاس الضوء ، فالضوء ينعكس؛ ليصور الماء وهو ليس بماء :

{ حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ } [النور : 39] إنه يُفاجَأ بوجود الله سبحانه الذي لم يكن في باله ، فهو واحد من الذين لا يرجون لقاء الله ، وهو ممن جاء فيهم القول :

{ وقالوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ } [السجدة : 10]

رغم أن الكون الذي نراه يُحتِّم قضية البعث؛ لأننا نرى أن لكل شيء دورة ، فالوردة الجميلة الممتلئة بالنضارة تذبل بعد أن تفقد مائيَّتها ، ويضيع منها اللون ، ثم تصير تراباً . وأنت حين تشم الوردة فهذا يعني أن ما فيها من عطر إنما يتبخر مع المياه التي تخرج منها بخاراً ، ثم تذبل وتتحلل بعد ذلك .

إذن : فللوردة دورة حياة . وأنت إن نظرت إلى أي عنصر من عناصر الحياة مثل المياه سوف تجد أن الكمية الموجودة من الماء ساعة خلق الله السموات والأرض هي بعينها؛ لم تَزِدْ ولم تنقص . وقد شرحنا ذلك من قبل . وكل شيء تنتفع به له دورة ، والدورة تُسلم لدورة أخرى ، وأنت مستفيد بين هذه الدورات؛ هدماً وبناءً .

والذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يؤمنون بالبعث ، ولا بثواب أو عقاب لا يلتفتون إلى الكون الذي يعيشون فيه؛ لأن النظر في الكون وتأمُّل أحواله يُوجِب عليهم أن يؤمنوا بأنها دورة من الممكن أن تعود .

وسبحانه القائل :

{ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ } [الأنبياء : 104] وهؤلاء الذين لا يرجون لقاء الله يأتي القرآن بما جاء على ألسنتهم : {

ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذآ أَوْ بَدِّلْهُ } [يونس : 15]

هم هنا يطلبون طلبين : { ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذآ } ، { أَوْ بَدِّلْهُ } .

أي : يطلبون غير القرآن . ولنلحظ أن المتكلم هو الله سبحانه؛ لذلك فلا تفهم أن القولين متساويان .

{ ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذآ أَوْ بَدِّلْهُ } هما طلبان : الطلب الأول : أنهم يطلبون قرآناً غير الذي نزل . والطلب الثاني : أنهم يريدون تبديل آية مكان آية ، وهم قد طلبوا حذف الآيات التي تهزأ بالأصنام ، وكذلك الآيات التي تتوعدهم بسوء المصير .

ويأتي جواب من الله سبحانه على شق واحد مما طلبوه وهو المطلب الثاني ، ويقول سبحانه : { قُلْ مَا يَكُونُ لي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي } ولم يرد الحق سبحانه على قولهم : { ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذآ } .

وكان مقياس الجواب أن يقول : « ما يكون لي أن آتي بقرآن غير هذا أو أبدله »؛ لكنه اكتفى بالرد على المطلب الثاني { أَوْ بَدِّلْهُ } ؛ لأن الإتيان بقرآن يتطلب تغييراً للكل . ولكن التبديل هو الأمر السهل . وقد نفى الأسهل؛ ليسلِّموا أن طلب الأصعب منفي بطبيعته .

وأمر الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : { قُلْ مَا يَكُونُ لي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي } أي : أن أمر التبديل وارد ، لكنه ليس من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . بل بأمر من الله سبحانه وتعالى ، إنما أمر الإتيان بقرآن غير هذا ليس وارداً .

إذن : فالتبديل وارد شرط ألا يكون من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال الحق سبحانه :

{ وَإِذَا بَدَّلْنَآ آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ } [النحل : 101] وهو ما تذكره هذه الآية : { قُلْ مَا يَكُونُ لي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي } و { تِلْقَآءِ } من « لقاء »؛ فتقول : « لقيت فلاناً » ، ويأتي المصدر من جنس الفعل أو حروفه ، ويسمون « التلقاء » هنا : الجهة .

والحق سبحانه يقول في آية أخرى :

{ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ } [القصص : 22] .

و { تِلْقَآءَ مَدْيَنَ } أي : جهة مدين . و « التلقاء » قد تأتي بمعنى اللقاء؛ لأنك حين تقول : « لقيته » أي : أنا وفلان التقينا في مكان واحد ، وحين نتوجّه إلى مكان معيّن فنحن نُوجَد فيه .

ويظن بعض الناس أن كل لفظ يأتي لمعنيين يحمل تناقضاً ، ونقول : لا ، ليس هناك تناقض ، بل

انفكاك جهة ، مثلما قال الحق سبحانه :

{ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام } [البقرة : 144]

والشطر معناه : الجهة؛ ومعناه أيضاً : النصف ، فيقال : « أخذ فلان شطر ماله » ، أي : نصفه ، و « اتجهت شطر كذا » ، أي : إلى جهة كذا .

وهذه معان غير متناقضة؛ فالإنسان منا ساعة يقف في أي مكان؛ يصبح هذا المكان مركزاً لمرائيه ، وما حوله كله محيطاً ينتهي بالأفق .

ويختلف محيط كل إنسان حسب قوة بصره ، ومحيط الرؤية ينتهي حين يُخَيَّل لك أن السماء انطبقت على الأرض ، هذا هو الأفق الذي يخصُّك ، فإن كان بصرُك قوياً فأفقك يتَّسع ، وإن كان البصر ضعيفاً يضيف الأفق .

ويقال : « فلان ضَيِّق الأفق » أي : أن رؤيته محدودة ، وكل إنسان منا إذا وقف في مكان يصير مركزاً لما يحيطه من مَرَاء؛ ولذلك يوجد أكثر من مركز ، فالمقابل لك نصف الكون المرئي ، وخلفك نصف الكون المرئي الآخر ، فإذا قيل : إن « الشطر » هو « النصف » ، فالشطر أيضاً هو « الجهة » .

وهنا يقول الحق سبحانه : { قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ } .

أي : أنه صلى الله عليه وسلم لا يأتي بالقرآن من عند نفسه صلى الله عليه وسلم ، بل يُوحَى إليه .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : { إِنِ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [يونس : 15]

أي : أنه صلى الله عليه وسلم لو جاء بشيء من عنده ، ففي هذا معصية لله تعالى ، ونعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُعرف عنه أنه كان شاعراً ، ولا كان كاتباً ، ولا كان خطيباً . وبعد أن نزل الوحي عليه من الله جاء القرآن في منتهى البلاغة .

وقد نزل الوحي ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الأربعين من عمره ولا توجد عبقرية يتأجَّل ظهورها إلى هذه المرحلة من العمر ، ولا يمكن أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد أجَّل عبقريته إلى هذه السِّن؛ لأنه لم يكن يضمن أن يمتد به العمر .

ويأتي لنا الحق سبحانه بالدليل القاطع على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتَّبع إلا ما يُوحَى إليه فيقول :

{ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ إني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [يونس : 15]

ويأتي الأمر بالرَّدِّ من الحق سبحانه على الكافرين : { قُل لَّوْ شَآءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ . . . . }

.

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (16)

وهنا يبلّغ محمدٌ صلى الله عليه وسلم هؤلاء الذين طلبوا تغيير القرآن أو تبديله : لقد عشت طوال عمري معكم ، ولم تكن لي قوة بلاغة أو قوة شعر ، أو قوة أدب . فمن له موهبة لا يكتمها إلى أن يبلغ الأربعين ، ورأيتم أنه صلى الله عليه وسلم لم يجلس إلى معلِّم ، بل عندما اتهمتموه وقلتم :

{ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } [النحل : 103]

وفضحكم الحق سبحانه بأن أنزل في القرآن قوله تعالى :

{ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ } [النحل : 103]

ولم يخرج النبي صلى الله عليه وسلم من شبه الجزيرة العربية ، ولم يقرأ مؤلَّفات أحد . فمن أين جاء القرآن إذن؟

لقد جاء من الله سبحانه ، وعليكم أن تعقلوا ذلك ، ولا داعي للاتهام بأن القرآن من عند محمد؛ لأنكم لم تجرّبوه خطيباً أو شاعراً ، بل كل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن نزلت عليه الرسالة ، هو بلاغ من عند الله .

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يُنسَب الكمال إلى إنسان فينفيه ، فالعادة أن يسرق شاعر مثلاً قصيدة من شاعر آخر ، أو أن ينتحل كاتب مقالة من آخر . لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلّغكم أن كمال القرآن ليس من عنده ، بل هو مجرد مبلّغ له ، وكان يجب أن يتعقَّلوا تلك القضية بمقدّماتها ونتائجها؛ فلا يلقوا لأفكارهم العنان؛ ليكذبوا ويعاندوا ، فالأمر بسيط جداً .

يقول الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم :

{ قُل لَّوْ شَآءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [يونس : 16]

إذن : فالمقدمة التي يريد الحق سبحانه وتعالى أن يقنع بها الكافرين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسله الله رسولاً من أنفسهم ، فإن قلت :

{ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ } [آل عمران : 164]

أي : أنه صلى الله عليه وسلم من جنس الناس ، لا من جنس الملائكة ، أو { مِّنْ أَنْفُسِهِمْ } أي : من أمة العرب ، لا من أمة العَجَم ، أو { مِّنْ أَنْفُسِهِمْ } أي : من قبيلتهم التي يكذِّب أصحابُها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

إذن : فحياته صلى الله عليه وسلم معروفة معلومة لكم ، لم يَغِبْ عنكم فترة؛ لتقولوا بُعِثَ بعثةً؛

ليتعلَّم علماً من مكان آخر ، ولم يجلس إلى معلِّم عندكم ولا إلى معلِّم خارجكم ، ولم يَتْلُ كتاباً ، فإذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن تأخذوا من هذا مقدِّمة وتقولوا : فمن أين جاءت له هذه الحكمة فجأة؟

أنتم تعلمون أن المواهب والعبقريات لا تنشأ في الأربعينات ، ولكن مخايل العبقرية إنما ينشأ في نهاية العقد الثاني وأوائل العقد الثالث ، فمن الذي آخّر العبقرية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقول هذا القول البليغ الذي أعجزكم ، وأنتم أمّة البلاغة وأمة الفصاحة المرتاضون عليها من قديم ، وعجزتم أمام ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؟

كان يجب أن تقولوا : لم نعرف عنه أنه يعلم شيئاً من هذا ، فإذا حَلّ لكم اللغز وأوضح لكم : أن القرآن ليس من عندي؛ كان يجب أن تصدقوه؛ لأنه صلى الله عليه وسلم يعزوه إلى خالقه وربه سبحانه .

والدليل على أنكم مضطربون في الحكم أنكم ساعة يقول لكم : القرآن بلاغ عن الله ، تكذِّبونه ، وتقولون : لا ، بل هو من عندك ، فإذا فَترَ عنه الوحي مرّةً قلتم : قلاه ربُّه .

لماذا اقتنعتم بأن له ربّاً يَصِلُه بالوحي ويهجره بلا وحي؟

أنتم إذن أنكرتم حالة الوصل بالوحي ، واعترفتم بالإله الخالق عندما غاب عنه الوحي ، وكان يجب أن تنتبهوا وتعودوا إلى عقولكم؛ لتحكموا على هذه الأشياء ، وقد ذكر الحق سبحانه ذلك الأمر في كثير من آياته ، يقول سبحانه :

{ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ } [آل عمران : 44]

ويقول سبحانه :

{ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر } [القصص : 44]

ويقول سبحانه :

{ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ } [القصص : 45]

ويقول سبحانه :

{ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَابَ المبطلون } [العنكبوت : 48]

فمن أين جاءت تلك البلاغة؟ كان يجب أن تأخذوا هذه المقدِّمات؛ لتحكموا بأنه صادق في البلاغ عن الله؛ لذلك يُنهي الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله : { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } .

وحين ينبهك الحق سبحانه وتعالى إلى أن تستعمل عقلك ، فهذا دليل على الثقة في أنك إذا استعملت عقلك؛ وصلت إلى القضية المرادة . والله سبحانه وتعالى مُنزَّه عن خديعة عباده ، فمن

يخدع الإنسان هو من يحاول أن يصيب عقله بالغفلة ، لكن الذي ينبّه العقل هو من يعلم أن دليل الحقيقة المناسبة لما يقول ، يمكن الوصول إليه بالعقل .

وقول الحق سبحانه في آخر الآية : { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } يدلنا على أن القضية التي كذَّبوا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم نشأت من عدم استعمال عقولهم ، فلو أنهم استعملوا عقولهم في استخدام المقدمات المُحسَّة التي يؤمنون بها ويسلمون؛ لانتهوا إلى القضية الإيمانية التي يقولها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولو أنهم فكّروا وقالوا : محمد نشأ بيننا ولم نعرف له قراءة ، ولا تلاوة كتاب ولا جلوساً إلى معلِّم ، ولم يَغبْ عنا فترة ليتعلَّم ، وظل مدة طويلة إلى سِنّ الأربعين ولم يرتض على قول ولا على بلاغة ولا على بيان؛ فمن أين جاءته هذه الدفعة القوية؟

كان يجب أن يسألوه هو عنها : من أين جاءتك هذه؟ وما دام قد قال لهم : إنها جاءته من عند الله ، فكان يجب أن يصدِّقوه .

ومهمة العقل دائما مأخوذة من اشتقاقه ، « فالعقل » مأخوذ من « عقال » البعير .

وعقال البعير هو الحبل الذي يربط به ساقي الجمل؛ حتى لا ينهض ويقوم؛ لنوفِّر له حركته فيما نحب أن يتحرك فيه ، فبدلاً من أن يسير هكذا بدون غرض ، وبدون قصد ، فنحن نربط ساقيه؛ ليرتاح ولا يتحرك ، إلى أن نحتاجه في حركة .

إذن : فالعقل إنما جاء؛ ليحكم المَلَكَات؛ لأن كل مَلَكَة لها نزوع إلى شيء ، فالعين لها مَلَكَة أن ترى كل شيء ، فيقول لها العقل : لا داعي أن تشاهدي ذلك؛ لأنه منظر سيؤذيك ، والأذن تحب أن تسمع كل قول ، فيقول لها العقل : لا تسمعي إلى ذلك؛ حتى لا يضرك .

إذن : فالعقل هو الضابط على بقية الجوارح . وكذلك كلمة « الحِكْمة » ، مأخوذة من « الحَكَمة » هي في « اللِّجام » الذي يوضع في فم الفرس؛ حتى لا يجمح ، وتظل حركته محسوبة؛ فلا يتحرك إلا إلى الاتجاه الذي تريده .

إذن : شاء الحق سبحانه أن يميّز الإنسان بالعقل والحكمة؛ ليقيم الموازين لملكات النفس؛ فخذوا المقدمات المُحَسَّة التي تؤمنون بها وتشهدونها وتسلمونها لرسول الله صلى الله عليه سلم لتستنبطوا أنه جاء بكلامه من عند الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى }

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17)

وهنا يوضح القرآن على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم : أأكذب على الله؟ إذا كنت لم أكذب عليكم أنتم في أموري معكم وفي الأمور التي جرَّبتموها ، أفأكذب على الله؟! إن الذي

يكذب في أول حياته من المعقول أن يكذب في الكِبَر ، وإذا لم أكذب علكيم أنتم ، فهل أكذب على الله؟

وإذَا لم أكن قد كذبت وأنا غير ناضج التفكير ، في طفولتي قبل أن أصل إلى الرجولة ، فأنا الآن لا أستطيع الكذب . فإذا كنتم أنتم تتهمونني بذلك ، فأنا لا أظلم نفسي وأتهمها بالكذب ، فتصبحون أنتم المكذبين؛ لأنكم كذبتموني في أن القرآن مبلغ عن الله ، ولو أنني قلت : إنه من عند نفسي لكان من المنطق أن تُكذِّبوا ذلك؛ لأنه شرف يُدَّعى . ولكن أرفعه إلى غيري؛ إلى من هو أعلى مني ومنكم .

وقوله الحق : { فَمَنْ أَظْلَمُ } أي : لا أحد أظلم ممن افترى على الله سبحانه كذباً؛ لأن الكاذب إنما يكذب ليدلِّس على من أمامه ، فهل يكذب أحد على من يعلم الأمور على حقيقتها؟ لا أحد بقادر على ذلك . ومن يكذب على البشر المساوين له يظلمهم ، لكن الأظلم منه هو من يكذب على الله سبحانه .

والافتراء كذب متعمد ، فمن الجائز أن يقول الإنسان قضية يعتقدها ، لكنها ليست واقعاً ، لكنه اعتقد أنها واقعة بإخبار من يثق به ، ثم تبين بعد ذلك أنها غير واقعة ، وهذا كذب صحيح ، لكنه غير متعمد ، أما الافتراء فهو كذب متعمد .

ولذلك حينما قسم علماء اللغة الكلام الخبري؛ قسموه إلى : خبر وإنشاء ، والخبر يقال لقائله : صدقت أو كذبت ، فإن كان الكلام يناسب الواقع فهو صدق ، وإن كان الكلام لا يناسب الواقع فهو كذب .

وقوله الحق : { افترى عَلَى الله كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ } يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن قلتم إنني ادعيت أن الكلام من عن الله ، وهو ليس من عند الله . فهذا يعني أن الكلام كذب وهو من عندي أنا ، فما موقف من يكَذب بآيات الله؟

إن الكذب من عندكم أنتم ، فإن كنتم تكذبونني وتدَّعون أني أقول إن هذا من الله ، وهو ليس من الله ، وتتمادون وتُكذِّبون بالآيات وتقولون هي من عندك ، وهي ليست من عندي ، بل من عند الله؛ فالإثم عليكم .

والكذب إما أن يأتي من ناحية القائل ، وإما من ناحية المستمع ، وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم عدالة التوزيع في أكثر من موقع ، مثلما يأتي القول الحق مبيّناً أدب النبوة :

{ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } [سبأ : 24] وليس هناك أدب في العرض أكثر من هذا ، فيبين أن قضيته صلى الله عليه وسلم وقضيتهم لا تلتقيان أبداً ، واحدة منهما صادقة والأخرى كاذبة ، ولكن من الذي يحدد القضية الصادقة من الكاذبة؟ إنه الحق سبحانه .

وتجده سبحانه يقول على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم : { أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } وفي ذلك طلب لأن يعرضوا الأمر على عقولهم؛ ليعرفوا أي القضيتين هي الهدى ، وأيهما هي الضلال .

وفي ذلك ارتقاء للمجادلة بالتي هي أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق سبحانه :

{ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [سبأ : 25]

أي : كل واحدة سيُسأل عن عمله ، فجريمتك لن أسأل أنا عنها ، وجريمتي لا تُسأل أنت عنها .

ونسب الإجرام لجهته ولم يقل : « قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نُسأل عما تجرمون » وشاء ذلك ليرتقي في الجدل ، فاختار الأسلوب الذي يُهذِّب ، لا ليهيّج الخصم؛ فيعاند ، وهذا من الحكمة؛ حتى لا يقول للخصم ما يسبب توتره وعناده فيستمر الجدل بلا طائل .

وهنا يقول الحق سبحانه : { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً } فإذا كان الظلم من جهتي؛ فسوف يحاسبني الله عليه ، وإن كان من جهتكم؛ فاعلموا قول الحق سبحانه : { إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ المجرمون } ولم يحدد من المجرم ، وترك الحكم للسامع .

كما تقول لإنسان له معك خلاف : سأعرض عليك القضية واحكم أنت ، وساعة تفوضه في الحكم؛ فلن يصل إلا إلى ما تريد . ولو لم يكن الأمر كذلك لما عرضت الأمر عليه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَضُرُّهُمْ }

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (18)

وكلمة { وَيَعْبُدُونَ } تقتضي وجود عابد؛ ووجود معبود؛ ووجود معنى للعبادة . والعابد أدنى حالاً من المعبود ، ومظهر العبادة والعبودية كله طاعة للأمر والانصراف عن المنهي عنه .

هذا هو أصل العبادة ، ووسيلة القرب من الله .

وحتى تكون العبادة في محلها الصحيح لا بد أن يقر العابد أن المعبود أعلى مرتبة في الحكم على الأشياء ، أما إن كان الأمر بين متساويين فيسمونه التماساً .

إذن : فهناك آمر ومأمور ، فإن تساويا؛ فالمأمور يحتاج إلى إقناع ، وأما إن كان في المسألة حكم سابق بأن الآمر أعلى من المأمور؛ كالأستاذ بالنسبة للتلميذ ، أو الطبيب بالنسبة للمريض ، ففي هذا الوضع يطيع المأمور الآمر لأنه يفهم الموضوع الذي يأمر فيه .

وكذلك المؤمن؛ لأن معنى الإيمان أنه آمن بوجود إله قادر له كل صفات الكمال المطلق؛ فإذا اعتقدت هذا؛ فالإنسان ينفذ ما يأمر به الله؛ ليأخذ الرضاء والحب والثواب . وإن لم ينفذ؛ فسوف ينال غضب المعبود وعقابه .

إذن : فأنت إن فعلت أمره واجتنبت نهيه؛ نلت الثواب منه ، وإن خالفت؛ تأخذ عقاباً؛ لذلك

لا بد أن يكون أعلى منك قدرة ، ويكون قادراً على إنفاذ الثواب والعقاب ، والقادر هو الله جل علاه .

أما الأصنام التي كانوا يعبدونها ، فبأي شيء أمرتهم؟ إنها لم تأمر بشيء؛ لذلك لا يصلح أن تكون لها عبادة؛ لأن معنى العبادة يتطلب أمراً ونهياً ، ولم تأمر الأصنام بشيء ولم تنه عن شيء ، بل كان المشركون هم الذين يقترحون الأوامر والنواهي ، وهو أمر لا يليق؛ لأن المعبود هو الذي عليه أن يحدد أوجه الأوامر والنواهي .

إذن : فمن الحمق أن يعبد أحدٌ الأصنم؛ لأنها لا تضر من خالفها ، ولا تنفع من عبدها ، فليس لها أمر ولا نهي .

ومن أوقفوا أنفسهم هذا الموقف نسوا أن في قدرة كل منهم أن ينفع الصنم وأن يضره ، فالواحد منهم يستطيع أن يصنع الصنم ، وأن يصلحه إذا انكسر ، أو يستطيع أن يكسره بأن يلقيه على الأرض . وفي هذه لحالة يكون العابد أقدر من المعبود على الضر وعلى النفع ، وهذا عين التخلف العقلي .

إذن : فمثل هذه العبادة لون من الحمق ، ولو عُرِضَتْ هذه المسألة على العقل؛ فسوف يرفضها العقل السليم .

وعندما تجادلهم ، وتثبت لهم أن تلك الأصنام لا تضر ولا تنفع ، تجد من يكابر قائلاً : { هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله } وهم بهذا القول يعترفون أن الله هو الذي ينفع ويضر ، ولكن أما كان يجب أن يتخذوا شفيعاً لهم عند الله ، وأن يكون الشفيع متمتعاً بمكانة ومحبة عند من يشفع عنده؟ ثم ماذا يقولون في أن من تُقدم له شفاعة هو الذي ينهى عن اتخاذ الأصنام آلهة وينهي عن عبادتها؟

وهل هناك شفاعة دون إذن من المشفوع عنده؟ من أجل ذلك جاء الأمر من الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم :

{ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض } [يونس : 18]

إذن : فمن أين جئتم بهذه القضية؛ قضية شفاعة الأصنام لكم عند الله؟ إنها قضية لا وجود لها ، وسبحانه لم يبلغكم أن هناك أصناماً تشفع ، وليس هذا وارداً ، فقولكم هذا فيه كذب متعمد وافتراء .

فهو سبحانه الذي خلق السموات وخلق الأرض ، ويعلم كل ما في الكون ، وقضية شفاعة الأصنام عنده ليست في علمه ، ولا وجود لها ، بل هي قضية مفتراة ، مُدَّعاة .

وقوله الحق هنا : { أَتُنَبِّئُونَ الله } مثلها مثل قوله الحق :

{ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ الله بِدِينِكُمْ } [الحجرات : 16]

ويعني هذا القول بالرد على من قالوا ويقولون : إن المطلوب هو تشريعات تناسب العصر ، وكلما فسد العصر طالبوا بتشريعات جديدة ، وما داموا هم الذين يشرّعون ، فكأنهم يرغبون في تعليم خالقهم كيف يكون الدين ، وفي هذا اجتراء وجهل بقدرة وحكمة مَنْ خلق الكون ، فأحكمه بنظام .

وقوله الحق : { قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ } فيه تنزيه له سبحانه ، فهو الخالق لكل شيء ، خالق الملك والملكوت ويعلم كل شيء ، وقضية شفاعة الأصنام إنما هي قضية مفتراة لا وجود لها؛ لذلك فهي ليست في علم الله ، والحق سبحانه مُنزَّه أن توجد في ملكه قضية لها مدلول يقيني ولا يعلمها ، ومُنزَّه جل وعلا عن أن يُشرَك به؛ لأن الشريك إنما يكون ليساعد من يشركه ، ونحن نرى على سبيل المثال صاحب مال يديره في تجارة ما ، ولكن ماله لا ينهض بكل مسئوليات التجارة ، فيبحث عن شريك له .

وسبحانه وتعالى قوي وقادر ، ولا يحتاج إلى أحد في ملكية الكون وإدارته ، ثم ماذا يفعل هؤلاء الشركاء المدَّعون كذباً على الله؟

إن الحق سبحانه يقول :

{ قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً } [الإسراء : 42]

وهذا القول الحكيم ينبه المشركين إلى أنه بافتراض جدلي أن لهؤلاء الشركاء قوة وقدرة على التصرف ، فهم لن يفعلوا أي شيء إلا بابتغاء ذى العرش ، أي : بأمره سبحانه وتعالى . وهم حين ظنوا خطأ أن لكل فلك من الأفلاك سيطرة على مجال في الوجود ، وأن النجوم لها سيطرة على الوجود ، وأن كل برج من الأبراج له سيطرة على الوجود ، فلا بد في النهاية من الاستئذان من مالك الملك والملكوت .

ومن خيبة من ظنوا مثل هذه الظنون ، ومعهم الفلاسفة الذين أقروا بأن هناك أشياء في الكون لا يمكن أن يخلقها إنسان ، أو أن يدَّعى لنفسه صناعتها؛ لأن الجنس البشري قد طرأ على هذه المخلوقات ، فقد طرأ الإنسان على الشمس والقمر والنجوم والأرض ، ولا بد إذن أن تكون هناك قوة أعلى من الإنسان هي التي خلقت هذه الكائنات .

كل هذه الكائنات تحتاج إلى مُوجِد ، ولم نجد معامل لصناعة الشمس أو القمر أو الأرض أو وجدنا من ادعى صناعتها أو خلقها .

ولكن الفلاسفة الذين قبلوا وجود خالق للكون لم يصلوا إلى اسمه ولا إلى منهجه ، وقوة الحق سبحانه مطلقة ، ولا يحتاج إلى شريك له ، وإذا أردنا أن نتأمل ولو جزءاً بسيطاً من أثر قوة الله التي وهبها للإنسان ، فلنتأمل صناعة المصباح الكهربي .

وكل منا يعلم أنه لا توجد بذرة نضعها في الأرض ، فتنبت أشجاراً من المصابيح ، بل استدعت

صناعة مصباح الكهرباء جهد العلماء الذين درسوا علما الطاقة ، و استنبطوا من المعادلات إمكان تصور صناعة المصباح الكهربي ، وعملوا على تفريغ الهواء من الزجاجة التي يوضع فيها السلك الذي يضيء داخل المصباح ، وهكذا وجدنا أن صناعة مصباح كهربي واحد تحتاج إلى جهد علماء وعمل مصانع ، كل ذلك من أجل إنارة غرفة واحدة لفترة من الزمن . فما بالنا بالشمس التي تضيء الكون كله ، وإذا كان أتفه الأشياء يتطلب كمية هائلة من العلم والبحث والإمكانات الفنية والتطبيقية ، وتطوير للصناعات ، فما بالنا بالشمس التي تضيء نصف الكرة الأرضية كل نصف يوم ، ولا أحد يقدر على إطفائها ، ولا تحتاج إلى صيانة من البشر ، وإذا أردت أن تنسبها فلن تجد إلا الله سبحانه .

وأنت بما تبتكره وتصنعه لا يمكن أن يصرفك عن الله ، والذكي حقاً هو من يجعل ابتكاراته وصناعاته دليلاً على صدق الله فيما أخبر .

وإذا كان الحق سبحانه قد خلق الشمس ضمن ما خلق وإذا أشرقت أطفأ الكل مصابيحهم؛ لأنها هي المصباح الذي يهدي الجميع ، وإذا كان ذلك هو فعل مخلوق واحد لله ، فما بالنا بكل نعمة من سائر مخلوقاته . ونور الشمس إنما يمثل الهداية الحسية التي تحمينا من أن نصطدم بالأشياء فلا تحطمنا ولا نحطمها ، فكذلك يضيء لنا الحق سبحانه المعاني والحقائق .

وإياك أن تقول : إن الفيلسوف الفلاني جاء بنظرية كذا؛ فخذوا بها ، بل دع عقلك يعمل ويقيس ما جاء بهذه النظرية على ضوء ما نزل في كتاب الحق سبحانه ، وإن دخلت النظرية مجال التطبيق ، وثبت أن لها تصديقاً من الكتاب ، فقل : إن الحق سبحانه قد هدى فلاناً إلى اكتشاف سر جديد من أسرار القرآن؛ لأن الحق يريد منا أن نتعقل الأشياء وأن ندرسها دراسة دقيقة ، بحيث نأخذ طموحات العقل؛ لتقربنا إلى الله ، لا لتبعدنا عنه ، والعياذ بالله .

وإذا قال الحق سبحانه : { سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ } فذلك لأن الشركة تقتضي طلب المعونة ، وطلب المعونة يكون إما من المساوي وإما من الأعلى ، ولا يوجد مساوٍ لله تعالى ، ولا أعلى من الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَمَا كَانَ الناس إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً }

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19)

وقد جاءت آية في سورة البقرة متشابهة مع هذه الآية وإن اختلف الأسلوب ، فقد قال الحق سبحانه في سورة البقرة : { كَانَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النبيين } [البقرة : 213] والذين يقرأون القرآن بسطحية وعدم تعمق قد لا يلتفتون إلى الآيات المشابهة لها في المعنى العام ، وهذه الآيات توازن بين المعاني فلا تضارب بين آية وأخرى .

ولذلك نجد بين المفكرين العصريين من يقول : إن الناس كانوا كلهم كفاراً ، ثم ارتقى العقل محاولاً اكتشاف أكثر الكائنات قوة؛ ليعبدوه ، فوجدوا أن الجبل هو الكائن العالي الصلب؛ فعبدوه .

وأناس آخرون قالوا : إن الشمس أقوى الكائنات فعبدوها ، وآخرون عبدوا القمر ، وعبد قوم غيرهم النجوم ، واتخذ بعض آخر آلهة من الشجر ، وكل جماعة نظرت إلى جهة مختلفة تتلمس فيها القوة .

وهم يأخذون من هذا أن الإنسان قد اهتدى إلى ضرورة الدين بعقله ، ثم ظل هذا العقل في ارتقاء إلى أن وصل إلى التوحيد .

ونرد على أصحاب هذا القول : أنتم بذلك تريدون أن تعزلوا الخلق عن خالقهم ، وكأن الله الذي خلق الخلق وأمدهم بقوام حياتهم المادية قد ضَنَّ عليهم بقوام حياتهم المعنوية ، وليس هذا من المقبول أو المعقول ، فكيف يضمن لهم الحياة المادية ، ولا يضمن لهذه المادية قيماً تحرسها من الشراسة وتحميها من الفساد والإفساد؟

وقوله الحق :

{ كَانَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النبيين مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكتاب بالحق لِيَحْكُمَ بَيْنَ الناس فِيمَا اختلفوا فِيهِ وَمَا اختلف فِيهِ إِلاَّ الذين أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينات بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى الله الذين آمَنُواْ لِمَا اختلفوا فِيهِ مِنَ الحق بِإِذْنِهِ والله يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [البقرة : 213]

لذلك فَهِمَ البعض أن الناس كانوا أمة واحدة في الكفر ، وحين جاء النبيون ، اختلف الناس؛ لأن منهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر ، ولكن لو أحسن الذين قالوا مثل هذا القول الاستنباط وحسن الفهم عن الله لوجدوا أن مقصود الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها الآن إنما هو : ما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا؛ فبعث الله النبيين؛ ليخرجوهم عن الخلاف ويعيدوهم إلى الاتفاق على عهد الإيمان الأول الذي شهدوا فيه بربوبية الحق سبحانه وتعالى؛ لأن الأصل في المسألة هو الإيمان لا الكفر .

ومن أخذ آية سورة البقرة كدليل على كفر الناس أولاً ، نقول له : اقرأ الآية بأكملها؛ لتجد قوله الحق : { كَانَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النبيين مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكتاب بالحق لِيَحْكُمَ بَيْنَ الناس فِيمَا اختلفوا فِيهِ } [البقرة : 213]

وهكذا نرى أن الاختلاف الذي حدث بين الناس جاء في آية البقرة في المؤخرة ، بينما جاء الاختلاف في هذه الآية في المقدمة ، وهذا دليل على أن الناس كانوا أمة واحدة على الإيمان ، فليس هناك أناس أوْلَى من أناس عند الخالق سبحانه وتعالى ، ولم يكن عدل الله ليترك أناساً متخبطين في أمورهم على الكفر ، ويرسل الرسل لأناس آخرين بالهداية؛ فالناس بالنسبة لله سواء

.

وما دام الحق سبحانه قد أوجد الخلق من البشر فلا بد أن يُنزل لهم منهجاً؛ ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه : { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ } [آل عمران : 96]

نجد فيه الرد على من يقول إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى الكعبة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يترك الخلق من آدم إلى إبراهيم دون بيت يحجون إليه ، ولكن الحق سبحانه وضع البيت؛ ليحج إليه الناس من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، والذي وضع البيت ليس من الناس ، بل شاء وضع البيت خالق الناس ، وما فعله سيدنا إبراهيم عليه السلام هو رفع القواعد من البيت الحرام .

أي : أنه أقام ارتفاع البيت بعد أن عرف مكان البيت طولاً وعرضاً ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

{ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت } [الحج : 26]

وهكذا يَصْدُق قول الحق سبحانه بأن البيت قد وُجد للناس قبل آدم ، وهو الناس إلى أن تقوم الساعة ، وهكذا نعلم أن الحق سبحانه خلق الخلق وأنزل لهم المنهج ، والأصل في الناس هو الإيمان ، لكن الكفر هو الذي طرأ على البشر من بابين : باب الغفلة ، وباب تقليد الآباء .

والدليل على ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلَّم عن ميثاق الذر ، قال :

{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ * أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون } [الأعراف : 172173]

إذن : فالتعصّي عن الحكم الإيماني مدخله بابان : الأول باب الغفلة ، أي : أن تكون قد عملتَ شيئاً ، ولم تجعله دائماً في بؤرة شعورك؛ لأن عقلك يستقبل المعلومات ، ويستوعبها من مرة واحدة ، إن لم تكن مُشتَّتَ الفكر في أكثر من أمر ، فإن كنت صافي الفكر ومنتبهاً إلى المعلومة التي تَصِلُكَ؛ فإن عقلك يستوعبها من مرة واحدة ، ومن المهم أن يكون الذهن خالياً لحظة أن تستقبل المعلومة الجديدة .

ولذلك نجد فارقاً بين إنسان وإنسان آخر في حفظ المعلومات ، فواحد يستقبل المعلومة وذهنه خالٍ من أي معلومة غيرها ، فتثبت في بؤرة الشعور ، بينما يضطر الآخر إلى تكرار قراءة المعلومة إلى أن يخلو ذهنه من غيرها؛ فتستقر المعلومة في بؤرة الشعور ، وحين تأتي معلومة أخرى ، فالمعلومة الأولى تنتقل إلى حاشية الشعور إلى حين أن يستدعيها مرة أخرى .

وإذا أراد طالب على سبيل المثال أن يستوعب ما يقرأ من معلومات جديدة ، فعلية أن ينفض عن ذهنه كل المشاغل الأخرى؛ ليركّز فيما يدرس؛ لأنه إن جلس إلى المذاكرة وباله مشغول بما سوف يأكل في الغداء ، أو بما حدث بينه وبين أصدقائه ، أو بما سوف يرتدي من ملابس عند

الخروج من البيت ، أو بغير ذلك من المشاغل ، هنا سوف يُضطر الطالب أن يعيد قراءة الدرس أكثر من مرة؛ حتى يصادف الدرسُ جزئية خالية من بؤرة الشعور؛ فتستقر فيها .

وقد نجد طالباً في صباح يوم الامتحان وهو يسمع من زملائه أن الامتحان قد يأتي في الجزء الفلاني من المقرر؛ فيفتح الكتاب المقرر على هذا الجزء ويقرأه مرة واحدة؛ فيستقر في بؤرة الشعور ، ويدخل الامتحان ، ليجد السؤال في الجزء الذي قرأه مرة واحدة قبل دخوله إلى اللجنة؛ فيجيب عن السؤال بدقة .

ولذلك فالتلميذ الذكي هو من يقوم بما يسمِّيه علم النفس « عملية الاستصحاب » ، أي : أن يقرأ الدرس ثم يغلق الكتاب؛ ليسأل نفسه : « ما الجديد من المعلومات في تلك الصفحة؟ » ويحاول أن يتذكر ذلك ، ويحاول أن يتعرف حتى على الألفاظ الجديدة التي في تلك الصفحة ، وما هي الأفكار الجديدة التي صحَّحَتْ له معلومات أو أفكاراً خاطئة كانت موجودة لديه .

وهكذا يستصحب الطالب معلومات بتركيز وانتباه .

وكذلك الأستاذ المتميز هو من يشرح الدرس ثم يتوقف؛ ليسأل التلاميذ؛ ليشير انتباههم؛ حتى لا ينشغل أحدهم بما هو خارج الدرس ، والأستاذ المتميز هو الذي يلقي درسه بما يستميل التلاميذ ، كما تستميلهم القصة المروية ، وحتى لا تظل المعلومات الدراسية مجرد معلومات جافة .

وبهذا يستمر الذهن بلا غفلة ، والغفلة تأتي إلى القضايا الدينية؛ لأن في الإنسان شهوات تصادم الأوامر والنواهي؛ فيتناسى الإنسان بعض الأوامر وبعض النواهي إلى أن يأتي الران الذي قال عنه الحق سبحانه :

{ كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } [المطففين : 14]

ويبين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بالحديث الشريف : « نزلت الأمانة في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السُّنَّة » . ثم يحدثنا صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة فيقول : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه؛ فيظل أثرها مثل أثر الوَكْت » أي : مثل لسعة النار وهكذا تتوالى؛ حتى يأتي الرَّانُ على القلب .

إذن : فالغفلة تتلصص على النفس الإنسانية ، وكلما غفل الإنسان في نقطة ، ثم يغفل عن أخرى وهكذا . ولكن من لا يغفل فهو من يتذكر الحكم ، وبطبقه ، ويذوق حلاوته . ومثال هذا : المسلم الذي يشرح الله تعالى قلبه للصلاة ، فإن لم يُصَلِّ يظل مُرْهقاً وفي ضيق .

ولذلك جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيّ قلب أشْرِبها نكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات

والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه » .

إذن : فالغفلة هي أول باب يدخل منه الشيطان؛ فيبعد الإنسان عن أحكام الله . وإذا ما غفل الأب ، فالأبناء يُقلِّدون الآباء ، فتأتيهم غفلة ذاتية . وهكذا يكون الغافل أسوة لمن بعده .
ولذلك قال الحق سبحانه عن الأبناء الذين يتعبون غفلة الآباء : { بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ } [البقرة : 170]
وإلْف تقليد الآباء قضية كاذبة؛ لأننا سلسنا مسألة الإيمان إلى آدم عليه السلام ، وهو الأب الأول لكل البشر؛ لوجدنا أن آدم عليه السلام قد طبَّق كل مطلوب لله ، فإن قلت : { بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ } فهذا القول يحتم عليك ألا تنحرف عن الإيمان الفطري ، وإلا كنت من الكاذبين غير المدققين فيما دخل على الإيمان الفطري من غفلة أو غفلات ، تبعها تقليد دون تمحيص .
والحق سبحانه قد شاء أن تكون كل كلمة في القرآن لها معنى دقيق مقصود ، فالحق سبحانه يقول على ألسنة الكافرين في القرآن : { إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ } [الزخرف : 23]
ولم يقل : « مهتدون » بل قال : « مقتدون » ، والمقتدي من هؤلاء هو من اتخذ أباه قدوة ، لكن المهتدي هو مَنْ ظن أن أباه على حق .
إذن : فالمقتدي هو من لا يهتم بصدق إيمان أبيه ، بل يقلده فقط ، وتقليد الآباء نوعان : تقليد على أنه اقتداء مطلق لا صلة له بالهدى أو الضلال ، وتقليد على أنه هدى صحيح لشرع الله تعالى . وقد حدث خلاف حول آدم عليه السلام أهو رسول أم نبي فقط؟ فهناك مَنْ قال : إن أول الرسل هو نوح عليه السلام ونقول : وهل من المعقول أن يترك الله الخلق السابقين على نوح عليه السلام دون رسول؟
إن الحق سبحانه وهو القائل : { وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ } [فاطر : 24]
والذي أشكل على هؤلاء المفسرين الذين قالوا : إن أول رسول هو نوح عليه السلام أنهم قد فكروا تفكيراً سطحياً ، وفهموا أن الرسول يطرأ على المرسل إليهم ، وما دام لم يكن هناك بشر قبل آدم فكيف يكون آدم مبعوثاً برسالة ، ولمن تكون تلك الرسالة؟
ولم يفطن هؤلاء المفسرون إلى أن آدم عليه السلام كان رسولاً وأسوة إلى أبنائه ، فالحق سبحانه قد قال له : { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } [البقرة : 38]
وسبحانه قد قال لآدم عليه السلام : { فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى } [طه : 123]

وما دام الحق سبحانه قد ذكر الهدى ، فهذا ذكر للمنهج ، وهو الذي طبقه سلوكاً يقلده فيه الأبناء .

وغفل هؤلاء المفسرون أيضاً عن استقراء قوله الحق : { واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابني ءَادَمَ بالحق إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً } [المائدة : 27]

وابْنَا آدم عليه السلام قد قدَّمنا القربان إلى الله تعالى . إذن : فهما قد عرفا أن هناك إلهاً .

وحين قال قابيل لأخيه : { لأَقْتُلَنَّكَ } [المائدة : 27]

بعد ما تقبل الله قربان أخيه ولم يتقبل منه . قال هابيل : { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنَ المتقين } [المائدة : 27]

ثم في قول هابيل : { لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِني أَخَافُ الله رَبَّ العالمين } [المائدة : 28]

إذن : لو لم يكن آدم عليه السلام رسولاً فمن بلَّغ أبناءه بأن الله يثيب ويعاقب؟

والحق سبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : { وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } وفي هذا إشارة إلى أن الله سبحانه قبل رسالة محمد عليه الصلاة والسلام كان يعاقب مَن يكذِّب البلاغ عنه وما جاء به السابقون من الرسل ، يقول سبحانه : { فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [العنكبوت : 40]

إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد قال الله تعالى : { وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الأنفال : 33]

أي : أنه سبحانه قد أجَّلَ الجزاء والعقوبة عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى الآخرة . وهذه الكلمة التي سبقت ، أنه سبحانه لا يؤاخذ أمة محمد صلى الله عليه وسلم بذنوبهم في الدنيا ، ولكنه يؤخِّر ذلك إلى يوم الجزاء . ويقضي سبحانه في ذلك اليوم بين من اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ومن عاندوه ، وبطبيعة الحال يكون الحق سبحانه في جانب من أرسله ، لا من عاند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول سبحانه بعد ذلك : { وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ }

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20)

والآية كما عرفنا هي الشيء العجيب ، وإما أن تكون آية كونية ، أو آية إعجاز ، أو آية قرآن تشتمل على الأحكام .

ولماذا لم يصدقوا آيات القرآن ، وهي معجزة بالنسبة إليهم؟

نقول : إن استقبال القرآن فَرْع تصديق للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد حدث اللبس عندهم؛ لأنهم ظنوا أن الآية هي الآيات المحسّة الكونية المشهودة ، وما علموا أن الآيات التي سبق بها الرسل إنما جاءت لتناسب أزمان رسالاتم ، ولتناسب مواقعهم من المرسل إليهم .

فقد كان الرسل السابقون لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الرسل السلام قد بُعث كل منهم لأمة محدودة زماناً ومكاناً؛ ولذلك كانت الآيات التي اصطحبوها آيات حسية ، وكل آية كانت من جنس ما نبغ فيه القوم المبعوث إليهم .

أما رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فهي لعامة الزمان وعامة المكان . فلو جعل الله سبحانه له آية حسية لآمن بها مَنْ شاهدها ، ولَصارَتْ خبراً لمن يشاهدها .

ونحن على سبيل المثال كمسلمين لم نصدِّق أن موسى عليه السلام قد ضرب البحر فانشق له البحر؛ إلا لأن القرآن قال ذلك؛ لأن كل أمر حسي يقع مرة واحدة فمن شاهده آمن به ، ومن لم يره إن حُدِّث به له أن يكذِّب ، وله أن يصدِّق ، ولكنّا صدقنا؛ لأن القائل هو الحق سبحانه وقد أبلغنا ذلك في القرآن . وثقتنا فيمن قال هي التي جعلتنا نصدق معجزات الرسل السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يتساءل البعض عن السر في عدم إرسال معجزات حسية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنقول : لقد شاء الله سبحانه أن يرسل الرسول صلى الله عليه وسلم بمعجزة باقية إلى أن تقوم الساعة وهي معجزة القرآن . وتتحدث كتب السيرة أن الماء نبع من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ، فمن صدَّق صدَّق ، وإن قرأت ولم تصدِّق ذلك ، فاعلم أنك لست المقصود بها ، فقد كان المقصود بها هم المعاصرون لها ، وقد جاءت لتربيب الإيمان في القوم المعاصرين؛ لأنهم كانوا في حاجة إلى شَدِّ أزْرِهم الإيماني ، وحدَّثتنا كتب السيرة أيضاً عن حفنة الطعام التي أكل منها عدد كبير من الرجال ، ومن صدَّق الرواية؛ فليصدِّقها ، ومَن لم يصدِّقها ، فهذه الآية لم تأتِ له ، لكنها جاءت للمعاصرين له صلى الله عليه وسلام .

وهذا لا يمنع أن يكون للرسول صلى الله عليه وسلم معجزات حسية كباقي إخوانه من الرسل علينا أن نؤمن بها بالثقة فيمن أخبر بها .

وهنا يقول الحق سبحانه : { وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ } وإن دخلت « لولا » على جملة اسمية ، فالمقصود بها عدم شيء لوجود شيء ، كقول إنسان لآخر : لولا زيد عندك لأتيتك ، وبذلك ينعدم ذهابه إلى فلان لوجود زيد عنده .

وهكذا تكون « لولا » حرف امتناع لوجود ، وكذلك كلمة « لوما » إن وجدتها تدخل على جملة اسمية فاعرف أنها امتناع شيء ، لوجود شيء وإن دخلت « لولا » على جملة فعلية فاعلم

أنها حثٌّ وتحضيض .

وهم هنا قد قالوا : { لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ } وكأنهم لا يعترفون بالقرآن ، وطلبوا آية حسية؛ لذلك نجد الحق سبحانه يقول في موقع آخر بالقرآن الكريم : { لولا أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ موسى } [القصص : 48]

وهذا تأكيد أنهم طلبوا الآية الحسية؛ لأنهم علموا بالآيات الحسية للرسل السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن قولهم هذا كان تشبثاً بالكفر رغم أنهم شهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل أحواله ، وقد حدثت الآيات الحسية ورآها مَنْ آمن به ، وزاد تمسكهم بالإيمان .

والذين طلبوا أن يأتي لهم محمد صلى الله عليه وسلم بمعجزة حسية ، كمعجزة موسى عليه السلام ، نسوا أن موسى عليه السلام قد بُعث إلى قوم محدودين هم بنو إسرائيل .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد بُعث إلى الناس كافة؛ لذلك كان لا بد أن تكون معجزته متتجّدة العطاءات ، وتحمل المنهج المناسب لكل زمان ومكان . أما المعجزة الحسية فهي تنقضي بانقضاء زمانها ومكانها .

أو هم طلبوا الآيات التي اقترحوها مثل قولهم : { وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلاَلَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ ترقى فِي السمآء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ } [الإسراء : 9093]

إذن : فهم قد طلبوا آيات اقترحوها بأنفسهم ، والآيات لا تكون باقتراح المرسل إليهم ، بل بتفضُّل المُرْسِل .

ولقائلٍ أن يقول : ولماذا لم يُرسِل الحق سبحانه لهم آية حسية معجزة كما قالوا؟

فنقول : إن الحق سبحانه قد قال : { وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون } [الإسراء : 59]

وعلى ذلك يكون قولهم بطلب الآيات مدحوضاً؛ لأن الحق سبحانه قد أرسل الآيات من قبل وكذَّب بها الأولون ، أو هم طلبوا آيات اقترحوها ، ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم : { لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ } وفي هذا إقرار منهم بأن لمحمد صلى الله عليه وسلم ربّاً ، وهو صلى الله عليه وسلم يُبلّغ عنه ، فكيف إذن يُنكرون أنه رسول؟!

ونعلم أنهم قالوا من قبل : « إن رب محمد قد قلاه » حين فتر الوحي عنه صلى الله عليه وسلم ، ولكن الحق سبحانه ردّ عليهم :

{ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى } [الضحى : 3]

إذن : هم قد ناقضوا أنفسهم ، ففي الوصل منعوا وأنكروا أن يكون له ربٌّ ، وفي الهجر سلّموا

بأن له ربّاً ، وهذا تناقض في الشيء الواحد ، وهو لون من التناقض يؤدي إلى اضطراب الحكم ، واضطراب الحكم يدل على يقظة الهوى .

ثم يقول الحق سبحانه رداً على طلبهم للآية الحسية : { فَقُلْ إِنَّمَا الغيب للَّهِ } وهكذا يُعلِّم الحق سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم جواباً احتياطياً ، فمن الممكن أن يُنزل الحق سبحانه الآية الحسية ، ومن الممكن ألا ينزلها ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحكم على ربه؛ لأن الغيب أمر يخصه سبحانه ، إن شاء جعل ما في الغيب مشهداً ، وإن شاء جعل الغيب غيباً مطلقاً ، وليس عليكم إلا الانتظار ، ويعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه معهم من المنتظرين { فانتظروا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين } [يونس : 20]
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَإِذَآ أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّآءَ }

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (21)

والرسول صلى الله عليه وسلم حين ضاق ذرعاً بالكافرين من صناديد قريش دعا عليهم أن يهديهم الحق بسنين الجدب كالسنين التي أصابت مصر واستطاع سيدنا يوسف عليه السلام أن يدبر أمرها ، فلسط الحق سبحانه على قريش الجدب والقحط ، ثم جاء لهم بالرحمة من بعد ذلك . وكان من المفروض أن يرجعوا إلى الله ، وأن يؤمنوا برسالة رسوله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن علموا أن ما مسَّهم من القحط ومن الجدب كان بسبب دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعلها عليهم سنين كَسِنِيّ يوسف » .
وانتهت السنوات السبع وجاء لهم الرحمة ممثلة في المطر ، ولم يلتفتوا إلى ضرورة شكر الله والإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم ظلوا يبحثون عن أسباب المطر ، فمنهم من قال : لقد جاء مطرنا نتيجة لِنوْءِ كذا ، ولأن الرياح هبَّت على مناطق كذا ، وفعلوا ذلك دون التفات لانتهاء دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثلهم مَثَل مَنْ جلس يبحث في أسباب النصر في الحرب ، وجعلوا أسبابها مادية في العُدَّة والعتاد ، ولا أحد ينكر أهمية الاستعداد للقتال وجدواه ، ولكن يبقى توفيق الله سبحانه وتعالى فوق كل اعتبار؛ لأن المؤمنين بالله الذين استعدوا للقتال ودخلوا المعارك وجدوا المعجزات تتجلى بنصر الله؛ لأن الحق سبحانه ينصر مَنْ ينصره .
أما الذين يحصرون أسباب النصر في الاستعداد القتالي فقط ، فالمقاتلون الذين خاضوا الحرب بعد التدريب الجاد ، يعلمون أن التدريب وحده لا يصنع روح المقاتل ، بل تصقل روحه رغبته في القتال ونَيْل الشهادة ودخول الجنة .
إذن : فلمدد السماء مدخل ، ومَن رأى من المقاتلين آية مخالفة لنواميس الكون ، فليعلم علم

اليقين أن يد الله كانت فوق أيدي المؤمنين المقاتلين . ومن يدعي أن أي نصر هو نتيجة للحضارة ، يجد الرد عليه من المقاتلين أنفسهم بأن الحضارة بلا إيمان هي مجرد تقدم مادة هش لا يصنع نصراً ، والنصر لا يكون بالمادة وحدها ، وقد أمرنا الله بحسن الاستعداد المادي ، ولكن النصر يكون بالإيمان فوق المادة .

ولذلك نجد مَنْ خاضوا حربنا المنتصرة في العاشر من رمضان 1393هـ يعلمون أن مدد الله كان معهم بعد أن أحسنوا الاستعداد ، ولا أحد من المقاتلين يصدق أن الاستعداد المادي وحده يمكن أن يكفي للنصر ، إنه ضرورة ، ولكن بالإيمان وحسن استخدام السلاح يكون النصر؛ ولذلك لا يصدق المقاتلون من ينسب النصر للمادة وحدها ، وينسحب عدم التصديق على كل ما يقوله من ينكر دور الإيمان في الانتصار .

وهكذا نجد أن مَنْ يجرد النصر من قيمة الإيمان إنما يخدم الإيمان؛ لأن إنكار الإيمان يقلل من قيمة الرأي المادى . وهكذا ينصر الله دينه حتى يثبته في قلوب جنده ، ويقلل من قيمة ومكانة مَنْ ينكرون قيمة الإيمان .

ومثال هذا في تاريخ الإسلام أن اليهود الذين كانوا يستفتحون على أهل المدينة من الأوس والخزرج بأن رسولاً سوف يظهر ، وأنهم أي : اليهود سيتبعونه ، وسوف يقتلون العرب من الأوس والخزرج قَتْل عادٍ وإرم .

ولما جاء وقت ظهور محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، أسرعت الأوس والخزرج إلى الإيمان به ، وقالوا : إنه النبي الذي تهددنا به يهود ، فَلْنسبق إليه حتى لا يسبقونا .

هكذا كانت كلمة اليهود هي دافع الأوس والخزرج إلى الإيمان .

إذن : فالله ينصر دينه بالفاجر ، رغم ظن الفاجر أنه يكيد للدين .

وكذلك حين جاءت لهم الرحمة بعد القحط أرجفوا وظلوا يحللون سبب سقوط المطر بأسباب علمية محدودة بالمادة ، لا بالإيمان الذي فوق المادة .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ وَإِذَآ أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ الله أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ } [يونس : 21]

والمكر : هو الكلام الملتوي الذي لا يريد أن يعترف برحمة الله ، والادعاء بأن نوء كذا هو السبب في سقوط المطر ، وبرج كذا هو السبب في سقوط المطر .

وقوله الحق : { مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا } والمكر هو الكيد الخفي ، والمقصود به هنا محاولة الالتفاف؛ لتجريد العجائب من صنع الله لها ، وحتى العلم وقوانينه فهو هبة من الله ، والحق هو القادر على أن يوقف الأسباب وأن يفعل ما يريد وأن يخرق القوانين ، فهو سبحانه رب القوانين ، فلا تنسبوا

أي خبر إلا له سبحانه؛ حتى لا نضل ضلال الفلاسفة الذين قالوا بأن الله موجود ، وهو الذي خلق الكون وخلق النواميس؛ لتحكم الكون بقوانين .

ونقول : لو خلق الحق سبحانه القوانين والنواميس وتركها تتحكم لما شَذَّ شيء عن تلك القوانين ، فالمعجزات مع الرسل على سبيل المثال كانت خروجاً عن القوانين . وأبقى الله في يده التحكُّم في القوانين ، صحيح أنه سبحانه قد أطلقها ، ولكنه ظل قيُّوماً عليها ، فيعطل القانون متى شاء ويبرزه متى شاء ويُوجِّه كيفما شاء .

والمكر كما نعلم مأخوذ من التفاف أغصان الشجرة كالضفيرة ، فلا تتعرف على منبت ورقة الشجر ومن أي غصن خرجت ، فقد اختلطت منابت الأوراق؛ حتى صارت خفية عليك ، وأخذ من ذلك الكيد الخفيّ ، وأنت قد تكيد لمساويك ، لكنك لن تقدر على أن تكيد لمن هو أعلى منك ، فإن كنتم تمكرون فإن الله أسرع مكراً ، والحق سبحانه يقول : { قُلِ الله أَسْرَعُ مَكْراً } ، وهذه أسمها « مشاكلة التعبير » .

أي : عليك أن تأخذ ذلك في مقابله في ذات الفاعل والفعل ، ولكن لا تأخذ من هذا القول اسماً لله ، فإياك أن تقول : إن الله سبحانه وتعالى ماكر؛ لأن المكر كيد خفيٌّ تفعله أنت مع مساويك ، ولكنك لن تستطيع ذلك مع من هو مُطَّلع على كيدك ، ولا تطّلع أنت على ما يشاء لك .

وانظر إلى أي جماعة تكيد لأي أمر ، وستجد من بينهم من يبلغ عنهم السلطات ، وأجهزة الأمن ، فإذا كان كيد البشر للبشر مفضوحاً بمن يشي منه بالآخرين ، بل هناك من البشر غير الكائدين من يستطيع بنظرته أن يستنبط ويستكشف من يكيدون له .

وهناك من الأجهزة المعاصرة ما تستطيع تسجيل مكالمات الناس والتنصُّت عليهم؛ وكل ذلك مكر من البشر للبشر ، فما بالنا إن كاد الله لأحد ، وليس هناك أحد مع الله سبحانه وتعالى ليبلغنا بكيده ، ولا أحد يستطيع أن يتجسَّس عليه؟!

مكر الله سبحانه إذن أقوى من أي مكرٍ بشري؛ لأن مكر البشر قد يُهدَم من بعض الماكرين أو من التجسس عليهم ، لكن إذا كاد الله لهم ، أيعلمون من كيده شيئاً؟ طبعاً لا يعملون .

وكلمة { أَسْرَعُ مَكْراً } تلفتك إلى أن هناك اثنين يتنافسان في سباق ، وحين تقول : فلان أسرع من فلان ، فمعنى ذلك : أن كلاّ منهما يحاول الوصول إلى نفس الغاية ، لكن هناك واحداً أسرع من الآخر في الوصول إلى الغاية .

ومكركم البشري هو أمر حادث ، لكن الله سبحانه أزلي الوجود ، يعلم كل شيء قبل أن يقع ، ويرتّب كل أمر قبل أن يحدث؛ لذلك فهو الأسرع في الرد على مكركم ، إن مكرتم .

وهناك يقول الحق سبحانه : { وَإِذَآ أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا } و « إذا » الأولى ظرف ، أما إذا الثانية فهي « إذا الفجائية » مثلما تقول : خرجت

فإذا الأسد بالباب .

وهم حين أنزل الحق لهم الأمطار رحمة منه ، فهم لا يهدأون ويستمتعون ويذوقون رحمة الله تعالى بهم من الماء الذي جاءهم من بعد الجدب ، بل دبروا المكر فجأة ، فيأتي قول الحق سبحانه : { قُلِ الله أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ } .

وهكذا ترى أن ما يبطل كيد الماكرين من البشر ، يكون بإحدى تالك الوسائل : إما أن يكون بوشاية من أحد الماكرين ، وإما أن يكون بقوة التخابر من الغير ، وإما أن يكون من رسل العليّ القدير وهم الملائكة الذين يكتبون كل ما يفعله البشر ، فسبحانه القائل : { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } [الانفطار : 1012]

واقرأ أيضاً قول الحق سبحانه : { اقرأ كتابك كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً } [الإسراء : 14] .

وجاء الحق سبحانه بكل ما سبق؛ لأنه سبحانه قد شاء أن يعطي لقريش فرصة التراجع في عنادها للرسول صلى الله عليه وسلم ، هذا العناد الذي قالوا فيه : إنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ، وهذا قول مغلوط؛ لأن الآباء في الأصل كانوا مؤمنين ، ولكن جاءهم الضلال كأمر طارىء ، والأصنام التي عبدوها طارئة عليهم من الروم ، جاء بها إنسان ممن ساحوا في بلاد الروم هو « عمرو بن لحيّ » ، فإن رجعتُم إلى الإيمان بعد عنادكم؛ فهذا هو الطريق المستقيم الذي كان عليه آباؤكم بالفطرة والميثاق الأول .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي البر والبحر }

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22)

وهذه الآية الكريمة جاءت مرحلة من مراحل إخبار الله سبحانه وتعالى عن المعاندين لدعوة الإسلام ، التي بدأها الحق سبحانه بأنه قد رحمهم فأجّل لهم استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر ، ولو أنه أجابهم إلى ما دَعَوْا به على أنفسهم من الشر في قولهم : { إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال : 32] لقضي أمرهم : فمن رحمة الله تعالى أنه لم يُجِبْهم إلى دعائهم .

وإذا كان الله سبحانه قد أجَّل استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر رحمة بهم ، فيجب أن يعرفوا أن تأجيل استجابتهم بدعاء الخير رحمة بهم أيضاً؛ لأنهم قد يدعون بالشر وهم يظنون أنهم يدعون بالخير ، وبعد ذلك دلّل على كذبهم في دعائهم على أنفسهم بالشر بأنهم إذا مسّهم ضرٌّ دعوا الله تعالى مضطجعين وقاعدين وقائمين .

فلو كانوا يحبون الشر لأنفسهم؛ لظلوا على ما هم فيه من البلاء إلى أن يقضي الله تعالى فيهم أمراً .

ثم عرض سبحانه قضية أخرى ، وهي أنه سبحانه إذا مسهم بضر؛ ليعتبروا ، جاء الله سبحانه برحمته؛ لينقذهم من هذا الضر . فياليتهم شركوا نعمة الله تعالى في الرحمة من بعد الضر ، ولكنهم مرُّوا كأن لم يدعوا الله سبحانه إلى ضر مسَّهم .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، يصور لنا الحق سبحانه وضعاً آخر ، هو وضع السير في البر والبحر ، فيقول : { هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي البر والبحر } [يونس : 22] .

وكلمة { يُسَيِّرُكُمْ } تدل على أن الذي يسّير هو الله ، ولكن في القرآن آيات تثبت أن السير يُنسب إلى البشر حين يقول : { قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض } [النمل : 69]

وحين يقول الحق سبحانه : { فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ } [القصص : 29] .

وهو سبحانه يقول : { سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ } [سبأ : 18]

فكأن هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قد نسبت التسيير إلى الله سبحانه ، وبعض الآيات الأخرى نسبت التسيير إلى النفس الإنسانية ، ونقول لمن توهموا أن في ذلك تعارضاً : لو أنكم فطنتم إلى تعريف الفاعل عند النحاة وكيف يرفعونه؛ لعرفتم أن تحقق أي فعل إنما يعود إلى مشيئة الله سبحانه ، فحين نقول : « نجح فلان » فهل هو الذي نجح ، أم أن الذي سمح له بالنجاح غيره؟ إن الممتحن والمصحِّح هما من سمحا له بالنجاح؛ تقديراً لإجاباته التي تدل على بذَل المجهود في الاستذكار .

وكذلك نقول : « مات فلان » ، فهل فلان فعل الموت بنفسه؟ خصوصاً ونحن نعرب « مات » كفعل ماضٍ ، ونعرب كلمة (فلان) « فاعل » أو نقول : إن الموت قد وقع عليه واتَّصف به؛ لأن تعريف الفاعل : هو الذي يفعل الفعل ، أو يتّصف به .

وإذا أردنا أن ننسب الأشياء إلى مباشرتها السببية؛ قلنا : « سار الإنسان » .

وإذا أردنا أن نؤرِّخ لسير الإنسان بالأسباب ، وترحَّلنا به إلى الماضي؛ لوجدنا أن الذي سيَّره هو الله تعالى .

وكل أسباب الوجود إنْ نظرتَ إليها مباشرة؛ وجدتها منسوبة إلى من هو فاعل لها؛ لكنك إذا تتبَّعتها أسباباً؛ وجدتّها تنتسب إلى ا لله سبحانه .

فمثلاً : إذا سُئلت : مَنْ صنع الكرسي؟ تجيب : النجار . وإنْ سألت النجار : من أين أتيت بالخشب؟ سيجيبك : مِن التاجر . وسيقول لك التاجر أنه استورده من بلاد الغابات ، وهكذا .

إذن : إذا أردت أن تسلسل كل حركة في الوجود؛ لا بد أن تنتهي إلى الله تعالى .

وحين قال الحق سبحانه : { فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ } [القصص : 29]

نفهم من ذلك أن موسى عليه السلام قد سُيِّر بأهله؛ لأن التسيير في كل مقوماته من الله تعالى .

والمثال الآخر : نحن نقرأ في القرآن قوله الحق : { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى } [النجم : 43]

فهو سبحانه الذي خلق الضحك ، وخلق البكاء .

فنجد من يقول : كيف يقول الله سبحانه إنه خلق الضحك والبكاء وهو الذي يقول في القرآن : { فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً } [التوبة : 82]

ونقول : أنت إن نظرت إلى القائم بالضحك ، فهو الإنسان الذي ضحك ، وإن نظرت إلى من خلق غريزة الضحك في الإنسان؛ تجده الله سبحانه .

وغريزة الضحك موجودة باتفاق شامل لكل أجناس الوجود ، وكذلك البكاء فلا يوجد ضحك عربي ، وضحك انجليزي ، ولا يوجد بكاء فرنسي ، أو بكاء روسي .

إذن : فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الضحك والبكاء .

وقد صدق قوله الحق : { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى } [النجم : 43]

لكن الضاحك والباكي يقوم به الوصف . وكذلك قوله الحق : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى } [الأنفال : 17]

فقد شاء الحق سبحانه أن يمكن رسوله صلى الله عليه وسلم بالبشرية أن يرمي الحصى ، ولكن إيصال الحصى لكل فرد في الجيش المقابل له ، فتلك إرادة الله .

إذن : فقول الحق سبحانه : { هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي البر والبحر } . لا يتعارض مع أنهم هم الذين يسيرون ، وأنت إذا علّلت السير في الأرض أو في البحر؛ ستجد أن السير هو انتقال السائر من مكان إلى مكان ، وهو يحدِّد غاية السير بعقله ، والأرض أو البحر الذي يسير في أي منهما بأقدامه أو بالسيارة أو بالمركب ، هذا العقل خلقه الله تعالى ، والأرض كذلك ، والبحر أيضاً ، كلها مخلوقات خلقها الله سبحانه وتعالى . وأنت حين تحرِّك ساقيك؛ لتسير ، لا تعرف كيف بدأت السير ولا كَمْ عضلة تحركت في جسدك ، فالذي أخضع كل طاقات جسمك لمراد عقلك هو الله تعالى .

إذن : فكل أمر مرجعه إلى الله سبحانه .

وهنا ملحظ في السير في البر والبحر ، فكلاهما مختلف ، فالإنسان ساعة يسير في الأرض على اليابسة ، قد تنقطع به السبل ، ويمكنه أن يستصرخ أحداً من المارة ، أو ينتظر إلى أن يمر عليه بعض المارة؛ ليعاونه .

أما المرور في البحر؛ فلا توجد به سابلة أو سالكة كثيرة؛ حتى يمكن للإنسان أن يستصرخهم .

إذن : فالمرور في البحر أدق من المرور في البر؛ ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول عن السير في البحر : { حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم

بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين } [يونس : 22]

وهكذا لا نجد أن في الآية نفسها حديثاً عن السير في البر؛ لأن الحق سبحانه ما دام قد تكلم عن إزالة الخطر للمضطر في البحر ، فهذا يتضمن إزالته عمن يسير في البر من باب أولى . وإذا ما جاء الدليل الأقوى ، فهو لا بد أن ينضوي فيه الدليل الأقل .

ومثال هذا قول الحق سبحانه :

{ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً } [الأحقاف : 15] .

وجاءت كل الحيثيات بعد ذلك للأم ، ولم يأت بأي حيثية للأب ، فيقول : { حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً } [الأحقاف : 15]

وشاء الحق سبحانه ذلك؛ لأن حيثية الأم مبنية على الضعف ، فيريد أن يرقق قلب ابنها عليها ، فالأب رجل ، قد يقدر على الكدح في الدنيا ، كما أن فضل الأب على الولد يدركه الولد ، لكن فضل أمه عليه وهو في بطنها؛ لا يعيه ، وفي طفولته الأولى لا يعي أيضاً هذا الفضل . ولكنه يعي من بعد ذلك أن والده يحضر له كل مستلزمات حياته ، من مأكل وملبس ، ويبقى دور الأم في نظر الطفل ماضياً خافتاً .

إذن : فحيثية الأم هي المطلوبة؛ لأن تعبها في الحمل والإرضاع لم يكن مُدْرَكاً من الطفل .

وكذلك هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، ترك الحق سبحانه حيثية البر وأبان بالتفصيل حيثية البحر :

{ هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي البر والبحر حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك } [يونس : 22]

وكلمة (الفلك) تأتي مرة مفردة ، وتأتي مرة جمعاً ، والوزن واحد في الحالتين ومثال هذا أنه حين أراد الله سبحانه أن ينجي نوحاً عليه السلام ، وأن يغرق الكافرين به ، قال لسيدنا نوح : { واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا } [هود : 37] .

إذن هي تطلق على المفرد ، وعلى الجمع ، ولها نظائر في اللغة في كلتا الحالتين ، فهي في الإفراد تكون مثل : قُفْل ، وقُرْط . وعند الجمع تكون مثل : أسْد .

والحق سبحانه وتعالى يصف الريح هنا بأنها طيبة ، والقرآن الكريم طبيعة أسلوبه حين يتكلم عن الريح بلفظ الإفراد يكون المقصود بها هو العذاب ، مثل قوله الحق : { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا }

[الأحقاف : 2425] .

وإن تكلم عنها بلفظ الجمع فهي للرحمة ، وسبحانه القائل :

{ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ } [الحجر : 22] .

ويقول سبحانه أيضاً :

{ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المآء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمرات } [الأعراف : 57] .

والرياح هنا جاءت في صيغة الجمع ، وعلّة وجود ريح الشر ، ورياح للخير ، يمكنك أن تستشفها من النظر إلى الوجود كله؛ هذا النظر يوضح لك أن الهواء له مراحل ، فهواء الرُّخَاء هو الذي يمر خفيفاً ، مثل النسيم العليل ، وأحياناً يتوقف الهواء فلا تمر نسمة واحدة ، ولكننا نتنفس الهواء الساكن الساخن أثناء حرارة الجو ، ثم يشتد الهواء أحياناً؛ فيصير رياحاً قوية بعض الشيء ، ثم يتحول إلى أعاصير .

والهواء كما نعلم هو المقوّم الأساسي لكل كائن حي ، ولكل كائن ثابت غير حي ، فإذا كان الهواء هو المقوم الأساسي للنفس الإنسانية ، فالعمارات الضخمة مثل ناطحات السحاب لا تثبت بمكانها إلا نتيجة توازن تيارات الهواء حولها ، وإن حدث تفريغ للهواء تجاه جانب من جوانبها؛ فالعمارة تنهار .

إذن : فالذي يحقق التوازن في الكون كله هو الهواء .

ولذلك نجد القرآن الكريم قد فصّل أمر الرياح وأوضح مهمتها ، وهنا يقول الحق سبحانه : { حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ } وكأنه سبحانه يتكلم هنا عن السفن الشراعية التي تسير بالهواء المتجمّع في أشرعتها . وإذا كان التقدم في صناعة السفن قد تعدَّى الشراع ، وانتقل إلى البخار ، ثم الكهرباء ، فإن كلمة الحق سبحانه : { بريحٍ طَيِّبَةٍ } تستوعب كل مراحل الارتقاء ، خصوصاً وأن كلمة « الريح » قد وردت في القرآن الكريم بمعنى القوة أيا كانت : من هواء ، أو محرك يسير بأية طاقة . وسبحانه القائل : { وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } [الأنفال : 46] .

وهكذا نفهم أن معنى الريح ينصرف إلى القوة . وأيضاً كلمة « الريح » تنسجم مع كل تيسيرات البحر .

وقوله الحق : { حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا } هذا القول الكريم يضم ثلاثة وقائع : الوجود في الفُلْك ، وجرى الفُلْك بريح طيبة ، ثم فرحهم بذلك؛ هذه ثلاثة أشياء جاءت في فعل الشرط ، ثم يأتي جواب الشرط وفيه ثلاثة أشياء أيضاً :

أولها : { جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ } وثانيها : { وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ } وثالثها : { وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ } .

أما الريح العاصف : فهي المدمرة ، ويقال : فلان يعصف بكذا ، وفي القرآن : { كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ } [الفيل : 5] .

إذن : { رِيحٌ عَاصِفٌ } هي الريح المدمِّرة والمغرِقة . وقوله الحق : { وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ } .

فالموج يأتي من أسفل ، والريح تأتي من أعلى ، وترفع الريح الموج فيدخل الموج إلى المركب ، ونعلم أنهم يقيسون ارتفاع الموج كل يوم حسب قوة الريح : فحين تكون الريح خفيفة؛ يظهر سطح مياه البحر مجعّداً ، وحين تكون الريح ساكنة؛ فأنت لا تجد صفحة المياه مجعدة ، بل مبسوطة ، وقد جاءتهم الريح عاصفاً فيزداد عنف الموج ، ويتحقق نتيجة لذلك الظن بأنهم قد أحيط بهم .

ومعنى الإحاطة هو عدم وجود منفذ للفرار؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يتكلم عن الكافرين بقوله : { والله مُحِيطٌ بالكافرين } [البقرة : 19] .

أي : ليس هناك منفذ يفلتون منه .

ولحظة ظنهم أنه قد أحيط بهم؛ لا يسلمون أنفسهم لهذه الحالة؛ بدعوى الاعتزاز بأنفسهم غريزياً ، بل يتجهون إلى الله بالدعاء ، هذا الإله الذي أنكروه ، لكنهم لحظة الخطر لا يكذب أحد على نفسه أو يخدعها .

ولذلك نجد سيدنا جعفر الصادق يجيب على سائل سأله : أهناك دليل على وجود الصانع الأعلى؟ فيقول سيدنا جعفر : ما عملك؟ فيجيب السائل : تاجر أبحر في البحر . فسأله سيدنا جعفر : أوَلم يحدث لك فيه حال؟ قال الرجل : بل حدث . فسأل سيدنا جعفر : ما هو؟ قال : حملت بضائعي في سفينة ، فهبت الريح وعلا الموج وغرقت السفينة وتعلقت بلوح من الخشب . قال سيدنا جعفر : الم يخطر على بالك أن تفزع إلى شيء؟ قال الرجل : نعم . قال سيدنا جعفر : هذا الصانع الأعلى .

وكذلك لجأ هؤلاء الذين كفروا بالله إلى الله تعالى حين عصفت بهم الريح ، وعلا عليهم الموج ، وظنوا أنهم قد أحيط بهم ويقول الحق سبحانه وتعالى وهم في مثل هذه الحالة : { دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين } وهذا يعني أنهم لم يدعوه فقط ، بل دَعَوْه بإخلاص وأقروا بوحدانيته ، وألاّ شريك له أبداً؛ لأنهم يعلمون أن مثل هذا الشريك لن ينفعهم أبداً .

ثم يجيء الحق سبحانه بصيغة دعائهم : { لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين } فهل وَفَّوْا بالعهد؟ لا؛ لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك : { فَلَمَّآ أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأرض }

فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23)

وبعد أن أنجاهم الحق سبحانه مباشرة تأتي « إذا » الفجائية لتوضح لنا أنهم لم ينتظروا إلى أن يستردوا أنفاسهم ، أو تمر فترة زمنية بينهم وبين الدعاء ، وتحقق نتيجة الضراعة ، لا ، بل بغوا على الفور في الأرض { فَلَمَّآ أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق } .

والبغي : هو تجاوز الحدّ في الظلم وهو إفساد؛ لأن الإنسان إذا ما أخرج أي شيء عن صلاحه ، يقال : « بغى عليه » ، فإن حفرت طريقاً مُمهّداً؛ فهذا إفساد ، وإنْ ألقيت بنفاية في بئر يشر منه الناس؛ فهذا إفساد وبغي ، وأي شيء قائم على الصلاح فتخرجه عن مهمته وتطرأ عليه بما يفسده؛ فهذا بغي .

والبغي : أعلى مراتب الظلم؛ لأن الحق سبحانه هو القائل : { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ موسى فبغى عَلَيْهِمْ } [القصص : 76] .

ويعطينا رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة البغي الممثَّلة في الاعتداء بالفساد على الأمر الصالح ، فيقول صلى الله عليه وسلم : « أسرع الخير ثواباً : البِرّ وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة : البغي وقطيعة الرحم » .

والحق سبحانه لا يؤخر عقاب البغي وقطعية الرحم إلى الآخرة ، بل يعاقب عليهما في الدنيا؛ حتى يتوازن المجتمع؛ لأنك رأيت ظالماً يحيا في رضاً ورخاء ثم يموت بخير ، فكل مَنْ يراه ويعلم ظلمه ولم يجد له عقاباً في الدنيا ، سوف يستشري في الظلم .

ولذلك تجد أن عقاب الله تعالى لمثل هذا الظالم في الدنيا وأن يُرِي الناس نهايته السيئة ، وحين يرى الناس ذلك يتعظون؛ فلا يظلمون ، وهذا ما يحقق التوازن في المجتمع .

وإلا فلو ترك الله سبحانه الأمر لجزاء الآخرة؛ لشقي المجتمع بمن لا يؤمن بالآخرة ويحترفون البغي؛ ولذلك يرى الناس عذابهم في الدنيا ، ثم يكون لهم موقعهم من النار في الآخرة .

ويقول صلى الله عليه وسلم محذراً : « لا تَبْغِ ، ولا تَكُنْ باغياً » .

فالباغي إنما يصنع خللاً في توازن المجتمع . والذي يبغي إنما يأخذ حق الغير ، ليستمتع بنتائج من غير كدِّه وعمله ، ويتحوّل إلى إنسان يحترف فرض الإتاوات على الناس ، ويكسل عن أي عمل غير ذلك . وأنت ترى ذلك في أبسط المواقع والأحياء ، حين يحترف بعض ممن يغترون بقوتهم الجسدية ، وقد تحولوا إلى (فتوات) يستأجرهم البعض لإيذاء الآخرين ، والواحد من هؤلاء إنما احترف الأكل من غير بذل جهد في عمل شريف .

والبغي إذن هو عمل مَنْ يفسد الناس حركة الحياة؛ لأن من يقع عليهم ظلم البغي ، إنما يزهدون في الكَدِّ والعمل الشريف الطاهر . وإذا ما زهد الناس الكَدِّ والعمل الشريف؛ تعطلت حركة الحياة ، وتعطلت مصالح البشر ، بل إن مصالح الظالم نفسها تتعطل؛ ولذلك قال الحق سبحانه : { إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق } [يونس : 23] .

ولقائل أن يسأل : وهل هناك بَغْي بحق؟

أقول : نعم؛ لأن البغي اعتداء على الصالح بإفساد . وأنت ساعة ترى إنساناً يفسد الشيء الصالح ، فتسأله : لماذا تفعل ذلك؛ وقد يجيبك بأن غرضه هو الإصلاح ، ويُعدِّد لك أسباباً لهذا البغي ، فهذا بغي بحق ، أما إن كان بغياً دون سبب شرعي فهذا هو البغي ، بل قمته .

ومثال البغي بحق ، أقول : ألم يَسْتول النبي صلى الله عليه وسلم على أرض « بني قريظة » ، وأحرق زرعهم وقطع الأشجار في أَراضيهم ، وهدم دورهم؟ أليس في ذلك اعتداء على الصالح؟ لقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك؛ لأنه ردّ على عدوان أقسى من ذلك .

وهكذا نرى أن هناك بغياً بحق ، وبغياً بغير حق . ولذلك يسمى الله جزاء السيئة سيئة مثلها ، ويقول سبحانه : { فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ } [البقرة : 194] .

ويسميه الحق سبحانه « اعتداء » رغم أنه ليس اعتداء ، بل ردّ الاعتداء .

ويطلقها الحق سبحانه وتعالى قضية تظل إلى الأبد بعد ما تقدم ، فيقول : { ياأيها الناس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ مَّتَاعَ الحياة الدنيا } [يونس : 23] .

وهنا يبين الله سبحانه وتعالى وكأنه يخاطب الباغي : يا مَنْ تريد أن تأخذ حق غيرك ، اعلم أن قصارى ما يعطيك أخذ هذا الحق هو بعض من متاع الدنيا ، ثم تجازى من بعد ذلك بنار أبدية .

وأنت إن قارنت زمن المتعة المغتصبة الناتجة عن البغي بزمن العقاب عليها؛ لوجدت أن المتعة رخيصة هينة بالنسبة إلى العقاب الذي سوف تناله عليها ولا تأخذ عمرك في الدنيا قياساً على عمر الدنيا نفسها؛ لأن الحق سبحانه قد يشاء أن يجعل عمر الدنيا عشرين مليوناً من السنوات ، لكن عمرك فيها محدود .

فاربأوا على أنفسكم وافهموا أن متاع الدنيا قليل ، إن كان هذا المتاع نتيجة ظلمكم لأنفسكم؛ لأن نتيجة هذا الظلم إنما تقع عليكم؛ لأن مقتضى ما يعطيكم هذا الظلم من المتعة والنعمة هو أمر محدود بحياتكم في الدنيا ، وحياتكم فيها محدودة ، ولا يظن الواحد أن عمره هو عمر البشرية في الدنيا ، ولكن ليقسْ كل واحد منكم عمره في الدنيا وهو محدود .

ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى : { قُلْ مَتَاعُ الدنيا قَلِيلٌ } [النساء : 77] .

وهنا يؤكد الحق سبحانه : { إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ } [يونس : 23] .

وقد يتمثل جزاء البغي في أن يشاء الحق سبحانه ألا يموت الظالم إلا بعد أن يرى مظلومه في خير مما أخذ منه؛ ولذلك أقول دائماً : لو علم الظالم ما ادخره الله للمظلوم من الخير؛ لضنَّ عليه بالظلم .

وعلى فرض أن الظالم يتمتع بظلمه وهو من متاع الدنيا القليل ، نجد الحق سبحانه يقول : { ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ } [يونس : 23]

وحين نرجع إلى الله تعالى فلا ظلم أبداً؛ لأن أحدكم لن يظلم أو يُظلم فكل منكم سوف يَلْقى ما

ينبئه به الله سبحانه إنْ ثواباً أو عقاباً؛ مصداقاً لقوله الحق : { ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [يونس : 23] .

وقد جاء الخبر عن نبأ الجزاء من قبل أن يقع؛ ليعلم الجميع أن لكل فعلٍ مقابلاً من ثواب أو عقاب ، كما أن في ذكر النبأ مقدَّماً تقريعاً لمن يظلمون أنفسهم بالبغي .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { إِنَّمَا مَثَلُ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السمآء }

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24)

والماء الذي ينزل من السماء ، هو الماء الصالح للري وللسقي؛ لأن المياه الموجودة في الوجود ، هي مخازن للحياة ، وغالباً ما تكون مالحة ، كمياه البحار والمحيطات ، وشاء الحق سبحانه ذلك ، لحمايتها من العفن والفساد ، ثم تتم عملية تقطير المياه بأشعة الشمس التي تحوّل الماء إلى بخار ، ويتجمع البخار كسحاب ، ثم يسقط ماء عَذْباً مقطراً صالحاً للشرب والرّي .

والحق سبحانه يقول هنا : { كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السمآء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض } [يونس : 24]

والاختلاط : اجتماع شيئين أو أشياء على هيئة الانفصال بحيث يمكن أن تعزل هذا عن ذاك ، فإن خلطت بعضاً من حبات الفول مع بعض من حبّات الترمس؛ فأنت تستطيع أن تفصل أيا منهما عن الآخر ، ولكن هناك لوناً آخر من جمع الأشياء على هيئة المزج ، مثلما تعصر ليمونة على ماء محلّى بالسكر ، وهذا ينتج عنه ذوبان كل جزىء من الليمون والسكر في جزيئات الماء .

وهنا يقول الحق سبحانه : { كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السمآء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض } وقد يُفهم من ذلك أن الماء والنبات قد اختلطا معاً ، لكن النبات كما نعلم ككائن حي مخلوق من الماء مصداقاً لقول الحق سبحانه : { وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ } [الأنبياء : 30] .

وهنا لا بد أن نلتفت إلى الفارق بين « باء » الخلط ، و « باء » السببية فالباء هنا في هذه الآية هي باء السببية ، وبذلك يكون المعنى : فاختلط بسببه نبات الأرض . وأنت ترى بعد سقوط المطر على الأرض أن المياه تغطي الأرض ، ثم تجد بعد ذلك بأيام أو أسابيع ، أن سطح الأرض مغطى بالزروع ، وكلها مختلطة متشابكة ، وكلما تشابكت الزروع مع بعضها فهذا دليل على أن الري موجود والخصوبة في هذه الأرض عالية ، وهذا نتيجة تفاعل الماء مع التربة .

أما إن كانت الأرض غير خصبة ، فأنت تجد نَبْتة في منطقة من الأرض ، وأخرى متباعدة عنها ، وهذا ما يطلق عليه أهل الريف المصري أثناء زراعة الذرة على سبيل المثال : « الذرة تفلس »

أي : أن كل عود من أعواد الذرة يتباعد عن الآخر نتيجة عدم خصوبة الأرض .
إذن : فخصوبة الأرض لها أساس هام في الإنبات والماء موجود لإذابة عناصر الغذاء للنبات ، فتنتشر بها جذور النبات .
وإن سمحتْ لك الظروف بزيارة المراكز العلمية للزراعة في « طوكيو » أو « كاليفورنيا »؛ فلسوف ترى أنهم يزرعون النباتات على خيوط رفيعة؛ تُسقى بالماء الذي يحتوي على عناصر الغذاء اللازمة للإنبات؛ لأنهم وجدوا أن أي نبات يأخذ من الأرض المواد اللازمة لإنباته بما لا يتجاوز خمسة في المائة من وزنه ، ويأخذ من الهواء خمسة وتسعين في المائة من وزنه .

إذن : فالمطر النازل من السماء خلال الهواء هو الذي يذيب عناصر الأرض؛ ليمتصها النبات .
والحق سبحانه وتعالى هنا أراد أن يضرب لنا المثل ، والمثل : هو قول شُبِّه مَضْرِبُهُ بِمَوْلِدِه ، أي : شيء نريد أن نمثله بشيء ، ولا بد أن يكون الشيء الممثل به معلوماً ، والشيءُ المأخوذ كمثلٍ هو الذي نريد أن نوضح صورته؛ ولذلك لا يصح أن نمثل مجهولاً بمجهول ، وإنما نمثل مجهولاً بمعلوم .
وتجد من يقول لك : ألا تعرف فلاناً؟ فتقول : لا أعرفه ، فيرد عليك صاحبك : إنه مثل فلان في الشكل . وهكذا عرَّفْتَ المجهول بمعلوم .
وبعض من الذين يحاولون الاعتراض على القرآن ، دخلوا من هذه الناحية ، وقالوا : إذا كان الشيء مجهولاً ونريد أن نعرِّف به ، ألا نعرِّفه بمعلوم؟ فما بال الله سبحانه وتعالى يقول في شجرة الزقوم : { إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجحيم * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشياطين } [الصافات : 6465] .
ما بال الله سبحانه يبين شجرة الزقوم ، وهي شجرة في النار لا نعرفها ، فيعرِّفها للمؤمنين به بأن طلعها يشبه رءوس الشياطين ، وبذلك يكون سبحانه قد مثَّل مجهولاً بمجهول . والذين قالوا ذلك فاتهم أن الذي يتكلم هو الله تعالى . وقد أراد الحق سبحانه أن يُمثِّل لنا شجرة الزقوم بشيء بشع معلوم لنا ، والبشع المعلوم هو الشيطان .
وشاء الحق سبحانه ألا يحدد البشاعة؛ حتى لا ينقضي التشبيه؛ لأن الشيء قد يكون بشعاً في نظرك ، وغير بشع في نظر غيرك . ويريد الله سبحانه أن يبشع طلع شجرة الزقوم؛ فاختار الشيء المتفق على بشاعته ، وهو رءوس الشياطين ، وليتصور كل إنسان صورة الشيطان ، بما ينفر منه ويقبِّحه ، وهكذا تتجلَّى عظمة الحق سبحانه في أن جعل شكل الشيطان مبهماً .
وأما المثل الذي نحن بصدده هنا وهو تشبيه الحياة الدنيا بأنها كالماء الذي أنزله الحق سبحانه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، والحياة الدنيا نحن ندرك بعضها ، وكلٌّ منا يدرك فترة منها ، ولم يدرك أولها ، وقد لا يدرك آخرها ، فجاء الحق سبحانه بمثل يراه كل واحد منا ، وهو الزرع الذي

يرتوي بالمطر ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع لنا صورة الدنيا في مثلٍ معروف لنا جميعاً ، وندركه جميعاً؛ فندرك ما سبق ، وما يلحق ، فكل شيء يأخذ حظه في الازدهار ، والجمال ، ثم ينتهي ، كذلك الدنيا .

يقول الحق سبحانه :

{ كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السمآء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض مِمَّا يَأْكُلُ الناس والأنعام حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأمس } [يونس : 24]

والزخرف : هو الشيء الجميل المستميل للنفس وتُسرُّ به حينما تراه ، وتتزين الدنيا بالألوان المتنوعة في تنسيق بديع ، ثم يصبح كل ذلك حصيداً وهذا ما نراه في حياتنا ، وهكذا جمع الله سبحانه وتعالى مثل الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها بالصورة المرئية لكل إنسان ، حتى لايخدع إنسان بزخرف الدنيا ولا بزينتها .

والحق سبحانه هو القائل :

{ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَآئِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَآءَتِ الصآخة * يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وصاحبته وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } [عبس : 2437] .

إذن : فالدنيا بكل جمالها الذي تراه إنما تذوي ، وما تراه من بديع ألوانها إنما يذبل ، ومهما ازدانت الدنيا فهي إلى زوال ، فإياك أن تبغي؛ لأن البغي فيه متاع الدنيا ، والدنيا كلها إلى زوال؛ كزوال الروض التي ينزل عليها المطر؛ فتنبت الأرض الأزهار ، ثم يذوي كل ذلك .

وقد قال الحق سبحانه :

{ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلاَ يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كالصريم } [القلم : 1720] .

إذن : فالدنيا بهذا الشكل وعلى هذا الحال .

وهنا يقول الحق سبحانه : { حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت } [يونس : 24] .

والأرض تتزين بأمر ربها ، والحق سبحانه ينسب الإدراكات إلى ما لا نعرف أن له عقلاً أو إرادة .

ألم يقل الحق سبحانه في قصة العبد الصالح : { فانطلقا حتى إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ استطعمآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ } [الكهف : 77] .

فهل يملك الجدار إرادة أن ينقضَّ؟ ولو حققنا الأمر جيداً؛ لوجدنا أن الحق سبحانه جعل لكل كائن في الوجود حياة تناسبه ، وله إرادة تناسبه ، وله انفعال يناسبه . وقد ضرب الحق سبحانه

لنا في ذلك صوراً شتّى ، فنجد أن الشيء الذي يعزُّ على عقولنا أن تفهمه يبرز لنا ببيان من الله تعالى .

ومثال هذا : معرفة الهدهد في قصة سليمان عليه السلام بالتوحيد ، وكيف أخبر هذا الهدهد سيدنا سليمان عليه السلام بحكاية مملكة سبأ حيث يسجد الناس هناك للشمس من دون الله ، فكأن الهدهد قد علم مَنْ يستحق السجود له إذ قال : { أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ الذي يُخْرِجُ الخبء فِي السماوات والأرض } [النمل : 25] .

ومن كان يظن أن الهدهد ، وهو طائر ، يكون على هذه البصيرة بالعقائد على أصفى ما تكون؟ لأن الحق سبحانه أراد أن يبيّن لنا أن هذا الطائر لا هوى له يفسد عقيدته ، وأن أهواءنا هي التي تفسد العقائد ، ومَنْ أعطاه الله سبحانه البدائل هو الذي يفسد الاختيار ما دام لا يحرس الاختيار بالإيمان ، وأن يختار في ضوء منهج الله تعالى .

ونحن نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئاً؛ لأن غريزته تقوده ، فلا نجد حيواناً يأكل فوق طاقته ، لكننا نجد إنساناً يصيب نفسه بالتخمة ، ولا نجد حماراً يقفز فوق قناة من الماء لا يقدر عليها ، بل نراه وهو يتراجع عنها ، وكلنا نجد إنساناً يشمر عن ساعديه؛ ليقفز فوق قناة مياه؛ فيقع فيها .

إذن : فنحن بأهوائنا التي تسيطر على غرائزنا نوقع أنفسنا فيما يضرنا ، ما لم نحرس أنفسنا بمنهج الله سبحانه وتعالى . ونجد في مثال الهدهد صفاءً عقدياً في التوحيد كأصفى ما يكون المتصوِّفة ، ويأتي بما يهمه { أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ الذي يُخْرِجُ الخبء فِي السماوات والأرض } لأن الخبء هو رزق الهدهد ، فهو لا يأكل من الشيء الظاهر على سطح الأرض ، بل يضرب بمنقاره الأرض؛ ليأتي لنفسه بما يطعمه .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً آخر بالنملة التي قالت : { ياأيها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } [النمل : 18] .

وهذه دقة عدالة من هذه النملة ، فإنها لم تقل : إن سليمان وجنوده سيحطمون أخواتها من النمل ظلماً لهم ، بل قالت : { وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } لأنكم لا تظهرون تحت أرجلهم .

إذن : كل كائن في الوجود له حياة تناسبه ، ولكن الآفة أننا نريد أن نتصور الحياة في كل كائن ، كتصورها في الكائن الأعلى وهو الإنسان .

ولا بد لنا أن نعلم أن النبات له حياة تناسبه ، والحيوان له حياة تناسبه ، والجماد له حياة تناسبه ، وكل شيء في الحياة له لون من الحياة المناسبة له .

وقد أوضحنا من قبل أن الحق سبحانه قد قال : { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ } [الأنفال : 42] .

والهلاك مقابل للحياة ، والحياة مقابلة للموت ، والهلاك يساوي الموت . والحق سبحانه يصور الحالة يوم القيامة فيقول : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ } [القصص : 88] .

إذن : فالجماد هالك ، ولكنه يتمتع بلون من الحياة لا نعرفه ، وكذلك كل كائن له حياة تناسبه ، والآفة أن الإنسان يريد أن يعرِّف الحياة التي في الجماد كالحياة في الإنسان .

وانظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله الحق : { حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً } [يونس : 24] .

وقد جاء هذا القول من قبل أن يتقدم العلم ويثبت أن الأرض تشبه الكرة ، وأنها تدور ، وأن كل ليل يقابله نهار ، وكذلك جاء قول الحق سبحانه : { أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى } [الأعراف : 9798] .

إذن : فأمر الله سبحانه يتحقق حين يشاء ، وهو أمر واحد عند من يكونون في ضحى أو في ليل .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأمس } [يونس : 24] .

أي : كأنها لم يكن لها وجود .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : { كذلك نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [يونس : 24] .

فإذا كانت الدنيا كلها مثل عملية الزرع في الأرض الذي ينمو ويزدهر ويزدان ، ثم ينتهي ، ألا يجب أن ننتبه إلى أن كل زخرف إلى زوال؛ وعلينا ألا نفتتن بزينة الدنيا ومتاعها في شيء ، وأن نحرص على ألا نبغي في الأرض؛ لأن البغي متاع الحياة الدنيا ، وهي إلى زوال .

ونجد القرآن يأتي بذكر التفصيل للآيات ، ويتبع ذلك بأن هذا التفصيل لقوم « يتفكرون » ، أو « يتذكرون » ، أو « يعقلون » ، أو « يتدبرون » .

وكل هذه عمليات تتناول المعلوم الواحد في مراحل متعددة ، فالتعقُّل : هو أن تأتي بالمقدمات؛ لتستنبط ولترى إلى أي نتائج تصل . والتذكُّر يعني : ألا تنسى وألا تغفل عن الأمر الهام .

والتفكُّر : هو أن تُعْمل الفكر . والفارق بين الفكر والعقل هو أن العقل أداة التفكُّر . والتدبُّر : هو ألا تنظر إلى ظواهر الأشياء ، بل إلى المعطيات الخفية في أي أمر .

والحق سبحانه يقول : { أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن } [النساء : 82] .

أي : اجعل بصيرتك تمحِّص البدايات والنهايات؛ لتعرف أن المرجع والمصير إلى الله تعالى .

والعاقل هو مَنْ يعدّ نفسه للقاء الله سبحانه ، وقد يرهق نفسه في الدنيا الفانية؛ ليستريح في الآخرة .

وإذا نظرنا إلى الدنيا والآخرة من خلال معادلة تجارية ، سنجد أن الآخرة لا بد وأن ترجح كفتها؛ لأن عمر الإنسان في الدنيا مظنون ، ولا يعرف فرد هل يحيا في الدنيا عاماً أو عشرة أو سبعين أو

مائة عام .

ومهما طالت الدنيا مع كل الخَلْق فهي منتهية ، والنعيم فيها على قدر : إمكاناتك البشرية وعلى قدر تصورك للنعيم ، أما الآخرة فهي بلا نهاية ، وأمر الإنسان فيها متيقَّن ، والنعيم فيها على قدر عطاءات الله تعالى ومراده سبحانه للنعيم . فإن قارنت هذا بذاك وقارنت الدنيا بالآخرة لرجحتْ كفّة الآخرة .

لذلك يقول الحق سبحانه : { وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 64] .

وفي قوله سبحانه : { لَهِيَ الحيوان } . مبالغة في كونها حياة لا فناء فيها . فاتبع منهج الله سبحانه؛ ليأخذك هذا المنهج إلى دار السلام والسلامة من الآفات . واضمن لنفسك الخروج من دار الفناء والأغيار ، وَضَعْ يدك في يد من يدعوك إلى دار السلام .

ولذلك يقول الحق سبحانه : { والله يدعوا إلى دَارِ السلام }

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (25)

ودار السلام : هي الآخرة التي تختلف عن دار الدنيا المليئة بالمتاعب ، هذه الدنيا التي تزهو وتتزخرف ، وتنتهي إلى حطيم؛ لذلك يدعو الله تعالى إلى دار أخرى ، هي دار السلام؛ لأن من المنغِّصات على أهل الدنيا ، أن الواحد منهم قد يأخذ حظه جاهاً ، ومالاً ، وصحة ، وعافية ، ولكن في ظل أرق من أمرين : الأول هو الخوف من أن يفوته هذا النعيم وهو حي ، والثاني أن يفوت هو النعيم .

أما الآخرة فالإنسان يحيا فيها في نعيم مقيم؛ ولذلك يقول الله سبحانه : { والله يدعوا إلى دَارِ السلام } .

وهذه الآخرة لن يشاغب فيها أحدٌ الآخر ، ولن تجد من يأكل عرق غيره مثلما يحدث في الدنيا ، وإذا كنا نعيش في الدنيا بأسباب الله ، فنحن في الآخرة نعيش بالله سبحانه وتعالى ، فكل ما يخطر على بالك تجده .

فإذا كانت الأسباب تتنوع في الدنيا وتختلف قدرات الناس فيها مع أخذهم بالأسباب ، فإنهم في الآخرة يعيشون مع عطاء الله سبحانه دون جهد أو أسباب؛ لأن دار السلام هي دار الله تعالى ، فالله تعالى هو السلام .

ولله المثل الأعلى ، فأنت إذا دعاك ولي أمرك إلى داره ، فهو يُعدّ لدعوتك على قدره هو ، وبما يناسب مقامه ، فما بالك حين يدعوك خالقك سبحانه وقد اتبعت منهجه . إنه سبحانه هو القائل :

{ إِنَّ أَصْحَابَ الجنة اليوم فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأرآئك مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ

فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ * سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ } [يس : 5558] .

وهذا السلام ليس من البشر؛ لأن من البشر من يعطيك السلام وهو يُكِنُّ لك غير السلام ، أو قد يعطيك السلام وهو يريد بك السلام ، ولكنه من الأغيار؛ فيتغير فلا يقدر أن يعطيك هذا السلام ، لكن إذا ما جاء السلام من الله تعالى ، فهو سلام من رب لا يعجزه شيء ، ولا يُعوزه شيء ، ولا تلحقه أغيار؛ لذلك يقول سبحانه : { وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم } [الرعد : 2324] .

والملائكة حين يقولون ذلك إنما أخذوا سلامهم من باطن سلام الله تعالى ، وحتى أصحاب الأعراف الذين لم يدخلوا الجنة ، ويرون أهل الجنة وأهل النار ، هؤلاء يلقون السلام على أهل الجنة . وهكذا يحيا أهل الجنة في سلام شامل ومحيط ومطمئن؛ لأن الداعي هو الله سبحانه ، ولا أحد يجبره على أن ينقض سلامه .

ودعوة الله سبحانه هي منهجه الذي أرسل به الرسل؛ ليحكم به حركة الحياة حركة إيمانية ، يتعايش فيها الناس تعايشاً على وَفْق منهج الله تعالى ، بما يجعل هذه الدنيا مثل الجنة ، ولكن الذي يرهق الناس في الدنيا أن بعض الناس يعطلون جزئية أو جزئيات من منهج الله سبحانه .

وأنت إذا رأيت مجتمعاً فيه لون من الشقاء في أي جهة؛ فاعلمْ أن جزءاً من منهج الله تعالى قد عُطِّل .

ولو أن الناس قد ساروا على منهج الله سبحانه وتعالى؛ لما كان بالوجود عورة واحدة؛ فالذي يُظهر عورات الوجود غفلة بعض الناس عن منهج الله سبحانه .

وأنت إنْ رأيت فقراء لا يجدون ما يأكلونه؛ فاعلمْ أن هناك مَنْ عطَّل منهج الله تعالى ، إما من الفقراء أنفسهم ، الذين استمرأ بعضهم الكسل ، وإما أن الأغنياء قد ضنوا برعاية حق الله تعالى في هؤلاء الفقراء؛ وبذلك يتعطل منهج الله سبحانه .

أما إذا سيطر منهج الله تعالى على الحياة؛ لصارت الحياة مثل الجنة .

ويقول الحق سبحانه : { وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } ونعلم أن الهداية نوعان : هداية الدلالة بالمنهج ، فمن أخذ المنهج سهَّل الله تعالى له طريق الصراط المستقيم؛ وبذلك انتقل العبد من مرحلة الهداية بالدلالة إلى الهداية بالمعونة ، وحين تقوم القيامة يهديهم الله سبحانه بالنور إلى الجنة : { يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ } [يونس : 9] .

إذن : فمن أخذ هداية الله بالدلالة وهي المنهج ، واتبع هذا المنهج؛ فالحق سبحانه يجعل له نوراً يسعى بين يديه : { نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ } [التحريم : 8] .

والحق سبحانه يقول : { وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ } [يونس : 25] .

لأن كل شيء في هذا الكون لا يخرج عن مشيئته سبحانه ، فالقوانين لا تحكمه ، بل هو الذي

يحكم كل شيء .

وإذا كان الله قد بيّن من شاء هدايته ، فهو أيضاً قد بيّن لنا من شاء إضلاله بقوله سبحانه : { والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين } [التوبة : 37] .

وقوله سبحانه : { والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين } [التوبة : 24] .

إذن : فقد بيّن الحق سبحانه لنا من الذين يهديهم إلى الجنة ومن الذين لا يهديهم ، فلا يقولن أحد : وما ذنب الكافرين والفاسقين؟ لأن الحق سبحانه قد بين منهجه ، فمن أخذ به؛ جعل له نوراً يسعى بين يديه ، ويدخله الجنة .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : { لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ }

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (26)

وكلمة { الحسنى } مثلها مثل قولنا : « امرأة فُضْلى » ونقول أيضاً : امرأة كبرى ، وهي أفعل تفضيل ، أي : مبالغة في الفضل .

والمقصود بقوله سبحانه : { لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى } أي : بالغوا في أداء الحسنات ، والحسنة كما نعلم بعشرة أمثالها ، وهنا يقول الحق سبحانه : { لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ } فما هذه الزيادة؟

نقول : هي عطاء زائد في الحسنات ، فهناك « كادر » للجزاء بالحسنات ، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة ويصل إلى سبعمائة ضعف ، أما السيئة فبواحدة . وهذا « الكادر » لا يحدد فضل الله تعالى ، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء .

ولذلك يجب ألا نفرق بين عدل الله سبحانه في أن الشيء يساوي الشيء ، وفضل الله تعالى في أن يجزى على الشيء الحسن بأضعاف أضعاف ما نتصور .

والحق سبحانه يقول : { قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ } [يونس : 58] .

وقال قوم من العارفين بالله : إن الزيادة المقصودة هي في العشرة الأمثال والسبعمائة ضعف ، والفضل هو ما فوق ذلك .

وهكذا تتعدد مراتب الجزاء : فهناك العشرة الأمثال ، والسبعمائة ضعف ، والحسنى ، والزيادة عن الحسنى ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم . فيقولون : ألم تُبيِّض وجوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنة وتُنجِّنا من النار؟ قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل » .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ } أي : لا يغطي وجوههم غبار ، وهو

سبحانه القائل : { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } [القيامة : 2223] .

وهو سبحانه القائل : { وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ } [عبس : 4041] .

وترهقها : أي تغطيها ، وقترة تعني : الغبار ، وهي مأخوذة من القُتار وهو الهواء الذي يمتلىء بدخان الدُّهْن المحترق من اللحم المشوي ، وقد تكون رائحته أخَّاذة ويسيل لها اللعاب ، ولكن مَنْ يوضع على وجهه هذا القتار يصنع له طبقة سوداء .

ويقول الحق سبحانه : { وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ } [يونس : 26] .

لأنهم اتقوا الله سبحانه وأحبوا منهجه .

ويقول الحق سبحانه : { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ } [آل عمران : 106] .

فليس المقصود هو لون الوجه في الدنيا؛ لأنك قد تجد إنساناً أسود اللون لكنه بالإيمان قد أشرق وجهه ، وأحاطت ملامحه هالة من البهاء . وهناك من هو أبيض الوجه ولكنه من فرط معصية الله صار وجهه بلا نور .

ويقول الحق سبحانه : { أولئك أَصْحَابُ الجنة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [يونس : 26] .

أي : أنهم ملازمون للجنة ملازمة الصاحب لصاحبه ، أو « أصحاب الجنة » أي : مَنْ يملكونها .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك : { والذين كَسَبُواْ السيئات جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا }

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (27)

وما دام الحق سبحانه قد جاء بمن دعاهم إلى دار السلام وأعطاهم الجنة جزاء للعمل الحسن ، فذكر مقابل الشيء يجعله ألصق بالذّهن ، والحق سبحانه هو القائل : { فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً } [التوبة : 82] .

وأيضاً من أمثلة المقابلة في القرآن قوله الحق : { إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ } [الانفطار : 1314] .

إذن : فمجيء المقابل للشيء إنما يرسّخه في الذهن؛ ولأن الحق سبحانه قد تكلم عن الدعوة إلى دار السلام ، ومن دخل هذه الدعوة؛ فله الجنة خالداً فيها ، لا يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، كان لا بد أن يأتي بالمقابل ، وأن يبشّع رفض الدعوة لدار السلام ، ويحسّن الأمر عند من يقبلون الدعوة .

ولا بد إذن أن يفرح المؤمن؛ لأنه لن يكون من أهل النار ، ولا بد أيضاً أن يخرج بعض من الذين ضلّوا عن الغفلة؛ ليهربوا من مصير النار ، ويتحولوا إلى الإيمان .

وهنا يقول الحق سبحانه : { والذين كَسَبُواْ السيئات } [يونس : 27] .

ونحن نعلم أن الكسب إنما يكون في الأمر الفطري ويناسب الطاعات؛ لأن الطاعة أمر مناسب

وملائم للفطرة ، فلا أحد يستحي أن يصلّي ، أو يتصدق ، أو يصوم ، أو يحج ، لكن من الناس من يستحي أن يُعرف عنه أنه كاذب ، أو مُرَابٍ ، أو شارب خمر .

والإنسان حين يرتكب السيئة يمر بتفاعلات متضاربة؛ فالذي يسرق من دولاب والده وهو نائم ، تجده يتسلل على أطراف أصابعه ويكون حذراً من أن يرتطم بشيء يفضح أمره ، كذلك الذي ينظر إلى محارم غيره .

كل هذا يدل على أن ارتكاب الشيء المخالف فيه افتعال ، أي : يحتاج إلى اكتساب ، ولكن الكارثة أن يستمر الإنسان في ارتكاب المعاصي حتى تصير دُرْبة ، ويسهل اعتياده عليها؛ فيمارس المعصية باحتراف؛ فتتحول من اكتساب إلى كسب .

أوأن يصل الفاسق من هؤلاء إلى مرتبة من الاستقرار على الانحلال؛ فيروي ما يفعله من معاصٍ وآثام بفخر ، كأن يقول : « لقد سهرنا بالأمس سهرة تخلب العقل ، وفعلنا كذا وكذا » ، ويروى ذلك ، وكأنه قد كسب تلك السهرة بما فيها من معاص وآثام .

ومن رحمة الله سبحانه بالخلق أنه يجازي مرتكب السيئة بسيئة مثلها ، فيقول سبحانه : { جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا } ، وتتجلى أيضاً رحمة الحق سبحانه وتعالى حين يعطي من لا يرتكب السيئة مرتبة؛ فيصير ضمن من قال عنهم الحق سبحانه : { وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ } لكن الذين لم يهتدوا منهم من يقول الحق سبحانه عنهم : { مَّا لَهُمْ مِّنَ الله مِنْ عَاصِمٍ } أي : لن يجيرهم أحد عند الله تعالى ، ولن يقول أحد لله سبحانه : لا تعذِّبْهم . أو أن (لا عاصم لهم) بمعنى : أن الله تعالى لن يأمر بعد ذلك بألاّ يُعذَّبوا .

ولا يقتصر أمرهم على ذلك فقط ، بل يقول الحق سبحانه : {كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اليل مُظْلِماً } أي : كأن قطعاً من الليل المظلم قد غطت وجوههم ، ويكون مأواهم النار { أولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } .

هذا هو حال الذين كذَّبوا بآيات الله تعالى وكذبوا الرسل ، وتأبَّوا عن دعة الله سبحانه وتعالى إلى دار السلام واتبعوا أهواءهم واتخذوا شركاء من دون الله تعالى .

وشاء الحق سبحانه أن يُجلِّي لنا ذلك كله في الدنيا؛ حتى يكون الكون كله على بصيرة بما يحدث له في الآخرة؛ لأنه نتيجة حتمية لما حدث من هؤلاء في الدنيا .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ }

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (28)

والحشر : هو أخذ الناس من أمكنة متعددة إلى مكان واحد ، وستقذف هذه الأمكنة المتعددة مَنْ فيها مِنَ الكَفَرة؛ ليصيروا في المكان الذي شاءه الله سبحانه لهم .

وكلما اقترب الناس من هذا المكان؛ ازدحموا ، وذلك شأن الدائرة بمحيطها ، والمحيطات الداخلة فيها إلى أن تلتقي في المركز ، فأنت إذا نظرت إلى محيط واسع في دائرة ، وأخذت بعد ذلك الأفراد من هذا المحيط الواسع؛ لتلقي بهم في المركز؛ فلا شك أنك كلما اقتربت من المركز؛ فالدوائر تضيق ، ويحدث الحشر .

فكأننا سنكون مزدحمين ازدحاماً شديداً ، ولهذا الازدحام متاعب ، ولكن الناس سيكونون في شغل عنه بما هم فيه من أهوال يوم القيامة .

وقوله الحق : { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً } تفيد الجمع المؤكد لحالات الذين لم يستجيبوا لمنهج الله تعالى ، ولا لدعوة الله سبحانه لهم لدار السلام ، وكذبوا رسلهم ، واتخذوا من دون الله تعالى أنداداً ، فيجمع الله سبحانه المُتَّخذَ أنداداً ، والمُتَّخَذَ ندّاً ، ويواجههم؛ لتكون الفضيحة تامة وعامَة ، بين عابد عبد باطلاً ، ومعبودٍ لم يطلب من عابده أن يعبده ، أو معبود طلب من عابده أن يعبده .

لذلك يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ } [يونس : 28]

وهكذا يتلاقى من عَبَدَ الملائكة مع الملائكة ، ويتلاقى من عَبَدَ رسولاً وجعله إلهاً ، ومن عبد صنماً ، أو عبد شمساً ، أو عبد قمراً ، أو جِنّاً أو شيطاناً من شياطين الإنس او شياطين الجن .

إذن : فالمعبودون متعددون ، وكل معبود من هؤلاء له حكم في ذلك الحشر ، وستكون المواجهة علنية مكشوفة .

فإذا نظرنا إلى العابد الذي اتخذ إلهاً باطلاً سواء أكان من الملائكة أو رسولاً أرسل إليهم؛ ليأخذهم إلى عبادة إله واحد هو الله سبحانه وتعالى ففتنوا في الرسول وعبدوه ، أو عبدوا أشياء لا علم لها بمن يعبدها : كالأصنام ، والشمس ، والقمر ، والأشجار .

أما المعبود الذي له علْم ، وله دعوة إلى أن يعبده غيره ، فهو يتركز في شياطين الإنس ، وشياطين الجن ، وإبليس .

أما الملائكة فإن الله سبحانه وتعالى يواجههم بمن عبدهم ، فيسألهم : أأنتم وعدتم هؤلاء؛ ليتخذوكم آلهة ، فيقولون : سبحانك أنت وليُّنا ، ويتبرأون من هؤلاء الناس ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : { إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا } [البقرة : 166] .

والملائكة لا علم لهم بمن اتخذهم آلهة ، وإذا انتقلنا إلى البشر وعلى قمَّتهم الرسل عليهم السلام ، فيأتي سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، ويَقول الحق سبحانه له : { أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله } [المائدة : 116] .

فيقول سيدنا عيسى عليه السلام ما جاء على لسانه في القرآن الكريم : { سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لي

أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ } [المائدة : 116] .
فكأن هؤلاء قد عبدوا من لا علم له بهذا التأليه ، ولم يَدْعُ إليه .

والأصنام كذلك ليس لها علم بمن ادَّعى ألوهيتها ، ولكن الذي له علم بتلك الدعوة هو إبليس ، ذلك أنه حينما عز عليه أنه عاص لله ، أغوى آدم ، ثم تاب آدم عليه السلام وقَبِل الله سبحانه وتعالى توبته ، أما إبليس فلم يتب عليه الحق سبحانه؛ لأنه رد حكم المولى عز وجل بالسجود لآدم ، واستكبر ، وظن نفسه أعلى مكانة . أما آدم عليه السلام فلم يرد الحكم على الله تعالى .
يقول الحق سبحانه :
{ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِّنَ الساجدين * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } [الأعراف : 1112] .
ومن ذلك نأخذ مبدأ إيمانياً موجزه أن الذين لا يقدرون على أنفسهم في أخضاعها لمنهج الله تعالى ، فمن الخير لهم أن يقولوا : إن منهج الله سبحانه هو الصدق ، وحكمه سبحانه هو الحق ، ولكننا لم نستطع أن نُخضِعَ أنفسنا للحكم؛ وبذلك يخرجون من دائرة رد الأمر على الآمر ، وبإمكانهم أن يتوبوا بنية عدم العودة إلى المعصية .
إذن : فالمخاصمة والمحاجّة موجهة من إبليس لذرية آدم ، فقد أقسم إبليس بعزة الله سبحانه أن يُغوِي كل أبناء آدم إلا الذين استخلصهم الله لعابدته سبحانه وتعالى؛ فقد علم إبليس أنه غير قادر على إغوائهم .
وهكذا تكون عزة الله سبحانه هي التي تمكِّن إبليس وذريته من الشياطين من غواية أو عدم غواية خلق الله سبحانه وتعالى .
والشياطين هم الجن العُصَاة؛ لأننا نعلم أن الجن جنس يقابل جنس البشر ، ومن الجن من هو صالح طائع ، ومنهم من هو عاصٍ ، ويُسمّى شيطاناً ، ويخدم إبليس في إغواء البشر ، فيتسلَّط على الإنسان فيما يعلم أنها نقطة ضعف فيه .
فمن يحب المال يدخل الشيطان إليه من ناحية المال ، ومن يحب الجمال يدخل له الشيطان من ناحية الجمال ، ومن يحب الجاه يجد الشيطان وهو يزيّن له الوصول إلى الجاه بأية وسيلة تتنافى مع الأخلاق الكريمة ومنهج الله عز وجل .
وكل إنسان له نقطة ضعف في حياته يعرفها الشيطان ويتسلل منها إليه ، وقد يُجَنِّد إبليس وذريته أناساً من البشر يعملون بهدف إغواء الإنسان لإفساده .
فهناك إذن ثلاثة يطلبون أن ينصرف الناس عن منهج الله تعالى ودعوة الحق؛ وهؤلاء الثلاثة هم :

إبليس ، والعاصون من الجن (أي : الشياطين) ، ثم البشر الذين يشاركون إبليس في الإغواء ، وهم شياطين الإنس الذين يعملون أعمالاً تناهض منهج الرسل .

وهل يكون الحوار يوم القيامة بين الملائكة ومَنْ عَبَدُوهم مِنَ البشر؟ وهل يكون الحوار بين الأصنام والذين عبدوها دون علمها؟ وهل يكون الحوار بين عيسى عليه السلام ومن اتخذوه إلهاً دون علمه؟

ها نحن نجد عارفاً بالله يقول على لسان الأصنام :

« عَبَدُونا ونحن أعْبَدُ للهِ ... مِنَ القائمينَ بالأسْحَارِ »

لأن الحق سبحانه هو القائل : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ } [الإسراء : 44] .

ويكمل العارف بالله :

« اتَّخَذُوا صَمْتَنَا علينا دليلاً ... فَغَدوْنا لَهُم وَقُودَ النارِ »

والحق سبحانه هو القائل : { فاتقوا النار التي وَقُودُهَا الناس والحجارة } [البقرة : 24] .

ويتابع العارف بالله :

« قَدْ تَجَنَّوا جهلاً كما تَجَنَّوا ... على ابنِ مَرْيم والحَوَارِي »

فما موقف الله سبحانه من هؤلاء وأولئك؟ فنقول :

إن للمُغَالِي جَزَاءهُ ، والمُغَالَى ... فيه تُنْجِيه رحمةُ الغَفَّارِ « .

وهكذا وَضُحَ موقف كل من يعبد غير الله سبحانه أو يشرك به ، هؤلاء الذين يشملهم قول الحق سبحانه : { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً } [يونس : 28]

وهكذا يُحشَر مَنْ عبدوا الأصنام أو الكواكب أو أشركوا بالله ، وكذلك شياطين الجن والإنس ، الجميع سيحشرون في الموقف يوم الحشر ، وليتذكر الجميع في الدنيا أن في الحشر ستُكشَفُ الأمور ويُفصح فيه كل إنسان أشرك مع الله غيره ، سبحانه ، وستحدث المواجهة مع مَنْ أشركه بالعبادة مع الله سبحانه دون عِلْم من الملائكة أو الرسل أو الكواكب أو الحجار بأمر هؤلاء ، ويأتيهم جميعاً أمر الحق سبحانه : { ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ } [يونس : 28] .

وحين تسمع الأمر : » مكانك « فهو يعني : » الزمْ مكانك « وهي لا تُقال للتحية ، بل تحمل التهديد والوعيد ، وانتظار نتيجة موقف لن يكون في صالح من تُقال له ، ونعرف أن الملائكة ، والرسل ، والكواكب ، والحجارة ليس لها علم بأمر هؤلاء الذين عبدوهم .

إذن : فالذين ينطبق عليهم هذا الأمر هم هؤلاء المشركون الذين ظنوا أن بإمكانهم الإفلاتَ من الحساب ، لكنهم يسمعون الأمر { مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ } ، فهل يعني ذلك أنهم سوف يأتون مع الملائكة ومَنْ عُبد من الرسل والكواكب والحجارة في موكب واحد؟ لا؛ لأن هؤلاء العبيد اتفقوا على موقف باطل ، ويشاء الحق سبحانه أن يفصل بين الحق والباطل .

لذلك يقول الحق سبحانه : { فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُمْ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ } [يونس : 28]

أي : جعل من المشركين فريقاً ، وجعل من الذين عُبدُوا دون علمهم فريقاً آخر ، وأعلن فريقُ مَنْ عُبِدوا دون علمهم : { مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ } [يونس : 28]

أي : ما كنتم تعبدوننا بعلمنا .

وانظروا إلى الموقف المُخْزِي لمن عبدوا غير الله سبحانه ، أو أشركوا به ، إن الواحد منهم قد عبد معبوداً دون أن يدري به المعبود ، مع أن الأصل في العبادة هو التزام العابد بأمر المعبود ، وهذا المسألة تَصْدُق على الملائكة وسيدنا عيسى عليه السلام ، وتصدق أيضاً على الكواكب والأحجار؛ لأن الحق سبحانه الذي يُنطق أبعاض الإنسان يوم القيامة؛ لتشهد على صاحبها ، قادر على أن يُنْطِق الأحجار .

والحق سبحانه هو القائل :

{ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ الله إِلَى النار فَهُمْ يُوزَعُونَ * حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ }

[فصلت : 1921] .

ونجد الصنم يوم القيامة وهو يلعن مَنْ عبده ، تماماً مثلما يتبرأ الجلد من صاحبه إنْ عصى الله تعالى ، فالحق سبحانه يقول : { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [النور : 24] .

ولكن لا تترك عقلك يتخيل كيفية تكلُّم الصنم ، فأنت آمنت أن جوارح الإنسان من يد ورجل وجلد ستنطق يوم القيامة ، فهل تعقَّلت كيف تنطق اليد ، وكيف ينطق الجلد ، وكيف تنطق الرِّجْل في الآخرة ، أنت تؤمن بخبر الآخرة فلا تنظر إلى معطيات أمور الآخرة بقوانين الدنيا؛ لأن كل شيء يتبدَّل في الآخرة ، ألم تخبرك السنة أنك ستأكل في الجنة ، ولا تُخْرِج فضلات؟

وهذا أمر غير منطقيّ بقوانين الدنيا ولكننا نؤمن به ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأشياء سوف تحدث في الجنة ، لو قسْناها بعقولنا على ما نعرف في الدنيا لوقفت أمامها عاجزة ، لكن القلب المؤمن يعقل أمور القيامة والآخرة على أساس أنها غيب ، والمقاييس تختلف فيها؛ لأن الإنسان مظروف بين السماء والأرض . وللدنيا أرض وسماء ، وللآخرة أيضاً أرض وسماء؟

والحق سبحانه يقول : { يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات } [إبراهيم : 48] .

إذن : فكل شيء يتبدّل يوم القيامة ، فإذا حُدِّثْتَ أن الأصنام تنطق مستنكرة أن تُعبَد من دون

الله تعالى ، وأن الملائكة تلعن من عبدوها من دون الله سبحانه ، فلا تتعجب .
ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك : { فكفى بالله شَهِيداً }

فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (29)

إذن : فالكائنات التي عُبِدتْ من دون الله تعالى تعلن رفضها لمسألة عبادتها ، فإذا كان الطير ممثلاً في الهدهد قد أعلن من قبل اندهاشه من أن بعضاً من البشر قد عبد غير الله تعالى .
واستدل الهدهد على قدرة الحق سبحانه بما يخصُّه هو من الرزق ، حيث يعلم أن الحق سبحانه قد عَلِمَ الخبء في السموات والأرض ، إذا كان الهدهد قد عرف ذلك فالاستنكَار أمر منطقي من غيره من المخلوقات ، سواء أكانت من الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام ، أو من الأصنام و الأشجار والكواكب .
ولذلك نجد الحق سبحانه يضرب المثال بسؤاله للملائكة : { أهؤلاء إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ } [سبأ : 40] .
فيجيب الملائكةُ بقوله : { سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن } [سبأ : 41] .
والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المواقف في سُوَر القرآن الكريم عرضاً منثوراً مكرراً بما لا يدع للغفلة أن تصيب الإنسان ، فمثلاً يقول الحق سبحانه :
{ وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ الجن قَدِ استكثرتم مِّنَ الإنس } [الأنعام : 128] .
ويقول على ألسنة من اتخذوا الشياطين أولياء :
{ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإنس رَبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الذي أَجَّلْتَ لَنَا } [الأنعام : 128] .
وقولهم هذا يتضمن الحديث عن ذواتهم والحديث عن الجن .
ولسائل أن يسأل : وكيف يأخذ الجن كثيراً من الإنس؟
ونقول : إن الحق سبحانه قد خلق الجن على هيئة تختلف عن هيئة الإنس ، فجعل للجن خواصّاً تختلف عن خواص الإنس ، ومن هذه الخواص ما قال عنه الحق سبحانه : { إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ } [الأعراف : 27] .
وأعطى الحق سبحانه للجن قوة أكثر مما أعطى للإنس ، وأعطاهم القدرة على النفاذ من السواتر الحديدية والجدران وغيرها ، وهذا أمر منطقي مع أصل تكوين الجن ، فالجن مخلوق من النار ، والإنسان مخلوق من الطين . وهناك اختلاف بين طبيعة كل من النار والطين ، فما يخرج من الطين قارٌّ ، أي : لا يشع ، وما يخرج من النار له إشعاع وحرارة .
بمعنى : أنك لو كنت تجلس في حجرة ، وخلف ظهرك في الحجرة الأخرى نار موقدة؛ فالساتر أيا

كان سوف يحمل لك بعضاً من حرارة النار ، إلا لو كان عازلاً للحرارة .
أما لو كانت هناك تفاحة وهي مخلوقة من الطين موجودة في الحجرة الأخرى ، فلن ينفذ طعمها أو رائحتها إليك .
إذن : فالنار لها قانونها ، والطين له قانونه . وقانون المادة المخلوقة من الطين لا ينتقل إلا إذا نَقلْتَ الجِرْم إلى المكان الذي توجد فيه .
ونلمح هذه المسألة التقنينية في قصة سيدنا سليمان عليه السلام حين علم أن ملكة سبأ تسير في الطريق إليه لتعلن إسلامها ، وأراد سيدنا سليمان عليه السلام أن يأتي لها بعرشها من مكانه قبل أن تصل .

فقال لمن هو في مجلسه : { أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } [النمل : 38] ؟
وهذا يدل علىأنه كان في مجلسه أجناس مختلفة ، ولكل جنس منهم قدرات مختلفة عن قدرات الجنس الآخر ، ونقل العرش من اليمن إلى مكان سيدنا سليمان عليه السلام يحتاج إلى زمن وإلى قوة ، فلو أنهم كانوا متساوين في قدرتهم ما قال : { أَيُّكُمْ يَأْتِينِي } [النمل : 38] .
فكان أول من تقدم لتنفيذ ما أراده سليمان عفريت من الجن لا جِنّاً عادياً ، فمن الجن من هو خائب قليل الذكاء ، ومنهم من هو ذكي ، فهم وأن كانوا من جنس واحد فهم متفاوتون أيضاً ، وكان عفريت الجن هو أول من تكلم ، وقال : { أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ } [النمل : 39] .
ولكن مقام سليمان قد يستمر ساعة أو بضع ساعات ، والمتكلم هو عفريت من الجن الذي يعلم أن له صفات أقوى من صفات الإنس . أما الإنس العادي ممن كان حاضراً مجلس سليمان فلم يتكلم؛ لأن المطلوب ليس في قدرته ، أما الذي تكلم من الإنس فهو مَنْ عنده علم من الكتاب ، فقال : { أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } [النمل : 40] .
ولم يأخذ الأمر شيئاً من الزمن؛ لذلك عبَّر القرآن التعبير السريع بعد ذلك ، فقال : { فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هذا مِن فَضْلِ رَبِّي } [النمل : 40] .
إذن : فللجن قوة على أشياء لا يقوى عليها الإنس ، ولم يأخذ الجنّي خواصَّه في الخفة والقدرة ومهارة اختزال الزمن بذات تكوينه ، ولكن بإرادة المكوِّن سبحانه؛ ولذلك شاء الحق أن يُذكِّر الجن أنهم قد أخذوا تلك الخصوصيات بمشيئته سبحانه ، والحق هو القادر على أن يجعل الإنس وهو الأدنى قدرة ، قادراً على تسخير الجن؛ ولذلك يحاول الإنس أن يأخذ من تسخير الجن قوة له فيقوى على نظيره من الإنس .
ولكن الحق سبحانه أصدر الحكم على مَنْ يحاول ذلك بأن تسخير الجن يزيد رَهَقاً .
واقرأوا قول الحق سبحانه :

{ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين على مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكن الشياطين كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ الناس السحر وَمَآ أُنْزِلَ عَلَى الملكين بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ } [البقرة : 102] .

إذن : فتعليم الجن السحر للإنس دليل على تفوق قدرات الجن وتميزها عن قدرات الإنس .

ولكن الملكين هاروت وماروت حينما عَلَّمَا الإنسان السحر حذَّراه اولاً من أن يأخذ من ذلك فرصة زائدة تطغيه على بني جنسه ويظلم بها ، إنما الأمر كله اختبار ، فإن تعلَّمته فذلك لتقيَ نفسك من الشر لا لتوقعه بغيرك ، ثم إنك أيها الإنسان من الأغيار قد تضمن نفسك وقت التحمُّل ، ولكن ماذا عن وقت الاداء؟

مثلما يأتي لك إنسان ليُودِعَ عندك ألفاً من الجنيهات كأمانة ، ولكن أتظل على الأمانة ، أم أنك قد تنكر المال أصلاً حين يطالبك به صاحبه ، أو قد تمر بك أزمة مالية فتتصرف بهذا المال؟

ولذلك تجد الذكي هو مَنْ يقول لمودع هذا المال : « احفظْ عليك مالك ، لأني من الأغيار » .

وتلك هي القضية الإيمانية الأصيلة في الكون كله؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

{ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً } [الأحزاب : 72]

والأمانة هي ما يكون في ذمة المؤتمن ، ولا حجة للمؤتمن عنده إلا ذمته ، ولا شهود عليه ، ولا يوجد إيصال بتلك الأمانة ، بل هي وديعة لا توثيق فيها؛ إلا ذمة المؤتمن ، قد يقرُّ بها ، وقد يُنكرها .

وعلى ذلك فحقُّ المؤتمن عند المؤتمَن خاضعٌ لخيار المؤتمَن؛ ولذلك وجدنا السماء والأرض والجبال قالت : يا رب لا نريد أن نُدخِلَ أنفسنا في هذه التجربة ، افعل بنا ما شئت واجعلنّا مقهورين ولا اختيار لنا ، ولا نريد تحمُّل الأمانة .

أما الإنسان فقد ميَّزه الله بالعقل ، وقدرة الاختيار بين البدائل؛ لذلك قَبلَ الإنسان حَمْل الامانة ، وحين جاء وقت الأداء لم يجد نفسه أميناً على الأَشياء مثلما ظَنَّ في نفسه وقت التحمُّل .

وكذلك الذين يتعلمون السحر ، يقول الواحد منهم لنفسه : سوف أتعلمه لأدفع الضُّرَّ عن نفسي ، ونقول له : أنت لا تضمن نفسك؛ لأنك من الأغيار ، فقد بغضبك أو يثير أعصابك إنسان؛ فتستخدم السحر فتصيب نفسك بالرَّهق .

إذن : فحين قال الله سبحانه : { يَامَعْشَرَ الجن قَدِ استكثرتم مِّنَ الإنس } [الأنعام : 128] .

أي : أخذتم من الإنس كثيراً بأن اعطيتموهم سلاحاً يحقق لهم فرصة وقوة على غيرهم من البشر .

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى لنا أن بعض البشر الذين استجابوا للجن قالوا : { استمتع بَعْضُنَا

بِبَعْضٍ } [الأنعام : 128] .

واستمتاع الإنس بالجن مصدره أن الإنس يأخذ قوة فوق قوة غيره من البشر ، واستمتاع الجن بالإنس مصدره أنه سوف يُعين هذا الإنسان على معصيته؛ تطبيقاً لِقَسَمِ إبليس اللعين : { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [ص : 82] .

ولكن هذا الاستمتاع في النهاية لا يعطي أمراً زائداً عن المقدور لكل جنس؛ ولذلك تجد أن كل مَنْ يعمل بالسحر وتسخير الجن إنما يعاني؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه : { فَزَادُوهُمْ رَهَقاً } [الجن : 6] .

وأنت تجد رزق الذي يقوم بالسحر أو تسخير الجن يأتي من يد مَنْ لا يعلم السحر ، ولو كان في تعلُّم ذلك ميزة فوق البشر؛ لجعل رزقه من مصدر آخر غير من لا يعلمون السحر أو تسخير الجن .

وأنت حين ترى الواحد من هؤلاء ، تجد على ملامحه غَبَرَةً ، وفي ذريته آفة أو عيباً ، فمنهم مَنْ هو أعور أو أكتع أو أعرج؛ لأنه أراد أن يأخذ فرصة في الحياة أكثر من غيره من البشر؛ بواسطة الجن ، وهذه الفرصة تزيده رهقاً؛ ولذلك فليلزم كل إنسان أدبه وقدره الذي شاءه الله سبحانه وتعالى له؛ فلا يفكر في أخذ فرصة تزيد من رهقه .

ونحن نرى في البشر مَنْ يستخدم صاحب القوة الجسدية أو قدرة تصويب السلاح؛ ليُرهِب غيره ، وقد ينجح في ذلك مرة أو أكثر ، ثم ينقلب هذا (الفتوَّة) أو ذلك القاتل المأجور على مَنْ استأجره .

إذن : فلا بد أن يحترم كل إنسان قَدَر الله سبحانه وتعالى في نفسه ، وألاّ يأخذ فرصة من جنس آخر؛ يظن أنها تزيده في دنياه شيئاً ، لكنها في الواقع ستزيده تعباً وتزيده رهقاً .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول عنهم : { رَبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الذي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النار مَثْوَاكُمْ } [الأنعام : 128] .

وهكذا نرى أن مصير الاستمتاع بقوة الجن هو النار للإنس الذي استخدم الجن ، وللجن الذي أغوى الإنس .

ثم يعرض لنا الحق سبحانه وتعالى قضية أخرى في هذه المسألة؛ فيقول سبحانه : { الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين } [الزخرف : 67] .

والأخلاء : هم الجماعة التي يجمع أفرادها صحبة ومودَّة ، ويتخلّل كل منهم حياة الآخر . وأنت تجد الناس صنفين :

أناساً اتخذوا الخُلَّة في الله تعالى ، فيذهبون إلى المساجد ، ويستذكرون العلم ، ولا يأكلون إلا من حلال ، ويقرأون القرآن ، وإن همَّ واحد منهم بمعصية وجد من صديقه ما يردّه عن المعصية ،

ويحجّون إلى بيت الله الحرام ، ويعتمرون ، وتدور حياتهم في إطار حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم : « رجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه » وهذا لون من الخُلَّة .

واللون الآخر يضم أناساً يساعد بعضهم البعض على المعصية ، ويشربون الخمر ، ويلعبون الميسر ، ويفعلون كل المعاصي ، فإذا جاء يوم القيامة يقابلون حكم الله تعالى : { لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ } [البقرة : 254] .

فلا خُلَّة إلا خُلَّة اللقاء في الله تعالى ، فإذا التقى الأخلاء في الله تعالى فرحوا ببعضهم؛ لأن كلاّ منهم حمى أخاه من معصية ، أما من كانوا يجتمعون في الدنيا على المعصية ، فكل منهم يلعن الآخر ، ويصدق حكم الله سبحانه وتعالى : { الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين } [الزخرف : 67] .

ولذلك نجد الحوار بين الذين استضعفوا والذين استكبروا ، ونجد الحق سبحانه وتعالى يأتي لنا بهذا الحوار في القرآن : { فَقَالَ الضعفاء لِلَّذِينَ استكبروا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ الله مِن شَيْءٍ } [إبراهيم : 21] .

فيرد الآخرون : { لَوْ هَدَانَا الله لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ } [إبراهيم : 21] .

وبعد ذلك يأتي اعتراف الشيطان الذي يقول عنه الحق سبحانه :

{ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ } [إبراهيم : 22] .

وهذا الحوار هو الذي يكشف لنا ما سوف يحدث يوم القيامة ، ونجد الحق سبحانه يقول :

{ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكفر فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بريء مِّنكَ إِنِي أَخَافُ الله . . . } [الحشر : 16] .

هذه كلها لقطات من مشاهد يوم القيامة ، جاءت في خواطرنا ونحن نتناول قول الحق سبحانه :

{ فكفى بالله شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ } [يونس : 29] .

هكذا يعلن كل مَنْ عُبد من الملائكة أو الرسل أو الأصنام ، وبذلك تتم فضيحة الذين عبدوهم من دون الله سبحانه ويأخذون طريقهم إلى النار .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول : { احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ } [الصافات : 22] .

ولننتبه هنا إلى أن الأزواج متقدمون في الإغواء والتوجيه إلى الشر ، قبل الأعداء؛ لأن الزوج أو الزوجة قد يكون هو الشيطان الملازم الذي يُهيّيء الانحراف إلى ما يريد .

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك : { وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ } [الصافات : 24] .
ومثلها مثل قوله سبحانه : { مَكَانَكُمْ } نفهم من ذلك أنهم كانوا معاً في الدنيا وهي دار الاختبار ، وهم الآن في دار جبرية الاقتدار؛ لذلك يقول الحق سبحانه :
{ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قالوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين } [الصافات : 2428] .
أي : كنتم تستعملون قوتكم؛ لتجعلونا نتبعكم ، فلا يظنن ظانٌّ أنها قوة البطش فقط ، أو قوة التذليل ، بل المقصود بذلك أيّ قوة ، حتى وإن كانت قوة الإغواء .
إذن : فالمواقف مفضوحة ، وهذا لون ومقدمة من ألوان العذاب؛ ليبين الله سبحانه وتعالى صدقه في قوله : { الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين } [الزخرف : 67] .
وشاء الحق سبحانه ذلك؛ ليبين لنا كيف يختار الإنسان خليله في الدنيا ، فلا يختار الخليل الذي يزيّن الخطأ والمعصية ، بل يختار الذي يعينه على الطاعة .
ويذكر الحق سبحانه موقفاً من مواقف يوم القيامة فيقول سبحانه :
{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين } [فصلت : 29] .
هكذا يكون حال الذين ضلُّوا يوم القيامة ، يتبرأون ممن أوقفهم هذا الموقف بل يطلبون من أضلهم لإيقاع العذاب بهم بأنفسهم؛ لذلك يقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : { فكفى بالله شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ } [يونس : 29] .
هكذا يتبرأ الملائكة والرسول الذي عُبِدَ ، وحتى الأصنام ، من الذين عَبَدُوهم في الدنيا .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ }

هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (30)

وقول الحق سبحانه : { هُنَالِكَ } يعني : في هذا الوقت ، أو في هذا المكان . والزمان والمكان هما ظَرْفَا الحدث؛ لأن كل فعل يلزم له زمان ومكان ، فإن كان الزمان هو الغالب ، فيأتي ظرف الزمان ، وإذا كان المكان هو الغالب فيأتي ظرف المكان .
وجاءت { هُنَالِكَ } أيضاً في قصة سيدنا زكريا عليه السلام ، إذ يقول الحق سبحانه : { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ } [آل عمران : 38] .
أي : في ذلك الوقت الذي قالت فيه مريم رضي الله عنها قولةً أدَّت بها قضية اعتقادية إيمانية لكفيلها ، وهو سيدنا زكريا عليه السلام وهو الذي يأتي لها بالطعام ، وشاء لها الحق سبحانه وتعالى أن تعلِّمه هي . يقول سبحانه : { كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً } [آل عمران : 37] .

والرزق ما به انتفع ، وكان زكريا عليه السلام يكفلها بكل شيء تحتاجه ، لكنه فوجيء بوجود رزق لم يأت هو به؛ بدليل أنه قال : { أنى لَكِ هذا } [آل عمران : 37] .

وهذه ملحظية ويقظة الكفيل حين يجد مكفوله يتمتع بما لم يأتِ به . وهذه هي قضية « من أين لك هذا »؟ ، وهي قضية الكفيل العام للمجتمع حين يرى واحداً يتمتع بما لا تؤهله له حركته في الحياة ، وبذلك يُكشف مختلس الانتفاع بما يخص الغير دون أن يَعرف كافله ، ولو أن كافله أصرَّ على معرفة من أين تأتي مصادر دخله؛ لَحَمى المجتمع من الفساد .

وانظر إلى جواب مريم عليها السلام على قول زكريا عليه السلام الذي ذكره رب العزة سبحانه : { أنى لَكِ هذا } [آل عمران : 37] .

قالت مريم : { هُوَ مِنْ عِندِ الله } [آل عمران : 37] .

ثم تعلَّل الجواب : { إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .

قالت ذلك ، لأنه وجد عندها أشياء لا توجد في مثل هذا الوقت من السنة ، فعجَبُ سيدنا زكريا عليه السلام إذن كان من أمرين اثنين : شيء لم يأت هو به ، وشيء مخالف للفترة التي هو فيها ، كأنْ وجد عندها عنباً في زمن غير أوانه ، أو وجد برتقالاً في غير أوانه ، وسؤاله كان دليل يقظة الكفيل ، وإجابتها كانت قضية إيمانية عقدية { إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .

وما دام { مِنْ عِندِ الله } سبحانه وتعالى ما طرح حسابك أنت للأشياء في ضوء هذه القضية .

ولكن هل غفل سيدنا زكريا عليه السلام عن قضية الإيمان بأن الله تعالى يرزق مَنْ يشاء بغير حساب؟

فنقول : لا ، لم يغفل عنها ، ولكنها لم تكن في بؤرة شعوره حينئذ؛ فجاءت بها قولة السيدة مريم لتذكر بهذه القضية ، وهنا تذكَّر زكريا نفسه ، كرجل بلغ من الكبر عتياً ، وامرأته عاقر ، وما دام الله سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب ، فليس من الضروري أن يكون شاباً أو تكون زوجته صغيرة لينجب ، فجاء الحق معبراً عن خاطر زكريا في قوله :

{ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ } [آل عمران : 38] .

أي : في هذا الوقت أو ذلك المكان ، أو في الاثنين معاً زماناً ومكاناً ، وهنا جاءته الإجابة من ربه سبحانه وتعالى : { قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً } [مريم : 9] .

وقد جاء الحق سبحانه بهذه القضية ليمنع أيَّ ظانٍّ من أن يسيء الظن بعفة مريم عليها السلام؛ لأنها في موقف اللجوء فأنطقها الحق بقوله : { يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .

وما دام الرزق بغير حساب وفي غير وقته وغير مكانه وبلا سبب وبغير علم كافلها ، فعند ذلك تحقق اللجوء إلى الله بالقبول الحسن الذي دعت به امرأة عمران :

{ وَإِنِّيۤ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشيطان الرجيم * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا } [آل عمران : 3637] .

ويطبقها زكريا عليه السلام على نفسه ، ثم تتعرض هي لها ، حين يبشّرها الحق سبحانه بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام .

فهي ستلد من غير أن يمسسها ذكر ، وهي تعلم أن الأسباب جارية في أنه لا يوجد تناسل إلا بوجود ذكر وأنثى ، وشاء الحق سبحانه أن يقدّر لها أن تلد دون هذه العملية ، فجاء سبحانه بتلك المقدمة على لسانها { إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .

وحين تساءلت : { رَبِّ أنى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ } [آل عمران : 47] .

جاءتها الإجابة بأن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، يقول سبحانه : { إِنَّ الله يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسمه المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ } [آل عمران : 45] .

فبيقظتها الإيمانية فطنت إلى أن هذا الطفل سينسب إلى أمه؛ فعرفت أن أباه ملغي؛ وأدركت أن هذا الولد لن يأتي نتيجة زواج ولو فيما بعد ، وبذلك كان عليها أن تعود إلى القضية الإيمانية التي ذكرتها : { إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : { هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ } [يونس : 30]

أي : في ذلك الوقت تُختبر كل نفس ، وترى هل الجزاء طيب أم لا؟ فإن كانت قد عملت الشر؛ فستجد الجزاء شَرّاً .

إذن : فالإنسان وقت النتائج يختبر نفسه بما كان منه .

ثم يقول الحق سبحانه : { وردوا إِلَى الله مَوْلاَهُمُ الحق } [يونس : 30]

وكأنهم كانوا في الدنيا عند مولىً آخر غير الإله الحقّ سبحانه ، والمولى غير الحق هو الشريك أو الشركاء الذين اتخذهم بعض الناس مَوالِيَ لهم ، وهنا في اليوم الآخر يُردُّون إلى الإله الحق والمولى الحق سبحانه .

وكلمة « رُدُّوا إلى كذا » لا تدل على أنهم كانوا مع الضِّدِّ ، وجاءوا له ، بل تدل على أنهم كانوا معه أولاً ، ثم ذهبوا إلى الضِّدِّ ، ثم رُدُّوا إليه ثانياً ، مثل قول الحق سبحانه عن موسى عليه السلام :

{ فَرَدَدْنَاهُ إلى أُمِّهِ } [القصص : 13] .

فدلَّت علىأنه كان مع أمه ، ثم فارقها ، ثم رُدَّ إليها .

وقول الحق سبحانه هنا : { وردوا إِلَى الله مَوْلاَهُمُ الحق } [يونس : 30]
أي : أنهم كانوا مع الله أولاً ، ثم أخذهم الشركاء ، وفي هذا اليوم الآخر يرجعون لربهم سبحانه .
والإنسان يكون مع ربّه أولاً بالفطرة التكوينية المؤمنة ، ثم يتجه به أبواه إلى المجوسية أو أيّ ديانة أخرى تحمل الشرك بالله تعالى ، وهم في ظل تلك الديانات المشركة ، كانوا عند مولىً وسيّدٍ وآمرٍ ومشرّعٍ ، لكنه مَوْلىً غير حق؛ لأن الحق هو الثابت الذي لا تدركه الأغيار .
{ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ } [يونس : 30] .
أي : عرفت كل نفس ما فعلت ، ويُعرف كل إنسان بفضيحته في جزئيات ذاته ، وكذلك الفضيحة العامة لكل إنسان أشرك بالله سبحانه .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } [يونس : 30] .
أي : أن الآلهة التي عبدوها لا تتعرف إلى أمكنتهم ومواقعهم ، وأنهم في خطر؛ فتأخذ بأيديهم؛ لأن هذه الآلهة لا علم لها بهم ، ولو أن هذه الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله سبحانه على شيء من الحق؛ ووجودوهم في مأزق؛ لكان يجب أن يدافعوا عنهم ، لكنهم لم يعرفوا أماكنهم { وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } [يونس : 30] .
أي : ماكنوا يكذبونه كذباً متعمداً .
وبعد أن كشف سبحانه المسألة وما سوف يحدث في الآخرة ، وخوَّفهم وبشَّع لهم ما سوف ينتظرهم من مصير إنْ ظلوا على الكفر؛ لعلَّهم يرتدعون ، ويتذكرون ضرورة العودة إلى عبادة الإله الحق سبحانه ، ياتي الحق سبحانه وتعالى بما يعيد إليهم رُشْدَ الإيمان في نفوسهم ، فيقول : { قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض }

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31)

أي : أن الحق سبحانه يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : اسألهم هذا السؤال ، ولا يسأل هذا السؤال إلا مَنْ يثق في أن المسئول لو أدار في ذهنه كل الأجوبة ، فلن يجد جواباً غير ما عند السائل .
ومثال ذلك من حياتنا والله المثل الأعلى إن جاء لك من يقول : أبي يهملني ، فتمسك به ، وتسأله : من جاء لك بهذه الملابس وذلك القلم ويُطعمك ويُعلّمك؟ سيقول لك : أبي .
وأنت لا تسأله هذا السؤال إلا وأنت واثق أنه لو أدار كل الأجوبة فلن يجد جواباً إلا الذي تتوقعه منه ، فليس عنده إجابة أخرى؛ لأنك لون كنت تعرف أنه سوف يجيبك إجابة مختلفة لما سألته فكأنك ارتضيت حكمه هو في المسألة .
والحق سبحانه وتعالى قال في بداية هذه الآية الكريمة : { قُلْ } كما أنزل عليه مثيلاتها مما بُدىء

بقوله سبحانه : { قُلْ } مثل قوله سبحانه :

{ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ } [الصمد : 1] .

وهذا ما اقتضاه خطاب الحق سبحانه دائماً للخَلْق ، ويختلف عن خطاب الخَلْق للخَلْق ، فحين تقول لابنك : « اذهب إلى عمّك ، وقُلْ له كذا » . فالابن يذهب إلى العمّ ويقول له منطوق رسالة الأب ، دون أن يقول له : « قُلْ » ، أما خطاب الحق سبحانه للخلق ، فقد شاء سبحانه أن يبلِّغنا به رسوله الله صلى الله عليه وسلم كما نزل { قُلْ } فالرسول صلى الله عليه وسلم أمين في البلاغ عن الله تعالى ، لا يترك كلمة واحدة من الوحي دون أن يبلِّغها للبشر ، وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذي أمره ، فهو يبلغ ما أمِرَ ، حتى لا يحرم آذان خلق الله تعالى من كل لفظ صدر عن الله سبحانه .

وكذلك أمر الحق سبحانه هنا لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول : { مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض } [يونس : 31] .

ونحن نعلم أن الرزق هو ما يُنتفع به ، والانتفاع الأول مُقوِّم حياة ، والثاني تَرَفٌ أو كماليات حياة ، والرزق الذي هو أصل الحياة هو ماء ينزل من السماء ، ونبات يخرج من الأرض .

وهكذا قال الحق سبحانه السؤال والإجابة معروفة مقدَّماً ، فلم يَقُلْ لرسوله صلى الله عليه وسلم : « أجِب أنت » بل ترك لهم أن يجيبوا بأنفسهم .

وكذلك جاء الحق سبحانه بسؤال آخر : { أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار } [يونس : 31] .

والسمع والبصر هما السيدان لملَكَات الإدراك؛ لأن إدراك المعلومات له وسائل متعددة ، إنْ أردتَ أنْ تُدرك رائحة؛ فبأنفك ، وإن أردتَ أنْ تدرك نعومة؛ فبلمسك وببشرتك ، وإنْ أردتَ أن تدرك مذاق شيء فبلسانك ، وإنْ أردت أن تتكلم فبأجهزة الكلام وعمدتها اللسان ، وإنْ أردتَ أن تسمع فبأذنك .

وكذلك تتجلَّى لك المرائي بعينيك ، ثم تأتي إدراكات متعددة من الحواس؛ لتُكوِّن أشياء نسميها الخميرة ، توجد منها القضية العقلية الأخيرة ، فالطفل أمام النار يجد منظرها جميلاً جذاباً ، لكن ما إن يلمسها حتى تلسعه؛ فلا يقرب منها أبداً من بعد ذلك؛ لأنه اختبرها بحواسه فارتكزت لديه القضية العقلية وهي أن هذه نار محرقة ، واستقر هذا لديه يقيناً .

وهكذا تكون الإدراكات الحسية إدراكات متعددة تصنع خميرة في النفس تتكون منها الإدراكات المعنوية .

إذن : فوسائل العلم للكائن الحي هي الحواس ، وهذه الحواس تعطي العقل معطيات تنغرز فيه لتستقر من بعد ذلك في الوجدان؛ فتصبح عقائد .

إذن : فمراحل الإدراك هي : إدراك حسيٌّ ، وتفكُّر عقليٌّ ، فانتهاء عَقَدِيٌّ؛ ولذلك نسمِّي

الدين عقيدة .
أي : أنك عقدت الشيء في يقينك بصورة لا تحلُّه بعدها من جديد لتحلّله ، فهذا يُسمى عقيدة .

ولذلك حينما أراد الله سبحانه وتعالى أن يقصَّ علينا مراحل الإدراك في النفس الإنسانية؛ ليربي الإنسان معلوماته ، قال الحق سبحانه :
{ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل : 78] .
لذلك يقال : « كما ولدته أمه » ، أي : لم يُعْطَ القدرة على استخدام حواسِّه بعد ، ثم يجعل له الحق سبحانه الحواس ، ويجعله قادراً على استخدامها .
ولم يذكر بقية الحواس ، بل جاء بالسيدين ، وهما السمع والبصر؛ لأن آيات الكون تحتاج إلى الرؤية ، وإبلاغ الرسل يحتاج للسماع ، وهما أهم آلتين في البلاغ ، فأنت ترى بالعين آيات الكون ومعجزات الرسل ، وتسمع البلاغ بمنهج الله سبحانه وتعالى من الرسل .
وقد لفتنا الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى العجائب فقال : « اعجبوا لهذا الإنسان ، ينظر بشحمٍ ، ويتكلم بلَحْمٍ ، ويسمع بعظمٍ ، ويتنفس من خَرْمٍ » .
فالصوت يطرق عظمة الأذن ، ويرنّ على طبلتها ، ونرى بشحمة العين ، وننطق بلحمة اللسان .

وأضاف البعض : « ونشمْ بغضروف ، ونلمس بجلد ، ونفكر بعجين » . فالإنسان يولد وكأن مخه قطعة من العجين التي تعمل في استقبال المعلومات من الكون وتخزينها فيه ، وهي التي ستكون ركيزة لتشكيل الفؤاد من بعد ذلك .
وجاء قول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بوسيلتين من وسائل الإدراك ، وترك بقية الوسائل الثلاث الأخرى الظاهرة ، مع أن العلم الحديث حين تلكم عن وظائف الأعضاء ، احتاط للأمر وقرر أن هذه الحواس هي الحواس الخمس الظاهرة .
وهذا يعني أن هناك حواسّاً أخرى غير هذه سيكشف عنها ، وهي حواس لم يكن القدماء يعرفونها ، مثل حاسة البَيْنَ بَيْنَ ، التي نفرق بها بين أنواع الأقمشة والأوراق وغيرها ، وكثافة هذا النوع من ذلك ، وهذه الحاسة توجد بين لمستين من إصبعين متقاربين .
وكذلك حاسة العَضَل التي تزن ثقل الأشياء ، وتعرف حين تحمل ثقلاً ما مدى الإجهاد الذي يسببه لك ، وهل يختلف عن إجهاد حَمْل ثقلٍ آخر .

وحين نظر العلماء في معاني الألفاظ قالوا : « النظائر حين تخالف فلا بد من علّة للمخالفة » فالسمع آلة إدراك ، والبصر آلة إدراك ، فلماذا قال الحق سبحانه في آلة الإدراك « السمع » ،

وقال في الآلة الثانية « الإبصار »؟ ، ولماذا جاء السمع بالإفراد ، وجاء الإبصار بالجمع ، ولم يأتْ بالاثنين على وتيرة واحدة؟

فنقول : إن المتكلم هو الله تعالى ، وكل كلمة منه لها حكمة وموضوعة بميزان ، وأنت ، حين تسمع ، تسمع أي صوت قادم من أي مكان ، لكنك بالعين ترى من جهة واحدة ، فإنْ أردتَ أن ترى ما على يمينك فأنت تتجه بعينيك إلى اليمين ، وإنْ أردت أن ترى ما خلفك ، فأنت تغيِّر من وقفتك ، فالأذن تسمع بدون عمل منك ، لكن البصر يحتاج إلى عمليات متعددة؛ لترى ما تريد .

وأيضاً فالسمع لا اختيار لك فيه ، فأنت لا تستطيع أن تحجب أذنك عن سماع شيء ، أما الإبصار فأنت تتحكم فيه بالحركة أو بإغلاق العين .

وجاء الحق سبحانه وتعالى بالسمع أولاً؛ لأن الأذن هي أول وسيلة إدراك تؤدي مهمتها في الإنسان ، أما العين فلا تبدأ في أداء مهمتها إلا من بعد ثلاثة أيام إلى عشرة أيام غالباً .

وهنا يقول الحق سبحانه : { أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار } [يونس : 31] .

والحق سبحانه يملكها؛ لأنه خالقها وهو القادر على أن يصونها ، وهو القادر سبحانه على أن يُعَطِّلها ، وقد أعطانا الحق مثالاً لهذا في القرآن فقال عن أصحاب الكهف : { فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً } [الكهف : 11]

فَعَطَّل الله سبحانه أسماعهم بأن ضرب على آذانهم ، فذهبوا في نوم استمر ثلاثة قرون من الزمن وازدادوا تسعاً .

كيف حدث هذا؟ . . إن أقصى ما ينامه الإنسان العادي هو يوم وليلة ، ولذلك عندما بعثهم الله تساءلوا فيما بينهم : { قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَم لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } [الكهف : 19] .

ولكن هيئتهم لم تكن تدل على هذا ، فإن شعورهم قد طالت جدّاً ، بل إن لونها الأسود قد تبدل وأصبحوا شيباً وكهولاً ، ولذلك قال الحق سبحانه : { لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً } [الكهف : 18] .

ونلحظ هنا ملحظاً يجب الانتباه إليه ، ففي هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : { أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار } [يونس : 31] .

بينما يقول في آية أخرى في سورة السجدة : { وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار } [السجدة : 9] .

ولا بد أن ننتبه إلى الفارق بين « الخَلْق » و « الجَعْل » ، و « المُلْك » ، فالخلق قد عرفنا أمره ، وملكية كل شيء لله تعالى أمر مُلْزِمٌ في العقيدة ، ومعروف ، أما « الجَعْل » ، فهو توجيه ما خلق إلى مهمته .

فأنت تجعل الطين إبريقاً ، والقماس جلباباً ، هذا على المستوى البشري ، أما الحق سبحانه وتعالى فقد خلق المادة أولاً ، ثم جعل من المادة سمعاً وبصراً ، وزاد من بعد ذلك { أَمَّن يَمْلِكُ } ، فمن خَلَق هو الله تعالى ، ومن جَعَلَ هو الله تعالى ، ومن مَلَكَ هو الله تعالى .

وهو سبحانه ينبهنا إلى ذلك ، فالأشياء النافعة لابن آدم يخلقها الله سبحانه ، ويجعلها ، ثم يُمَلِّكها له .

أما ذات الإنسان وأبعاضه من سمع وبصر وغيرهما وإن كانت قد خُلقت في الإنسان ، وجُعلت له للانتفاع بها ، ولكنها ستظل مِلْكاً لله ، يبقيها على حالها ، او يخطفها أو يصيبها بآفة ، أو يعطلها .

إذن : فهي خُلقت لله ، وجُعلت من الله ، وتظل مملوكة لله ، ويُصيّرها كيف يشاء ، فدقات القلب والحب والكراهية والأمور اللا إرادية التي تعمل لصالح الإنسان هي مملكة الله .

والحق سبحانه على سبيل المثال جعل لكلِّ حيوان جلداً؛ ننتفع به وندبغه إلا جلدين اثنين : جلد الإنسان وجلد الخنزير ، وقد حُرِّم استخدام جلد الإنسان؛ لكرامته عند خالقه ، وحُرِّم استخدام جلد الخنزير؛ ليدُلَّ على حرمته ونجاسته .

وعلينا أن ننتبه إلى أن الحق سبحانه قد خَلَقَ وجَعَلَ ومَلَكَ ، ودليل ملكية الحق سبحانه وتعالى أنه حَرَّم الجنة على المُنتحِر؛ لأنه لا يأخذ الحياة إلا واهبُ الحياة ، فأنت أيها الإنسان لستَ مِلْكَ نفسك . ولا عذر لأحد ما دام قد وصله هذا البلاغ ، وعليه أن يستوعبه أما من لايستوعب؛ فيلقى مصيره .

لذلك فإنه سبحانه هو الذي رزق ، وهو سبحانه الذي يملك .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَن يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي } [يونس : 31] .

ونحن نعلم أن لكل كائن في الوجود حياة تناسبه ، بدليل قول الحق سبحانه : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ } [القصص : 88] .

وما دام كل شيء سيأتي له وقت يهلك فيه ، فمعنى ذلك أن لكل شيء حياة ، إلا أن حياتنا نحن في ظاهر الأمر عبارة عن الحس والحركة ، والإنسان يأكل الخضروات والخبز والفاكهة ، ومن هذه المأكولات وغيرها يكوّن الجسمُ الحيوانات المنوية في الرجل ، والبويضات في المرأة ، ومنهما يأتي الإنسان ، وكذلك يخرج الكتكوت من البيضة المخصَّبة؛ لأن البيضة غير المخصبة لا تُخرِج كتكوتاً؛ فهي بدون حياة؛ ولذلك لا يتكون منها جنين ، فهناك فرق بين قابلية الحياة ، وبين الحياة نفسها .

وكذلك نواة التمرة ، إذا ما ألقيتْ دون أن توضع في الأرض ، فلن تكون نخلة أبداً ، ولكن إذا ما زُرعتْ في الأرض ، ووجدت لها البيئة المناسبة؛ خرجَتْ نخلة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَن يُدَبِّرُ الأمر } [يونس : 31] .
والتدبير هو عملية الإدارة لأي شيء؛ حتى يؤدي مهمته ، وبالله من يُدير قلبك؟ ومن يدير حركة أمعائك؟ لتستخلص من الطعام ما يفيدك ، ثم تخرج ما لا يفيدك .
إياك أن تقول : إنني أنا الذي أدير ذلك؟ ونقول : كنت طفلاً في مرحلة الطفولة ، فهل كنت تدير حركة قلبك أو أمعائك؟ ومَنْ الذي يدير حركة رئتيك؟ إن الذي يديرها هو خالقها؛ لذلك اطمئنوا على حركة أجهزتكم التي لا دخل لكم فيها؛ لأن الذي خلقها فيكم قيُّوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يؤوده حفظ ذلك .

ويجيب مَنْ يسألهم الرسول صلى الله عليه وسلم على كل تلك الأسئلة بأمر الله تعالى الإجابة التي حددها الله سبحانه سلفاً { فَسَيَقُولُونَ الله } [يونس : 31] .
إذن : أما كان يجب أن نرهف الآذان ، ونُعْمِل الأبصار؛ لنرى قدرة الله سبحانه الذي وهب لنا كل تلك النعم من رزق ، وسمع ، وبصر ، وإحياء ، وإماتة ، وإحياء من ميت ، وتدبير الأمر كله؟
أما كان يجب أن نقول : يا مَنْ خَلَقْتَنَا ماذا تنتظر مِنَّا؛ لنعمِّر الكون الذي أوجدتنا فيه؟ فكيف إذن يتجه البعض بالعبَادة لغير الله تعالى؛ لشمسٍ أو قمرٍ ، أو ملائكة ، أو نبيّ ، أو صنمٍ؟ كيف ذلك والعبادة معناها إطاعة العابد للمعبود فيما يأمر به؟ وهل هناك إله بغير منهج يأمر به عباده ، ومن عبد الشمس هل كَلَّفته بشيء؟ . . لا .
إذن : يتساوى عندها مَنْ عبدها ، ومَنْ لم يعبدها ، وفي هذا نقض لألوهية كل معبود غير الله تعالى .
ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : { أَفَلاَ تَتَّقُونَ } [يونس : 31] .
فما دام الله سبحانه هو الذي خلق كل ذلك ، وأنزل منهجاً ، فعليكم أن تجعلوا بينكم وبينه وقاية؛ تحميكم من صفات الجلال ، وتقرّبكم من آثار صفات الجمال وأن تسمعوا إلى البلاغ من الرسل عليهم السلام ، وإلى مطلوباته سبحانه .
وما دام كل إنسان سيجيب عن أسئلة هذه الآية ، ويعترف أن الخالف سبحانه والمالك هو الله تعالى ، فعلى الإنسان أن يقي نفسه النار .
والعجيب أن الجميع يجيب بأن الله سبحانه هو الذي خَلَق ، فالحق سبحانه يقول : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله } [الزخرف : 87] .
ويقول أيضاً : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله } [لقمان : 25] .
وما دام الله تعالى هو الذي خلق ، وزرق ، ودبَّر الأمر ، فكيف تتركون عبادته وتتجهون لعبادة

غيره؟

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { فَذَلِكُمُ الله رَبُّكُمُ الحق }

فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32)

وقد جاء قول الحق سبحانه : { فذلكم } إشاره منه إلى ما ذكره قَبْلاً من الرزق ، وملكية السمع والأبصار ، وقدرة إخراج الحيّ من الميت ، وأخراج الميت من الحي ، وتدبير الأمر .

إذن : فقوله سبحانه : { فذلكم } إشارة إلى أشياء ونعم كثيرة ومتعددة أشار إليها بلفظ واحدٍ؛ لأنها كلها صادرة من إله واحد .

{ فذلكم الله رَبُّكُمُ الحق } [يونس : 32] .

ولا يوجد في الكون حقَّان ، بل يوجد حق واحد ، وما عداه هو الضلال؛ لذلك يقول الحق سبحانه : { فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال } [يونس : 32] .

إذن : أنتم إنْ وجَّهتم الأمر بالربوبية ألى غيره؛ تكونون قد ضللتم الطريق ، فالضلال أن يكون لك غاية تريد أن تصل إليها ، فتتجه إلى طريق لا يوصِّل إليها . فإن صُرفتم من الإله الحق فأنتم تصلون إلى الضلال .

ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بما يبين أنه لا يوجد إلا الحق أو الضلال ، فيقول سبحانه : { فأنى تُصْرَفُونَ } [يونس : 32] .

أي : أنكم إن انصرفتم عن الحق سبحانه وتعالى ، فإلى الضلال ، والحقُّ واحد ثابت لا يتغيَّر .

ومَنْ عبد الملائكة أو الكواكب أو النجوم؛ أو بعض رسل الله عليهم السلام أو صنماً من الأصنام؛ فقد هوى إلى الضلال .

وإن كنتم تريدون أن نجادلكم عقلياً ، فَلْنقرأ معاً قول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ }

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33)

قوله : { كَذَلِكَ } إشارة إلى ما تقدم من رزق الله تعالى للبشر جميعاً ، ومن مِلْك السمع والبصر ، ومن تدبير الأمر كله ، ومن إخراج الحيّ من الميت ، وإخراج الميت من الحي ، ذلك هو الإله الحق سبحانه ، وقد ثبت ذلك بسؤاله سبحانه وتعالى هذا السؤال الذي علم مُقدَّماً ألا إجابة له إلا بالاعتراف به إلهاً حقاً : { فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال } [يونس : 32] .

ومثل هذه القضية تماماً قَوْلُ الحق سبحانه : { حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الذين فسقوا أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } [يونس : 33] .

لأنهم أساءوا الفهم في الوحدانية ، وفي العقيدة ، واستحقوا أن يُعذَّبوا؛ لأنهم صرفوا الحق إلى غير صاحب الحق .

وقد كان هذا خطاباً للموجودين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن بعضهم آمن بالله تعالى؛ ولذلك فالعذاب : إنما يُحَلّ على مَنْ لم يؤمن .

وهذا القول متحقق فيمَنْ سبق في علم الله سبحانه أنهم لا يؤمنون ، وكذلك حقَّتْ كلمة ربك على هؤلاء الذين فسقوا ولا ينتهون عن فسقهم وكفرهم ، وإصرارهم على الانحراف بالعبودية لغير الله الأعلى والرَّبِّ الحق سبحانه وتعالى .

والدليل على العلم الأزليّ لله سبحانه ما نقرأه في سورة البقرة : { إِنَّ الذين كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } [البقرة : 6] .

إذن : معلوم لله تعالى مَنْ يؤمن ومَنْ لا يؤمن ، ومَنْ يستمر ويُصِرّ على كفره؛ هو الذي يَلْقَى العذاب ، بعلم الله تعالى فيه أنه لن يؤمن .

ثم يذكر الحق بعد ذلك ما يمكن أن يُجادَلَ به الكافرون بمنطق أحوالهم ، ففي ذوات نفوس غير المؤمنين بإله توجد نزعة فطرية لفعل الخير ، وتوجيه غيرهم إليه ، وهو موجود حتى في الأمم غير المؤمنة ، فكل قوم يُوجِّهون إلى الخير بحسب معتقداتهم ، فنجد بين الشعوب غير المؤمنة بإلهٍ حكماء وأطباء وعلماء ، وهؤلاء يوجهون الناس إلى بعض الخير الذي يرونه .

ونجد الطفل الصغير يكتسب المعتقدات والعادات والاتجاهات من والديه ، ومما يسمعه من توجيهاتهم ، فنجده يبتعد عن النار مثلاً أو الكهرباء؛ لأنه ترسخت في ذهنه توجيهات ونصائح غيره؛ بل إنه يتعلم كيف يتعامل مع هذه الأشياء دون أن تصيبه بالضرر .

إذن : يوجد توجيه من الخلق إلى الخلق لجهات الخير ، ألا نجد في الدول غير المؤمنة بإله مَنْ يرشد الناس إلى الطرق التي يمكن أن يسيروا فيها باتجاهين ، والطرق التي عليهم أن يسيروا فيها باتجاه واحد؟

ألا يوجد مَنْ يدل الناس على المنحنيات الخطرة على الطرق ، وكذلك يوجّههم إلى ضرورة خفض سرعة السيارات أمام مدارس الأطفال؟

نعم ، يوجد في البلاد غير المؤمنة مَنْ يفعل ذلك .

إذن : فالتفكير في الخير لصالح الأمم أمر طبيعي غريزي موجود في كل المجتمعات ، وإذ كان التوجيه للخير يحدث من الإنسان المساوي للإنسان ، ألا يكون الله سبحانه هو الأحق بالتوجيه إلى الخير ، وهو سبحانه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما يقيم حياته على الأرض ، ولذلك يقول الحق سبحانه : { قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يَبْدَأُ الخلق }

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34)

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسألهم : { هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ } [يونس : 34] .

ومعنى أن الله يسأل القوم هذا السؤال أنه لا بد أن تكون الإجابة كما أرادها هو سبحانه . وإنْ قال قائل : وكيف يأمنهم على مثل هذا الجواب ، ألم يكن من الجائز أن ينسبوا هذا إلى غير الله؟

نقول : إن هذا السؤال : لا يُطرح إلا وطارحه يعلم أن له إجابة واحدة ، فلن يجد المسئول إجابة إلا أن يقول : إن الذي يفعل ذلك هو الله سبحانه ولا يمكن أن يقولوا : إن الصنم يفعل ذلك؛ لأنهم يعلمون أنهم هم الذين صنعوا الأصنام ، ولا قدرة لها على مثل هذا الفعل .

فالإجابة معلومة سلفاً : إن الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على ذلك ، وهذا يوضح أن الباطل لجلج والحق أبلج ، وللحق صَوْلة؛ فأنت ساعة تنطق بكلمة الحق في أمر ما ، تجدها قد فعلت فِعْلها فيمن هو على الباطل ، ويأخذ وقتاً طويلاً إلى أن يجد كلاماً يرد به ما قلته ، بل يحدث له انبهار واندهاش ، وتنقطع حجته .

ولذلك لم يَقُل الحق سبحانه هنا مثلما قال من قبل : { فَسَيَقُولُونَ الله } [يونس : 31] .

بل قال : { قُلِ الله يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ } [يونس : 34] .

وجاء بها الحق سبحانه هكذا؛ لأنهم حينما سُئلوا هذا السؤال بهرهم الحق وغلب ألسنتهم وخواطرهم؛ فلم يستطيعوا قول أي شيء .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى نجد وكيل النيابة يضيّق الخناق على المتهم بأسئلة متعددة إلى أن يوجه له سؤالاً ينبهر المتهم من فرط دقته وليس له إلا إجابة واحدة تتأبى طباعة ألا يجيب عنه ، فيجيب المتهم معترفاً .

والإنسان كما خلقه الله تعالى صالح لأن يؤمن ، وصالح لأن يكفر ، فإرادته هنا تتدخل ، لكن أبعاضه مؤمنة عابدة مسبحة ، فاللسان الذي قد ينطق الكفر ، هو في الحقيقة مؤمن مُسبّحٌ ، حامد ، شاكر ، لكن إرادة الإنسان التي شاءها الله سبحانه متميزة بالاختيار قد تختار الكفر والعياذ بالله فينطق اللسان بالكفر .

وقد تأتمر اليد بأمر صاحبها؛ فتمتد لتسرق ، أو تسعى الأقدام مثلاً إلى محل احتساء الخمر ، ولكن هل هذه الفاعلات راضية عن تلك الأفعال؟

لا ، إنها غير راضية ، إنما هي خاضعة لإرادة الفاعل .

وحين يسأل السؤال : من يبدأ الخلق ثم يعيده؟ فاللسان بفطرية تكوينه المؤمنة يريد أن يتكلم؛ لكنه لا يملك إرادة الكلام ، فيبين الحق سبحانه للنبي صلى الله عليه وسلم أن يجيب نيابة عن الأبعاض المؤمنة ، فيقول سبحانه : { قُلِ الله يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ } [يونس : 34] وهو بذلك يؤكد الصيغة ، ويكفي أن يقول محمد صلى الله عليه وسلم هذا القول مُبلِّغاً عن ربه ، وينال هذا

القول شرف العندية :

{ قُلِ الله يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ فأنى تُؤْفَكُونَ } [يونس : 34] .

والإفك : هو الكذب المتعمَّد ، وهو الافتراء ، وهناك فارق بين الكذب غير المتعمد والكذب المتعمد ، فالكذب غير المتعمد هو من ينقل ما بلغه عن غيره حسبما فهم واعتقد ، وهو لون من ألوان الكذب لا يصادف الحق ، ويتراجع عنه صاحبه إن عرف الحق .

أما الافتراء فهو الكذب المتعمد ، أي : أن يعلم الإنسان الحقيقة ويقلبها؛ ولذلك نجد العلماء قد وقفوا هنا وقفة؛ فمنهم من قال : هناك صدق ، وهناك كذب ، لكن علماء آخرين قالوا : لا ، إن هناك واسطة بين الصدق والكذب .

ومثال ذلك : أن يدخل ابنٌ على أبيه ، بعد أن سمع هذا الابن من الناس أن هناك حريقاً في بيت فلان ، فيقول الابن لوالده : هناك حريق في بيت فلان؛ فيذهب الأب ليعاين الأمر ، فإن وجد حريقاً فقول الابن صدق ، وإن لم يكن هناك حريق فالخبر كاذب ، ولكن ناقل الخبر نقله حسبما سمع .

إذن : فهناك فَرْق بين صدق الخبر وصدق المُخْبِر ، فمرة يَصْدُق الخبر ويصدُق المخبر ، ومرة يصدُق الخبر ولا يصدُق المخبِر ، ومرة يصدق المخبر ولا يصدق الخبر .

فهُنا أربعة مواقف ، والذين قالوا إن هناك واسطة بين الصدق والكذب هم مَنْ قالوا : إن الصدق يقتضي مطابقة بين الواقع والخبر . أما الكذب فهو ألا يطابق الواقع الخبر .

لذلك يجب أن نفرّق بين صدق الخبر في ذاته ، وصدق المخبر ، بأنه يقول ما يعتقد . أما صدق الخبر فهو أن يكون هو الواقع .

وقول الحق سبحانه : { فأنى تُؤْفَكُونَ } أي : فكيف تقلبون الحقائق؛ لأنكم تعرفون الواقع وتكذبونه كذباً متعمداً؟

وكلنا نعلم قول الحق سبحانه : { والمؤتفكة أهوى } [النجم : 53] .

والمؤتفكة : هي القرى التي كُفئت أعلاها إلى أسفلها ، كذلك الكذَّاب يقلب الحقيقة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يهدي إِلَى الحق }

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35)

وهذا أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يسألهم سؤالاً جديداً ، لا إجابة له إلا ما يفرضه الواقع ، والواقع يؤكد أن الهداية لا تكون إلا للحق؛ لأن كل كائن مخلوق لغاية ، فلا شيء يُخلق عبثاً .

ونحن بقُدرتنا المحدودة نصنع (الميكرفون) و { التليفزيون) أو الثلاجة أو السرير وغيرها ، كلّ منها له غاية ، وكل له قوانين صيانته الخاصة به ، والذي يحدِّد الغاية من هذا المصنوع أو ذاك هو صانعه ، ويضع لها قوانين صيانتها؛ لتؤدّي غايتها ، فالغاية من أي شيء توجد قبل الشيء نفسه؛ ليوجد الشيء على مقتضى الغاية منه .

وآفة العالم الآن أنهم يعلمون أن الله سبحانه خلق الإنسان ، ولكنهم يصنعون من عندهم قوانين لصيانة الإنسان وحركة الإنسان ، وهذا غباء وغفلة من الذين يفعلون ذلك ، كان عليهم أن يتركوا أمر صيانة الإنسان للقوانين التي وضعها خالق الإنسان سبحانه .

فالحق سبحانه وتعالى قد حدد الغاية من خَلْق الإنسان وحدّد قوانين صيانته ، والشر الموجود حالياً بسبب الجهل بغاية الإنسان ، والعدول عن المنهج الذي يجب أن يسير عليه الإنسان ، فقال الحق سبحانه : { قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يهدي إِلَى الحق } [يونس : 35] .

أي : هل من هؤلاء الشركاء مَنْ يهدي الإنسان إلى غايته؟ هل قالت الشمس مثلاً غايتها؟ هل قالت الملائكة غايتها؟ هل قالت الأشجار أو الأحجار أو الرسل الذين عبدتموهم شيئاً غير مراد الله تعالى؟

إنهم آلهة لا يعرفون الغاية من العابد لهم ، ولا يعرفون الطريق الموصل إلى تلك الغاية .

ولذلك يأتي القول الفصل : { قُلِ الله يَهْدِي لِلْحَقِّ } [يونس : 35] .

فالله هداك أيها الإنسان إلى الحق في كل حركة تتحركها بالمنهج الذي أنزله الله سبحانه مكتملاً على رسوله صلى الله عليه وسلم من بدء « لا إله إلا الله » إلى إماطة الأذى عن الطريق ، وهو منهج مستوعب مستوفٍ لكل حركات الإنسان .

وجاءت الإجابة من الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم انبهروا بالسؤال وتلجلجوا ولم يوجد عند أي منهم قدرة على المعارضة ، فالغاية من خلق الإنسان وغيره يوجزها قول الحق سبحانه : { وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات : 56] .

والعبادة ليست أركان الإسلام فقط ، بل هي عمارة الكون كبنيان حيّ للإسلام ، والذي حدد الغاية هو الخالق سبحانه ، وهو سبحانه الذي يحدد طريق الوصول إليها .

ونحن حين نرغب في الوصول إلى مكان في الصحراء مثلاً ، إنما نحدد أولاً المكان ، ونختار طريق الوصول ، فإن كان الطريق المستقيم مليئاً بالعقبات والجبال ، فإنك ستضطر للانحراف عن هذا الطريق وصولاً إلى غايتك ، فهذا الطريق المعوج هو الطريق المستقيم؛ لأنه الطريق الذي يجنبنا العقبات .

ومثال ذلك : السيول التي تنزل على هضباب الحبشة ، فاختارت لنفسها المجرى السهل فكان نهر النيل ، فلا أحد قد حفر النيل مثلما حفرنا الرياحات أو قناة السويس ، بل نزل السيل واختار لنفسه الطريق السهل فسار فيه بين التعاريج والرمال والصخور .

ولذلك أنت تجد كل ما لا دخل للبشر به قد يتعرج لينفذ ، أما ما صنعه البشر فلا يستطيع ذلك .

وكل خلق لا بد له من غاية؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام يقول : { الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } [الشعراء : 78] .

فمن خلق هو الذي يحدد الغاية؛ لأن هذه الغاية توجد عنده أولاً ليخلق ، وتتجلى الدقة في قول القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فلم يقل : الذي خلقني يهديني ، بل قال : { الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } مما يدل على أن هذه القضية ستخالَف ، وبعد أن يخلق الإنسان سيقوم بعض الناس حماية لمصالحهم بوضع طريق أخرى تخالف الغاية؛ فتوصل إلى الضلال .

أما الحق سبحانه فقد أنزل القرآن فيه الهداية الحقة ، فالذي خلق هو الذي يقنن ، ولذلك يذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : { والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ } [الشعراء : 79] .

وبهذا القول وصل سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى أن الذي رزق الآباء قدرة استنباط الرزق مطعماً ومشرباً هو الله سبحانه .

وذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : { والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ } [الشعراء : 81] .

فالإماتة والإحياء هما من الحق سبحانه ، فلا أحد يسأل عمن يملك الإماتة والإحياء ، أما عن شفاء المرض فقال : { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء : 80] .

فأنت قد تذهب إلى الطبيب وتظن أنه هو الذي يشفيك؛ بل هو يعالج ، ولكن الله هو الذي يشفي .

وهكذا نعلم أن قول سيدنا إبراهيم عليه السلام : { الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } [الشعراء : 78] .

هو كلام منطقي؛ لأن خالق الشيء هو الذي يهدي إلى الغاية من الشيء؛ فالغاية أولاً ، ثم الخلق ، ثم توضيح الطريق الموصل إلى تلك الغاية ، فإذا خولف في شيء من ذلك فلا صلاح لكون أبداً .

وتجد في القرآن على لسان سيدنا موسى عليه السلام : { قَالَ رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى } [طه : 50] .

فما دام الحق سبحانه قد خلق فهو يهدي إلى السبيل الموصل إلى الغاية ، ويقول القرآن أيضاً : { سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى * الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى } [الأعلى : 13] .

وهكذا يتأكد لنا أنه ما دامت هناك غاية ، فلا بد من وجود طريق يهدينا إليه من خَلَقَنَا .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : { قُلِ الله يَهْدِي لِلْحَقِّ } [

يونس : 35] لأن سبحانه هو الذي خلق؛ ولذلك فمن المنطقي أن يأتي بعد ذلك التساؤل : { أَفَمَن يهدي إِلَى الحق أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يهدي إِلاَّ أَن يهدى } [يونس : 35] ؟
وسبب وجود اللام في قوله : { يهدي إِلَى الحق } هو النظرة إلى الغاية ، وسبب وجود : { إِلَى الحق } هو لفت الانتباه إلى أن الوصول إلى الغاية يقتضي طريقاً ، فأراد الحق سبحانه في آية واحدة أن يجمع التعبيرين معاً .

ونحن نعلم أن هذه الآية قد نزلت في الذين اتخذوا لله شركاء ، فهم يعترفون بالله تعالى ولكنهم يشركون به غيره ، فالله سبحانه وتعالى تفرَّد بالألوهية بربوبيته للخلق؛ لأنه خلق من عَدَمٍ ، ورزق من عُدْمٍ ، وخَلَق لنا وسائل العلم ودبَّر لنا الأمر ، وأخرج الحي من الميت ، وأخرج الميت من الحي ، وهدى للحق .
فإين إذن هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم مع الله تعالى؟ وهل صنع واحد منهم أو كُلُّهم مجتمعين شيئاً واحداً من تلك الأشياء؟
لذلك قال سبحانه : { هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يهدي إِلَى الحق } [يونس : 35]
إذن : فالذي يهدي هو الذي خَلَق ، وهؤلاء الذين أشركوا اعترفوا بالله خالقاً بشهاداتهم حين قال الحق سبحانه : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله } [الزخرف : 87] .
إذن : فالذين أشركوا قد ارتكبوا الإثم العظيم ، وهؤلاء الشركاء إما أن يكونوا من الملائكة ، أو من الأنبياء والرسل الذين فُتن بهم بعض الناس ، وهناك من اتخذ وسائط أخرى مثل : الشمس والقَمر والنجوم؛ وهذه أشياء عُلوية ، وبعض الناس اتخذوا وسائط سفلية كالأشجار والأحجار ، فهل أي شيء من كل ذلك يهدي إلى الحق؟ وما منهج أي منهم إذن؟ وكيف بلَّغوكم به؟
إن كل هؤلاء يعلمون أن أيّاً منهم لا يستطيع أن يَهدي ، بل هو يُهْدَى من الله سبحانه وتعالى ، فمن أين قلتم إن الملائكة ستهديكم؟ أو من أين جاء الذين فُتنوا برسولهم واتخذوه إلهاً؟ ومن أ ين جاء هذا الرسول بمنهجه؟
إن كل كائن لا يَهدي إلا بعد أن يُهدى من الله أولاً ، وإن كانت الأشياء المتخذة شركاء لا هداية لها ، ولا منهج ، ولا عقل ، ولا تفكير ، كالشمس والقمر والنجوم في العلويات ، والأشجار والأحجار في السفليات ، فماذا قالت هذه الأشياء؟ إنها لم تقل شيئاً .
وهكذا لا يستقيم أمر اتخاذهم شركاء مع الله ، حتى الملائكة ، فالله هو الذي يختار منهم المَلَكَ الذي يُبلِّغ عن الله سبحانه ، وكذلك الرسل عليهم السلام : { أَفَمَن يهدي إِلَى الحق أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يهدي إِلاَّ أَن يهدى } [يونس : 35] .
{ لاَّ يهدي } تقرأ هكذا ، وللغة فيها عملية تخفيف جَرْس لسلامة نطقها واستقامة اللغة العربية ، فنحن نعرف أن { يهدي } يعنى : يهتدي . . أصلها يهتدي . . ويهتدي فيها هاء ساكنة وتاء

ودال وياء . . وفيها تقارب لمخارج الحروف ، وهذا التقارب يجعل المعنى غائماً ، والنطق ثقيلاً ، فتقوم اللغة بعملية إبدال وإدغام ، وتخلّص من التقاء الساكنين فتصل إلى مسامعنا كما أنزلها الله تعالى لسلامة النطق وجمال المعنى؛ لأن القرآن أدَّب اللغة بكلام السماء؛ لتكون خالدة اللفظ والمعنى . فإذا كنتم على طريق هداية ، فالأصل في الهداية هو الله تعالى .

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : { فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } [يونس : 35] .
أي : ماذا أصاب عقولكم لتحكموا هذا الحكم؛ فتشركوا بالله ما لا منهج له ، أو له منهج ولكنه موصول بالله تعالى جاء ليبلغه لهم؟
وساعة تسمع { كَيْفَ } فهي للاستفسار عن عملية عجيبة ما كان في عُرْف العاقل أن تحدث . كأن تقول : « كيف ضربت أباك؟ » أو « كيف سببت أمك؟ » ، وهذا كله من الأمور التي تأباها الفطرة ويأباه الطبع والدين .
وقوله سبحانه : { فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } كأنه أمر عجيب ما كان يصح أن يحدث؛ لأن الحق سبحانه وحده هو الإله ، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغيَّر غاية وطريقاً . والله سبحانه وحده هو الذي حدد لنا الغاية والطريق الموصل إليها ، وهو سبحانه القائل : { والله يدعوا إلى دَارِ السلام } [يونس : 25] .
والمنهج هو الطريق الذي يوصل إلى دار السلام من آفة الأغيار؛ لأن الدنيا كلها أغيار ، فأنت قد تكون قوياً ثم تضعف أو صحيحاً فيصيبك المرض ، أو غنياً فتفتقر ، أو مبصراً فيضيع منك بصرك ، أو تكون صحيح الأذن سمعياً فتصير أصم بعد ذلك .
إذن : فهي دنيا أغيار ، وهَبْ أن إنساناً أخذ من دنياه كل نصيبه عافية وأمناً وسلامةً وغنًى وكل شيء؛ سنجده في قلق من جهتين : الجهة الأولى أنه يخاف أن يفارقه كل هذا النعيم ، أو يخاف أن يترك هو هذا النعيم ، هذا ما نراه في حياتنا .
إذن : فالدنيا بما فيها من أغيار لا أمان لها؛ لنفهم أن كل عطاءات المخلوق إنما هي هبة من الخالق سبحانه وتعالى؛ لأنها لو كانت من ذاتك لاستطعت الحفاظ عليها ، ولكنها هِبَاتٌ من الحق الأعلى سبحانه .
والأمر الموهوب قد يصبح مسلوباً .
ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً }

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36)

وقول الحق سبحانه : { وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً } [يونس : 36] يفيد أن بعضهم كان يتبع يقيناً؛ لأن مقابل الظن هو اليقين ، فالنسب التي تحدث بين الأشياء تربط بين الموضوع والمحمول

، أو المحكوم والمحكوم عليه ، وهي نسب ذكرناها من قبل ، ونذكّر بها ، فهناك شيء أنت تجزم به ، وشيء لا تجزم به . وما تجزم به وتُدلِّل عليه هو علم يقين ، أما ما لا تستيطع التدليل عليه فليس علم يقين ، بل تقليد ، كأن يقول الطفل : { قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ } [الإخلاص : 1] . وهذا حق ، لكن الطفل لا يستطيع أن يدلل عليه أو أن يقال شيء ومن يقوله جازم به ، وهو غير واقع؛ فذلك هو الجهل .

والعلم هو القضية المجزوم بها ، وهي واقعة وعليها دليل ، على عكس الجهل الذي هو قضية مجزوم بها وليس عليها دليل .

والظن هو تساوي نسبتين في الإيجاب والسلب ، بحيث لا تستطيع أن تجزم بأي منهما؛ لأنه إن رجحت كفة كانت قضية مرجوحة ، والقضية المرجوحة هي شك أو ظن أو وهم . فالظن هو ترجيح النسب على بعضها . والشك هو تساوي الكفتين .

وقول الحق سبحانه : { وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً } [يونس : 36] يبين لنا أن الذين كانوا يعارضون رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلوا ذلك إما عناداً رغم علمهم بصدق ما يبلغ عنه ، وإما أنهم يعاندون عن غير علم ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : { بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ } [يونس : 39] .

وكان الواحد منهم إذا تمعَّن في البلاغ عن الله تعالى والأدلة عليه ، يعلن الإيمان ، لكن منهم من تمعن في الأدلة وظل على عناده ، والذين اتبعوا الظن إنما اتبعوا ما لا يغني من الحق شيئاً .

لذلك يبيّن لهم الحق سبحانه أنه عليم بخفايا نفوسهم ، ويعلم إن كان إنكارهم للإيمان نابعاً من العناد أو من العجز عن استيعاب قضية الإيمان؛ لذلك يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الله عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } [يونس : 36] .

إذن : فقد علم الله سبحانه أزلاً أن بعضهم في خبايا نفوسهم يوقنون بقيمة الإيمان ، لكنهم يجحدونها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

{ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ولكن الظالمين بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ } [الأنعام : 33] .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى عليم ، ولا يخفى عليه أنهم كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وبعضهم لم يفهم قيمة الإيمان ، ومن علم منهم قيمة الإيمان جحدها ، عناداً واستكباراً .

يقول الحق سبحانه : { وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً } [النمل : 14] .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : { وَمَا كَانَ هذا القرآن أَن يفترى }

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (37)

وحين تستمع للقرآن وما فيه من سر الأعداد والإخبار بالمغيبات التي لا تخضع لمنطق الزمان ، ولا لمنطق المكان ، فالفطرة السليمة توقن أن هذا القرآن لا يمكن أن يُفتَرى ، بل لا بد أن قائله ومُنزِّله عليم خبير؛ لأن القرآن جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة .

أي : أن ما به دائماً هو أمام الناس ، أو مواجه لهم ، وهو كتاب مصدِّق للكتب السابقة من قبل تحريفها كالتوراة والإنجيل والزبور ، وهي الكتب التي سبقت القرآن نزولاً ، لا واقعاً ، فجاء القرآن مصدِّقاً لها .

أي : هي تصدقه ، وهي يصدقها من قبل تحريفها ، وهي الكتب التي بشَّرت بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً ، مثلما جاء في القرآن عن تصديق عيسى عليه السلام بمجيء محمد عليه الصلاة والسلام : { وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ } [الصف : 6] .

فلما جاء أحمد (محمد صلى الله عليه وسلم) ونزل عليه القرآن صدَّق الإنجيل في قوله هذا ، وما جاء في القرآن من عقائد أصيلة هي عقائد جاءت بها كل الكتب السماوية ، فالحق سبحانه يقول :

{ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إلى نُوحٍ والنبيين مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَآ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وعيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً } [النساء : 163] .

ويقول الحق سبحانه :

{ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ } [الشورى : 13] .

إذن : فهناك أصول جاءت بها كل الكتب السماوية ، وهناك كذلك أخبار أخبرت عن حدوثها الكتب السماوية ، وأبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن وفيه تلك الأخبار ، فمن أين جاء محمد صلى الله عليه وسلم بتلك العقائد الصحيحة ، وتلك الأخبار الموجودة في الكتب السابقة ، وهو صلى الله عليه وسلم لم يكن من أهل الكتاب ، ولا عَلِمَ منهم شيئاً .

إذن : فعندما يقول محمد صلى الله عليه وسلم ما جاء ذكره في الكتب السابقة على القرآن ، فهذه الكتب مصدقة لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن هذه الأخبار قد وقعت ، وهذا تأكيد لصدقه؛ لأنه بشهادة أهل زمانه لم يجلس إلى معلِّم ، ولم يقرأ كتاباً ، وتاريخه وسيرته معروفة؛ لأنه من أنفسكم ، ولم يُعْلَم عنه أنه قد زاول كلاماً بليغاً ، أو خطب في قوم قبل الرسالة ، أو قال شعراً .

وبعد ذلك فوجيء هو كما فوجئتم أنتم ، بمجيء هذا البيان الرائع ، فمن أين جاء به؟

أنتم تقولون إنه هو الذي جاء به ، لكنه صلى الله عليه وسلم ينسب الرفعة لصاحبها ، ويعلن أنه

صلى الله عليه وسلم مُبلّغ فقط ، فيقول ما أمره الله به أن يقوله : { قُل لَّوْ شَآءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }

[يونس : 16] .

ويحضُّ القرآن الكريم النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يسألهم : هل لاحظوا على كلماته من قبلُ البلاغةَ والفصاحةَ أو الشعرَ؟!

ولننظر في « ماكُنَّات » القرآن الكريم ، وهي الآيات التي يقول فيها الحق سبحانه : { وَمَا كُنتَ } مثل قوله سبحانه :

{ ذلك مِنْ أَنبَآءِ الغيب نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ } [آل عمران : 44] .

وهذا أمر ثابت في الأخبار .

وقول الحق سبحانه : { وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين } [القصص : 44] .

والوحي إلى موسى عليه السلام والمكان الذي نزل فيه ذلك الوحي أمر ثابت في الأخبار .

وقول الحق سبحانه : { وَلَكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العمر وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ } [القصص : 45] .

وكثير من هذه الآيات تجعل محمداً صلى الله عليه وسلم وكأنه يسأل المعاصرين له : كيف أخبرت بوقائع وأخبار لم أكن موجوداً في زمانها أو مكانها؟

لا بد إذن أن الله الحق سبحانه هو الذي أخبرني بما وافق ما عندكم من أخبار .

وبعد ذلك جاء القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه : { فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ } [البقرة : 97] .

أي : أنه الكتاب الذي يضم صدق كل حدث قادم؛ لأن القرآن خرق حُجُب وحُجُزَ الماضي والمستقبل .

ونحن نعلم أن الأشياء الغيبية تحدث بسببين؛ الأول : ان يتكلم عن شيء سبق الزمان الذي نزل فيه ، فهو يتكلم في الماضي الذي لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الاطلاع والتعلم ليعرفه ويعلمه .

وكذلك خرق القرآن الكريم حجب الحاضر الذي عاصر نزوله ، هذا الحاضر الذي قد يكون محجوباً بالمكان .

وأضرب هذا المثال ولله المثل الأعلى فقد يحدث حادث في الإسكندرية في نفس الوقت الذي تكون أنت فيه موجوداً بالقاهرة ، وأنت تعلم هذا الحدث؛ لأنه محجوب عنك ببعد المكان ،

وحاجز المكان يتمثل غالباً في الأمور الحاضرة ، أما أمور المستقبل فهي محجوبة عنا بالزمان والمكان معاً .

وحين يخبرنا القرآن الكريم بحدث ماضٍ لم يشهده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يتعلمه ، ولم يقرأ عنه؛ إذن : فالقرآن إنما يخرق أمامنا حجاب الزمن الماضي . وإذا أخبر القرآن بحدث حاضر في غير مكان نزوله على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا خرق لحجاب المكان مثل قول الحق سبحانه :

{ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ } [المجادلة : 8] .

وحين سمع المنافقون والكفار هذا القول الكريم ، لم ينكروا أنهم قالوا في أنفسهم ما جاء به القرآن ، وهكذا خرق القرآن حاجز المكان في أنفسهم هم .